كلمة العدد

من أدب التأليف

إن من يتتبع حركة التأليف في الوقت الحاضر وبخاصة في العلوم والمعارف الإنسانية يجد نفسه تائهاً في كم هائل من الإصدارات الحديثة التي تتسابق المطابع ودور النشر في دفعها إلى السوق.. وغالب هذه الإصدارات يحمل عناوين عريضة وأغلفة مزينة بجميل الألوان والزخارف، تعبر عن مضمون يخلو من روح الإبداع.. ما فيه سوى إعادة مكرورة لما سبق إليه كبار العلماء من قبل أو إخراج لما صنعوه على نحو آخر. ولا نقع في المكتبات - مع كثرتها - على ما نصبو إليه من هذا السيل المتدفق من المطبوعات إلا على نسبة مئوية لا تكاد تذكر.. وإذا الذي يبتغي كتاباً جديداً مفيداً تراه يفتش عنه كمن يبحث عن إبرة في كومة قش.

أخذت تدور على الألسنة اليوم عبارة مغلفة بالفخر والزهو لا يقرها العلم: «لقد ألفت خمسين كتاباً» أو «بلغت كتبي ستين مع هذا الكتاب». فهل بات التأليف وسيلة شهرة وسبيل فخر للمؤلفين، فيدفع أحدهم إلى المطبعة بأعداد من الكتب يغطي فيها عجزه عن الوصول إلى المال أو الحصول على المنصب أو الجاه.. لأنه وجد التأليف مركباً وطيئاً يوصله إلى تلك الغاية؟

إن الحال ليختلف عند الأقدمين.. فإن أحدهم ليربأ بنفسه عن تعداد مؤلفاته أو الافتخار بها.. ولا يقدم على التصنيف إلا صاحب الأهلية الذي يجد ضرورة لوضع المصنفات، يُعدُّ لها الإعداد الكافي، ويحضّر لها التحضير الطويل.

ومن يقرأ في مقدمات كتبهم يجد مصداق هذا الكلام، ويجد أصحابها يضعون المبررات التي تسوّغ لهم الإقدام على تصنيف المصنفات، ويسوقون الاحترازات التي تدفع عنهم تهمة التعدي.. فيقول أحدهم

مثلاً: «وقد طلب مني من لا أستطيع رده أن أكتب كتاباً في هذا الفن. وأنا لست فارس هذا الميدان، ولكنني أعرض ما عندي على الإخوان ليسددوا خطاي، ويقوّموا اعوجاجي». فإذا أنهى الكتاب اعتذر للقراء عن زلة القلم وغفلة الفكر. ثم يقول في النهاية: «وكتب فلان بن فلان العاجز المقصر الذي يرجو عفو ربه وأن يشمله برحمته ومرضاته» ويطلب الدعاء من كل مطالع في كتابه.

ورأينا في علماء الشام ومصر وغيرهم طبقة من المتأخرين، رسخت أقدامهم في العلم، ومع هذا فقد أحجموا عن التأليف معتمدين في تدريسهم ونشر علومهم على كتب من سبقهم، واستغنوا بها، لأنهم لم يجدوا جديداً يضيفونه عليها.

هاتان إذن صورتان تختلفان: قدّم أولئك القوم زبدة علمهم وعصارة فكرهم، وجاؤوا بمبتكر جديد كل الجدة نافع كل النفع.. ثم إذا كان دور من بعدهم إذا بهم يجمعون خليطاً من هنا وهناك، فيه الغث وفيه السمين، تبدو عليه العجلة، ويعوزه كثير من التحقيق.

ولا يصح أن نعمم كلامنا على الجميع فإنّ من بين المحققين والمصنفين اليوم ناساً لم ينساقوا مع الجمع، ولم يخلطوا مع المخلطين، وإنما حذوا حذو السلف الصالح، ومنهم على سبيل المثال أستاذنا الكبير العلامة محمود شاكر أطال الله بقاءه، فإنه إذ يخرج كل عمل جليل متأن نراه يكتب فوق اسمه عبارة «قرأه» أو «علق عليه»، مع ما هو عليه من تمكن وعلم وفضل. وله والحمد لله نظائر وأشباه ممن يفتخر بهم.

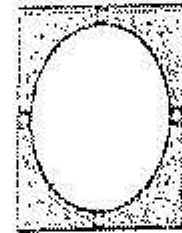
رحمة بنا معشر المؤلفين والمحققين.. فمن كان لديه جديد مبتكر فليتقدم، وإلا فلعله يكون موضع تقدير إذا أراح واستراح.

د. عبد الرحمن فرفور

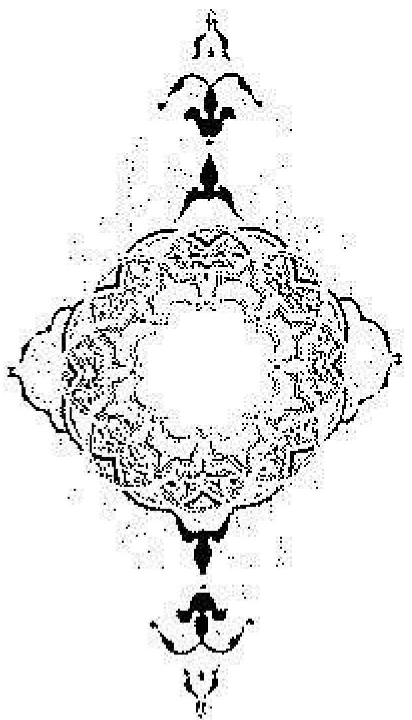
أهمية الفتاوى الشرعية كمصدر لكتابة تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الحديثة

تكوّن الفتاوى الشرعية في التاريخ الإسلامي على امتداد العصور الحديثة، كما هائلاً في المكتبة العربية، سواء ما طبع منها أم ما يزال مخطوطاً. وهي تشكل للباحث في تاريخ الحضارة الإسلامية مصدراً مهماً لا غنى عنه في كتابة التاريخ. وتتمثل تلك الأهمية في أن الفتاوى تعدّ سجلاً حقيقياً للأحداث التاريخية التي وقعت بالفعل.

الدكتور الشيباني بنبلغيث
كلية الآداب - صفاقس



والفتوى في حدّ ذاتها دليل على كيفية معالجة تلك الأحداث الواقعة شرعياً. وأهم من ذلك أن هذه الفتاوى صادرة عن رجال كانوا على قمة هرم العلوم الشرعية في زمنهم، وكانوا شهود عيان على الوقائع التي أفتوا فيها، وعاصروا حوادثها، وسجلوها بأيديهم، ومهرت بأختامهم؛ ذلك أن الفتاوى تطرقت إلى المشاكل المختلفة في حياة الإنسان مثل العبادات والمعاملات، حتى إنها أصبحت عند إحداث القوانين الوضعية في بعض البلدان الإسلامية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مرجعاً قانونياً وسنداً فقهياً، يعتمد عليه رجال القانون في صياغتهم للمواد القانونية، وبخاصة فيما يتعلق بشؤون



الأسرة والتملك والميراث والأحباس (الأوقاف) وما شابه ذلك. من هنا فإن الفتاوى تعدّ بحقّ الوصف الكامل لمشكلات المجتمع وهمومه الحياتية، وبالتالي فهي مصدر ثريّ لمن يريد دراسة المجتمع من الداخل. ونعتقد أنّ نظام الإفتاء ما يزال يكتنفه الكثير من الغموض، ولم يدرس من طرف المؤرخين دراسة علميّة شاملة، وهو ما دعانا إلى محاولة إثارة الموضوع في هذا العمل على النّحو الآتي:

- الفتوى والمفتي
- تطوّر الفتاوى في العصور الحديثة
- أهميّة الفتاوى بوصفها مصدراً للتاريخ
- الصعوبات المنهجية في كتب الفتاوى

- الفتوى والمفتي

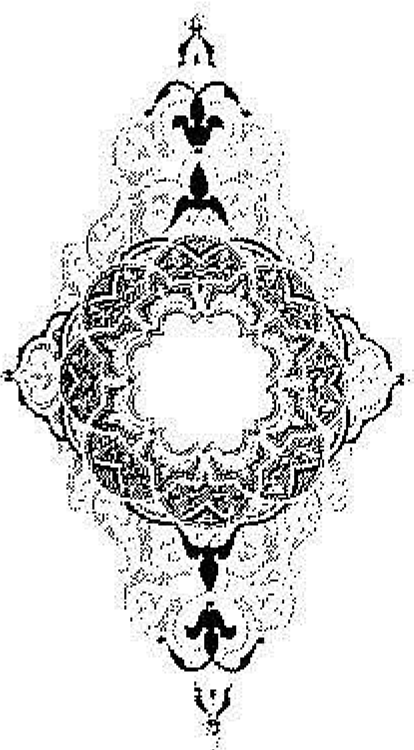
١ - **الفتوى** : تعني الفتوى في الاصطلاح الشرعي إصدار تقرير من قبل عالم في فقه الشريعة حول مسألة مختلف فيها، يراد حلّها حسب القانون الشرعي[١]. وهذا التقرير ليس له صفة الحكم، بل هو شرح لقضية معينة أو إعطاء توضيح لها. والفتوى أينما صدرت صالحة للعموم، وتنطبق على جميع المسلمين، لأنها تضمّ مسائل القانون الشرعي وأحكامه كلها. وهي صالحة للمسائل الجزائية والأحكام المدنية، والمسائل المتعلقة بالعبادة[٢].

وتأتي الفتوى بعد السؤال، والهدف من ذلك هو توضيح ما أشكل في مجال من مجالات الحياة والنظر في مدى توافقه مع واقع الإنسان، وهي أن ما يفعله صاحب السؤال مطابق لمبادئ الدين والشرع أو خارج عنهما؟.

وتتناول الفتوى الشؤون الخاصة والشؤون العامة؛ ففي فتاوى الحق العام فإن الدولة ومؤسساتها هي التي تطلبها، كما هو الحال عند إعلان الحرب أو إبرام السلم. أما الفتاوى الخاصة فيطلبها أناس يريدون معرفة رأي الدين في مسألة من المسائل. لذلك فإن للفتاوى اتصالاً وثيقاً بالواقع اليومي، فهي أجوبة عن أسئلة حدثت بالفعل. والافتاء ضرب من الاستشارة القانونية التي تسمح بحل المشكلات المطروحة[٣].

ومن مواصفات الفتوى أنها تكون جواباً على سؤال، وأنّ المفتي يضع ختمه عليها، ويذكر مصدر آرائه العلمية واسم المؤلف وموضع الاقتباس. وتتعلق الفتوى بكل موضوع وقع السؤال عنه دون استثناء، سواء كان في العبادات أم المعاملات. وقد شملت الفتاوى مواضيع الوقف، وقضايا الميراث ومشكلاته، والمسائل المالية من بيع وشراء ورهن وإجارة ووصاية وشفعة وولاية عن قصَّر، وحجر، وديون، وكذلك مشكلات الأسرة من زواج وطلاق ونفقة ورضاع وحضانة[٤].

أما أسلوب الفتوى فإنّه يتّسم بطابع الخصوصية في اللغة وطريقة التعبير؛ إذ تتبع أسلوباً ثابتاً محفوظاً، وهو أسلوب الفقهاء، الذي أصبح تقليداً معروفاً. كما أن أغلب



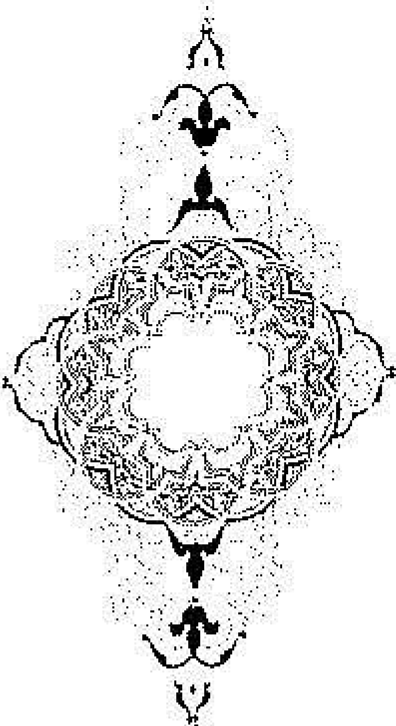
أسئلة الفتوى وأجوبتها لا تذكر أسماء الأشخاص الذين يطلبون الإفتاء، ولا تذكر شيئا يعرّف بوضعهم وأمكنتهم. ويكتفى بذكر المشكلة مذيلة باسم مستعار كزيد وعمرو. وكذلك كان يفعل المستفتون من غير المسلمين، ولكنهم يضيفون إلى أسمائهم لفظ «مستأمن» إن كان من رعايا الدولة، ولفظ «حربي» إن كان من غير رعاياها[٥]. ونادراً ما كان يحدّد ذكر الاسم والمكان الحقيقيين في الفتوى.

وهذا الغموض في الأسماء والتعقيد في الأسلوب من شأنه إخفاء الكثير من المعلومات وجعل بعض المعطيات غير واضحة، مما يزيد في صعوبة مهمة الباحث في التاريخ. ولكن هذا التنوع في مصادر السؤال يضيف ثراء آخر للتاريخ.

٢ - **المفتي** : يطلق هذا الاسم على العالم المجتهد في فقه الشريعة الإسلامية، الذي تولى منصب الإفتاء وتصدّر للفتوى سواء في العاصمة أم في المدن الأخرى. وقد يعطى أيضا للفقيه المقلّد الذي يعمل بفتوى المجتهدين السابقين له دون أن يقدّم جديدا، كما هو الغالب في أواخر القرون الحديثة. وفي جميع الحالات فإن المفتي يتمتع بمستوى علمي رفيع في علوم الشرع خاصة. حتى أننا نجد غالبية المؤلفين في العلوم الشرعية تولّوا الفتوى كثيراً أو قليلاً، وجمعت فتاويهم في كتب سواء كتبت بأيديهم، أم بأيدي تلاميذهم.

وألّفوا كذلك في غير الفتوى والإفتاء. بل كان منهم الكثير ممن كتب في التاريخ، وبلغ فيه شأوا عظيماً. ومنذ عهد السلطان العثماني سليم الأول خضعت الهيئات القضائية والدينيّة كلّها إلى سلطة مفتي استانبول، بوصفه شيخ الإسلام للولايات التابعة للأمبراطورية العثمانية، فهو الذي كان يفتي فيما يرفع إليه من المسائل القضائيّة. ولئن كان لا يملك القوة لإنفاذ فتواه إلا أنه يندر أن يخالف القضاة أحكامه[٦]. وقد احتل المفتي في الدولة مكانة مرموقة، إذ يأتي على رأس السلطة الدينية، ويعيّن في منصبه مدى الحياة، وقلّ ما يُعزل، وهو الذي يعيّن المفتين في المقاطعات التابعة للدولة. ومنذ منتصف القرن الثامن عشر أصبح يلقّب رسميا بشيخ الإسلام[٧] وكان في كل ولاية مفت أكبر يشرف على المفتين والقضاة في بقية مدن الولاية. وكان منذ بداية القرون الحديثة يعيّن من استانبول، لكن هذا التقليد ما لبث أن تخلّت عنه العاصمة، واستقلّت فيه بعض الولايات؛ لذلك تطوّرت مع الزمن وظيفة مفاتي الولايات، تبعاً لتطور الولاية سياسياً.

في المدن الصغيرة كثيراً ما يكون مركزا القاضي والمفتي مندمجين في شخص واحد. وإذا انفصل هذا عن ذاك فإن المفتي يكون في مساعدة القاضي، الذي يستشيره فيما يشكل عليه من المسائل. وقد يصبح القاضي مفتياً إذا وصل إلى درجة الورع في العلم أو تقدمت



به السن. إلا أنّ هناك عدداً من عناصر الاختلاف في الوظيفة بين المفتي والقاضي، لأن الحق بالقضاء هو قبل كل شيء من صلاحيات السلطة السياسية، والقاضي يصدر الأحكام باسمها، ولا يمكن أن يصدر حكماً ما لم يكن معيّنا من الدولة[٨]. أما المفتي فإن الذي أهله للفتوى هو علمه، والثقة في ضميره وأخلاقياته، ولا يقيّده زمان ولا مكان. بينما يرتبط القاضي بالزمان والمكان، ويعطي حكمه على ذلك الأساس. ولهذا فإن المفتي يجيب عن كل تساؤل يطرح عليه بشكل قطعي لا رجعة فيه، ولكن رأيه لا يعدّ حكما ملزماً مثل حكم القاضي. ومهمة المفتي الوحيدة إصدار الفتوى طبقا للمذهب الذي يتبعه، ويحرص على توفير الحل الملائم وإنارة الطريق أمام من أشكل عليه أمر دينه أو دنياه، سواء على المستوى الخاص أم العام.

التطوّر التاريخي للإفتاء في القرون الحديثة

شهد منصب الفتوى تطوّراً مطّرداً تبعاً للتحولات السياسية والاقتصادية في الدولة خلال القرون الحديثة، وذلك بسبب ارتباط الإفتاء بالسلطة من ناحية وتنوّع الموضوعات ومجالات الفتوى من ناحية أخرى. وحدث هذا التطور على مستويين : مستوى الهيكل الوظيفي، ومستوى الموضوعات.

١ - التطور في الموضوعات المستفتى فيها:

حدث التطور تبعاً للتّوسّع الاقتصادي والثقافي، ونشوء ميادين جديدة للإفتاء. ففي منتصف القرن السادس عشر انتشر شرب القهوة في الامبراطورية العثمانية، فتصدّى العلماء لهذه ظاهرة، وأصدر المفتي الأكبر يومها أبو السعود (- ١٥٧٤) صديق السلطان سليمان القانوني فتوى بتحريم شربها، بل طالب سنة ١٥٤٣ بإغراق السفن التي تحمل البن. وكذلك الأمر عندما انتشرت تجارة التبغ في البلاد الإسلامية، ولقي الكثير من الناس حتفهم بسبب تعاطيهم شرب القهوة والتبغ المحرّمين طبقا لفتوى المفتي الأكبر. إلا أن ظروف التطوّر ما لبثت أن فرضت الأمر الواقع، وتقبل الناس بمرور الزمن كلاً منهما، وخاصة بعد أن أصدر مفتي استانبول الشيخ بهائي أفندي سنة ١٦٥٢م فتوى بإباحة القهوة والتدخين[٩].

وتجاوز تدخل الإفتاء مسألة القهوة والتبغ ليتطرق إلى الميدان العلمي والثقافي إذ منع العلماء مدة طويلة إدخال طباعة الكتب، فأشاعوا أنّ الطباعة تتناقض مع الدين. إلا أن هذا الأمر لم يدم طويلاً، إذ أنشأ أحد الأتراك مطبعة في تركيا . ولكي يسكت طبقة النسّاخين الذين يرتزقون من نسخ الكتب باليد والمعارضين للطباعة ويكسب الصفة الشرعية والسياسية لعمله طلب باسم مجهول كالعادة

المتبعة فتوى من شيخ الإسلام عبد الله أفندي الذي أفتى له سنة ١٧٢٧م بجواز طباعة الكتب، بل وأضاف معلّلاً فتواه بأنّ هذا العمل له حسنات كثيرة كانخفاض ثمن الكتب وسهولة الحصول عليها. واقترح في فتواه أن يستعين صاحب المطبعة بالعلماء لمراجعة الكتب المطبوعة وتصحيحها، كي يكون العمل أكثر نفعاً وإتقاناً. وبذلك بدأت الطباعة في الإمبراطورية العثمانية[١٠] وإذا كانت الكتب الدينية قد تأخرت طباعتها مدة قرن آخر بعد تأسيس المطبعة فإنه ما لبث أن صدرت فتوى بجواز طباعة المصاحف مع عدم بيعها، وذلك من طرف الشيخ محمد التميمي مفتي الديار المصرية سنة ١٨٢٣م[١١].

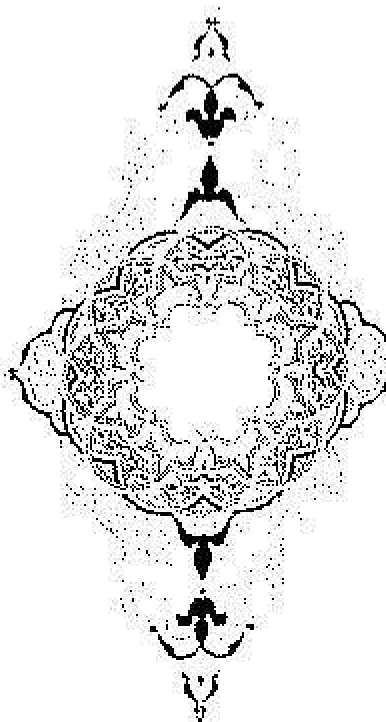
ولا شكّ أنّ لهذه الفتاوى المذكورة وغيرها الأثر الهام في الحياة الاقتصادية والعلمية، إذ من شأنها أن تدعّم حركة الاقتصاد وتنشر العلم والثقافة. وبالتالي فإن الفتاوى تساهم في مواكبة أحداث التاريخ وتطوّرها.

٢ - التطور في منصب الإفتاء

شمل التطور أيضاً منصب الإفتاء، فقد أصبح المفتي الأكبر في الدولة العثمانية منذ منتصف القرن السابع عشر يحمل رسميا لقب شيخ الإسلام، بعد أن كان هذا اللقب يمنح تكريماً لمن بلغ درجة عالية في العلوم الشرعية. ويطلق في بقية المدن على الأشخاص الذين عرفوا بعلمهم وتقواهم. ولعلّ هذا التحوّل يشير إلى اتساع صلاحيات المنصب، وشعور السلاطين بالحاجة إلى المفتين في دولة واسعة الأطراف تضمّ خليطاً من القوميات والديانات والمذاهب، وهو في الوقت نفسه يدلّ على تداخل رجال الدين وعلى تأثيرهم في الحياة السياسية[١٢]. وبهذا التحوّل أصبح شيخ الإسلام أحد أعضاء مجلس الوزراء، ومهمته الرسمية هي الفتوى، وهو الذي يولّي القضاة والمفتين في الامبراطورية بإذن السلطان[١٣]. وهذا الاهتمام بتطوير منصب الإفتاء من قبل السلطنة كان في الغالب رغبة في الاستعانة بالمفتين لتبرير سياسة الدولة وإضفاء الشرعية على أعمالها فيما ترغب بتنفيذه، مثل مشروعية حرب أو القيام بإصلاح ما أو عزل سلطان أو غير ذلك. وهو ما يبيّن أنّ الإفتاء ظاهرة واقعية، وفاعلة في الدولة. ويبرز مدى تأثير الفتاوى في مجرى الأحداث التاريخية، مما يؤكّد ضرورة الاهتمام بها في العمل التاريخي.

أهمية الفتاوى مصدراً للتاريخ

تشكل الفتاوى أهمية كبيرة للمؤرخ، فهي مصدر ثريّ للبحث، شامل لجوانب حياة الإنسان المختلفة. ويمكن إبراز هذه الأهمية في مجالين: مجال الأفكار والموضوعات المطروحة في السؤال والجواب. ومجال التّدوين والتأليف.



المجال الأول : يتمثّل فيما تطرحه الفتوى ذاتها من الموضوعات والمعلومات الآتية :

أ - نوع القضية المطروحة للإفتاء وتأثيرها المباشر في مجرى الأحداث التاريخية.

ب - ما تبرزه الفتوى من أوضاع السائل المجهول ومذهبه ودولته وانتمائه الديني والعرقي والسياسي.

جـ - منهج المفتي ومصادره المعتمدة في فتواه ومكانته العلمية والوظيفية ودرجة اجتهاده أو تقليده.

د - المعلومات التاريخية الزمانية والمكانية والسلطة السياسية والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ودوافع الفتوى.

المجال الثاني : يمكن إبراز عنصرين فيه؛ أولاً: أثر الإفتاء في تدوين التاريخ. وثانياً : المساهمة في التأليف.

١ - أثر الإفتاء في تدوين التاريخ

تمكن أهمية الفتاوى في أنها أولاً وبالذات تدوين للتاريخ من قبل المفتي، فيجد المؤرخ القضية المفتى فيها جاهزة وموثّقة بشكل رسمي، لا يتطرّق إليه الشك من حيث الوقوع أو عدمه. إنها غالباً ما تكون ممهورة بختم صاحبها مؤرخة باليوم والشهر والسنة. فهي إذاً سجلّ للحدث الواقع فعلاً عن طريق طرفين، هما السائل والمجيب. وهذا السؤال والجواب يفسّر الحدث، ويساعد المؤرخ على حلّ الإشكال التاريخي فيه. إذ إن الفتوى تعبّر بشكل أو بآخر عن الاتجاه السياسي للدولة أو عن الشعور الديني العام للمجتمع، أو عنهما معاً. خاصة وأنّ القائمين بالفتوى هم علماء بالدرجة الأولى في مجال اختصاصهم، ومهما اختلفت أساليبهم أو تعقدت اصطلاحاتهم فإنهم يكتبون ويدوّنون علوماً لها أثرها الفعّال في حياة الإنسان الروحية والاجتماعية؛ فلا بد للمؤرخ والحالة تلك أن يقف على أفكار الفقهاء ويلاحظ تطوّرها وما يمكن أن ينعكس منها على التاريخ.

٢ - مساهمة الإفتاء في حركة الفكر والتأليف

تصدر أغلب الفتاوى عن المفتي مباشرة. وتكون مكتوبة إذا كان المفتي في وظيفة رسمية، وكانت فتواه ترتبط بالحق العام. فإذا لم يكتب في حينه سجله تلاميذ المفتي. وقد جمعت تلك الفتاوى في كتب، سواء من طرف المفتي نفسه أم من فقهاء مذهبه، لتصبح حجة للناس ومصدراً وإحالة لمن كان في سلك التدريس أو القضاء. وقد تميّز الإنتاج الفكري للمفتين في العالم الإسلامي بالغزارة والتنوّع وخاصة في القرون الحديثة، وذلك تبعاً لتعدّد الموضوعات المطروقة في الإفتاء وتعدّد وجهات النظر العلمية والمذهبية، فازدادت حركة التأليف في هذا الميدان، وسميت كلّ فتوى باسم صاحبها، وأصبحت تنسب إليه. ونتيجة لما عرفته أواخر القرون الحديثة من تطورات

مختلفة على صعيد العلاقات بين العالم الإسلامي والدول الأوروبية فقد نشطت حركة التقنين، فظهرت مجلة الأحكام العدلية، التي أخذت من الفقه الحنفي. ثم ظهرت مجموعة القوانين المستمدة من الفقه الإسلامي عموماً دون تفرقة بين المذاهب، معتمدة في ذلك على كتب الفتاوى العديدة[١٤]. ومن أمثلة غزارة الإنتاج في ميدان الفتاوى ما عرف عن ابن حجر العسقلاني(-٨٥٢ هـ) الذي كان من أشهر المؤرخين والمفتين في أواخر العصر الوسيط، فعندما تصدّر للفتوى كان ينجز يوميا ما بين عشرين وثلاثين فتوى. حتى إنه صنّف كتاباً جمع فيه أهمّ فتاويه في شهر واحد سمّاه: «عجب الدهر في فتاوى شهر»[١٥]. وأنجز الشيخ الإمام محمد عبده في الفترة المعاصرة خلال ستّ سنوات متوالية قام فيها بمنصب الإفتاء بمصر ما يقارب ألف فتوى يتعلّق أغلبها بالمشاكل المالية في مصر والبلاد الإسلامية[١٦]. وبناء على ذلك يتوجّب على المؤرّخ ألا يهمل ذلك الكمّ الهائل من كتب الفتاوى مهما تعقّدت أساليبها الفقهية.

الإشكالات المنهجية في الفتاوى الشرعية

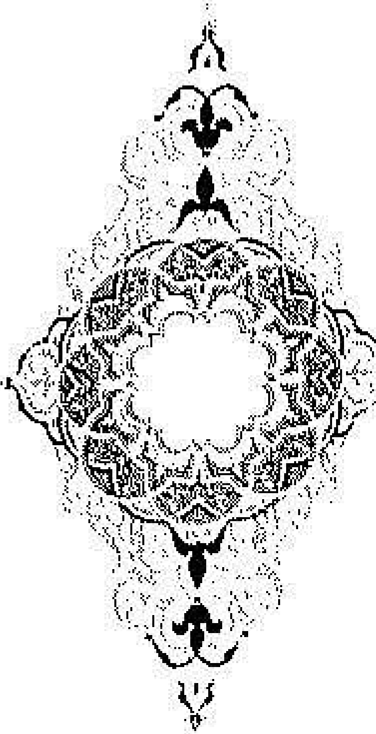
يصطدم المؤرخ عند تناوله لكتب الفتاوى بعدة صعوبات، تتمثل في الإشكالات المنهجية في تلك الكتب، ممّا يحدّ من الاستفادة منها أحيانا. ويمكن إجمال تلك الصعوبات في النقاط الآتية :

١ - منهج المفتي في الفتوى

يسيطر على منهج المفتين الأسلوب الفقهي، المشحون بالاصطلاحات الفقهية المختصة والغامضة. وهذا وإن كان مألوفا في ذلك المجال، فإنه بالنسبة إلى المؤرخ يحتوي الكثير من الغموض. فهو يكثر من النقل وذكر أسماء المصادر والمؤلفين الذين يذكرون بشكل مختصر وغير واضح، مع تشابه في الأسماء خاصة في أواخر القرون الحديثة حين ساد التقليد وكثر ترداد أقوال العلماء السابقين. ثم إن صياغة الفتوى عن طريق سائل مجهول تزيد الأمر غموضا وتلبيسا.

٢ - علاقة المفتي بالسلطة

كان السلاطين في الدولة العثمانية، وكذلك ولاة الأقاليم شديدي الحرص على تأييد رجال الدين، وعلى رأسهم المفتون والقضاة وذلك لترسيخ سلطتهم، إذ كانوا يسعون إلى الاستفادة منهم كلما ألّت بهم ظروف سياسية عسيرة. فاعتبر المفتي الأكبر أو شيخ الإسلام من كبار رجال الدولة. وإلى جانب دوره الديني المتمثل في الإشراف على مؤسسة القضاء والإفتاء فإن كثيراً من الأمور السياسية تتوقف على فتواه حتى تصبح مشروعة. ولذلك شارك أصحاب هذه السلطة



في المؤامرات السياسية وغنموا منها نصيباً. ومن هنا يصبح رأي المفتي موضع ريب في الحدث الذي أفتى فيه.

٣ - تولية المنصب لغير الأكفياء

كثيراً ما يصل إلى منصب الإفتاء من لا يكون جديراً به، فهو يدرك ذلك إما عن طريق القرابة أو بطريق التسلسل الوارثي لأسرة عالم من العلماء، أو مذهب من المذاهب. فلا يستطيع الاستقلال برأيه خاصة من لم يكن عالماً ورعاً. فيصبح مسوّغا لأعمال السلطة، ومبرّرا لتصرّفاتها. ومن الطبيعي أن يؤثّر هذا في رأي المفتي واستقلاليته، فتضيع الحقيقة التاريخية، وتصبح القضايا المستفتى فيها موضع شكّ وارتياب من قبل المؤرخ.

٤ - اختلاف الخطوط وعملية النسخ في كتب الفتاوى

تتّسم كتب الفتاوى المخطوطة باختلاف خطّها، وذلك بسبب تنوّع الخط العربي في شكله وتطوّره عبر القرون واختلاف فترات النسخ والناسخين لها، إضافة إلى اختلاف منهجية المفتين، وما يعتري النسخ عادة من الخلل والنقصان بتقادم الزّمن وتعدّد النساخ.

إلا أنه بالرغم من هذه الصّعوبات تظلّ الفتاوى متميّزة بطابعها الخاص، تتجلّى فيها أصالة الثقافة وتنوّع المعلومات والأحكام الاجتهادية وليدة الحاجة والظروف، التي تجيب على أسئلة في أحداث تتّصل بالحياة والناس.

ونظراً لهذه الإشكالات المتعدّدة المختلفة من ناحية، وتلك الأهمية للفتاوى من ناحية أخرى تصبح الحاجة ماسّة إلى اتّباع منهجية خاصة بكتب الفتاوى ووثائقها الغزيرة حتى تتحقّق منها الفائدة المرجوة لكتابة التاريخ.

ونورد هنا تصوّرنا لهذا المنهج، ويتلخّص فيما يلي :

أ - ينبغي على المؤرخ فهم المصطلحات الفقهية، وذلك بالرجوع إلى بعض أصول الفقه الإسلامي واعتبارها مفيدة للتاريخ.

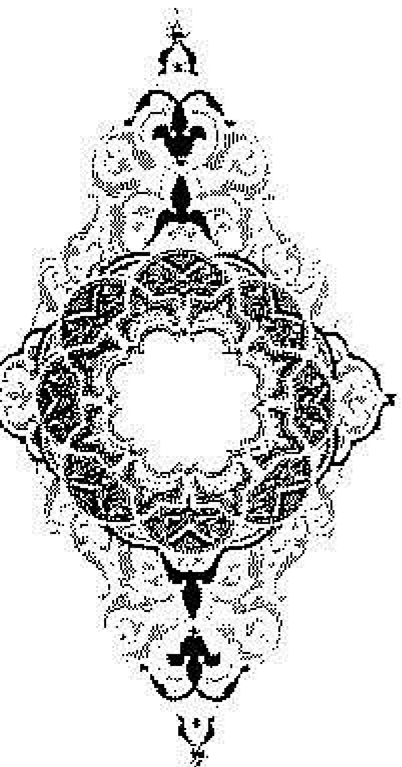
ب - الإطلاع على الاختلافات في المذاهب الفقهية المتّبعة في الإفتاء، وضرورة معرفة انتماء صاحب الفتوى المذهبي.

ج - فهم شخصية المفتي ودرجته العلمية ومنصبه الوظيفي وعلاقته بالسلطة ومدى اجتهاده أو تقليده.

د - معرفة الخطّ العربي واختلافاته ومدى تطوّره.

إن هذه المقترحات في رأينا مما يسهل على المورّخ قراءة الفتوى والإفادة منها في سبيل إثراء الكتابة التاريخية بمصدر يمسّ صميم الحياة في المجتمع الإسلامي.

نستخلص مما سبق أن أهمية الفتاوى الشرعية تتجلّى في كونها مصدراً ثريّاً للتاريخ وتدوينه، وفي قيمة ما تزودنا به من المعلومات التاريخية الهامة والمتنوعة،

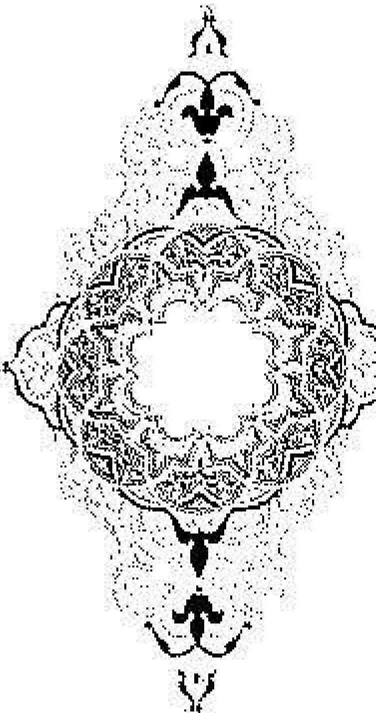


واستمرار تطورها مع ظروف حياة الناس ومستجدات الزمن. وما تزال الفتاوى تلعب دوراً كبيراً ومؤثّراً في العالم الإسلامي في وقتنا الحاضر، وذلك بحكم تعقد مشاكل الحياة اليومية وحاجة المسلم إلى حلّ شرعي في كل ما يجدُّ، وما له مساس بحياته الدينية، حرصاً على استقامة سلوكه الديني. وما يزال الجدل قائما في كثير من الأمور المستجدة في حياة الإنسان المسلم وأنشطته، بسبب ما يحدثه العلم من تطور سريع، مما يتطلب فتاوى شرعية حاسمة، وتقنيناً متجدّداً يتلاءم مع الظروف والواقع.■



الحواشي

١ - كيرو، أكرم، مؤسسة شيخ الإسلام في الدولة العثمانية، ترجمة هاشم الأيوبي، (طرابلس: منشورات جروس برس، ١٩٩٢) ص٨٣.
٢ - المصدر ذاته، ص٨٨.
٣ - غراب، سعد، كتب الفتاوى وقيمتها الاجتماعية . حوليات الجامعة التونسية، عدد ٣١ (تونس، ١٩٧٨).
٤ - عبده، محمد، الفتاوى في التجديد والإصلاح الدينيه، تقديم محمد عمارة (سوسة، ١٩٨٩) ص١٣.
٥ - كيرو، مصدر سابق، ص٩٤.
٦ - بروكلمان، كارل، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط٥ (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٨) ص٤٨٩.
٧ - كيرو، مصدر سابق، ص٣٠، ١٣٣.
٨ - المصدر ذاته، ص٨٨.
٩ - المصدر ذاته، ص١٣٥، ١٣٦.
١٠ - المصدر ذاته، ص١٣٩.
١١ - غرايبه، عبد الكريم، تاريخ العرب الحديث (دمشق، ١٩٨٨) ص٢٨١.
١٢ - المصدر ذاته، الصفحة ذاتها.
١٣ - بالخوجة، محمد، صفحات من تاريخ تونس، تحقيق حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى (تونس، ١٩٨٩) ص١٩٦.
١٤ - جعفر، محمد علي، تاريخ القوانين ومراحل التشريع، ط ٢ (بيروت، ١٩٨٩) ص١٨١-١٨٢.
١٥ - عز الدين، محمد كمال، التاريخ والمنهج التاريخي عند ابن حجر العسقلاني، (بيروت: دار اقرا، ١٩٨٤) ص١٥٢-١٥٣.
١٦ - عماره، مصدر سابق.



مقالات

المعاصرون وتحقيق تراث علم الأصول

إذا كان لكل أمة تراث حضاري تعتز به وتفخر
فإن الأمة الإسلامية خليقة بأن تعتز كل الاعتزاز بتراثها الفقهي،
ذلك التراث الذي يعد ثروة علمية لم تعرف البشرية نظيراً لها في تاريخها الطويل،
فقد تميّزت بالدقة والموضوعية والاستيعاب ومراعاة المصلحة العامة والخاصة
في عدل وإنصاف. على أن هذا التراث الفقهي العظيم
قام على منهج علمي أصيل أرسى دعائمه الكتاب والسنة
وقام على تجلية هذه الدعائم وتفصيل القول فيها عدد كثير من الأئمة المجتهدين.
ومن ثم عرفت المكتبة الإسلامية تراثاً منهجياً فريداً للبحث
منذ نحو ثلاثة عشر قرناً حتى الآن، عرف باسم «أصول الفقه»
ولم تعرف المكتبة القانونية في جميع دول العالم أصولاً للقانون
إلا في العصر الحديث[1].

الدكتور محمد الدسوقي
رئيس قسم الفقه والأصول - كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية - جامعة قطر

وهذا التراث المنهجي تأثر قوة وضعفاً بما تأثرت به الحضارة الإسلامية عبر التاريخ، ولذا كان في العصور الأولى قوياً يتناول الموضوعات في دقة وتمحيص. وغلب عليه في العصور المتأخرة الجدل اللفظي، وتشقيق القول في مسائل فرعية، فضلاً عن الإيجاز الذي يشبه الألغاز أو الإعجاز على حد تعبير بعض المحدثين[2] ثم

الخوض في قضايا لا صلة لها بعلم الأصول، مما نأى بهذا العلم عن الغرض الأساسي لدراسته.

وآل كل هذا التراث إلى الأمة في عصرها الحاضر، وهي تحاول أن تستعيد مكانتها وحضارتها، وتنفض عن كاهلها آثار الاحتلال والاستغلال، فأقبل علماؤها عليه، ونشروا قدراً كبيراً منه، واغترفوا من كنوزه ما مهّد أمامهم طريق التأليف في علم الأصول وفق منهج لا يعرف الفضول، أو شوائب الإيجاز المخل ولا الجدل اللفظي الممل.

ولم يقتصر جهد المعاصرين على النشر والتأليف، وإنما تجاوز هذا إلى الحديث عن القيمة العلمية للأصول الفقهية وعن تطوير هذه الأصول وتجديدها.

ويتناول هذا البحث الحديث في إجمال جهد المعاصرين في توثيق تراث أصول الفقه وتحقيقه.

ويراد بالتوثيق النظر في أصالة النص المخطوط وصحة نسبه واتصال سنده إلى مؤلفه.

أما التحقيق فمجاله فحص المتن للتحقق من سلامته، بكونه على ما صح من نص المؤلف في الأصول الموثقة.

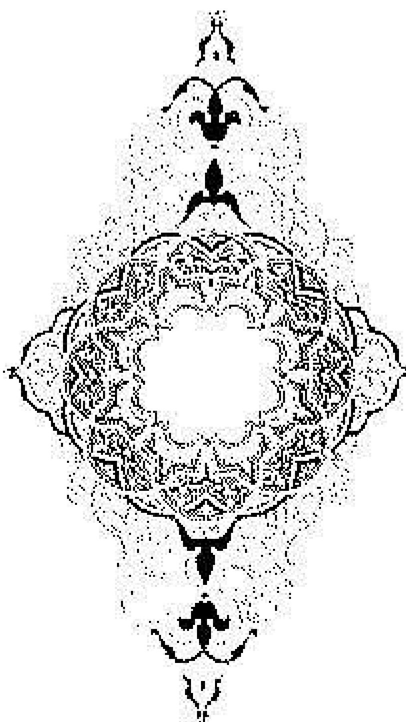
ومن وسائل ذلك الدراسة المقارنة بين النسخ المخطوطة للكتاب من أجل تحديد النسخة الأصيلة أو الأم التي ترجع إلى خط المؤلف أو المقروءة عليه، أو المنقولة عن نسخة المؤلف أو المقابلة على أصل موثق[٣].

ومن المعروف أن صناعة الوراقة[٤] قبل أن يعرف العالم الإسلامي الطباعة كانت وسيلة تداول الكتب والحصول عليها، فلما عرف هذا العالم الطباعة اضمحلت تلك الصناعة، وأصبح تداول الكتب ميسوراً، وكانت المخطوطات التي خلفها السلف، وهي ثروة علمية لا نظير لها لدى أمة غير الأمة الإسلامية، تطبع في أول الأمر دون تحقيق ولا توثيق.

ومع هذا عرفت المرحلة الأولى في طباعة التراث الإسلامي جيلاً من العلماء بذل ما استطاع من جهد علمي في مراجعة الكتب وتصحيحها، وهذا الجيل بما بذل في صمت - وإن لم يسلم عمله من بعض القصور - خدم هذا التراث خدمة جليلة لن ينساها التاريخ.

لقد عكف ذلك الجيل على نشر ما تيسر له من كتب التراث نشراً كان له حظ طيّب من التحقيق بمفهومه المعاصر من حيث الدقة في تصحيح النص وملاحظة الفروق بين النسخ الخطية إن كان تحت يديه أكثر من نسخة مع تشكيل النص كله في بعض الأحيان[٥]، أو الاكتفاء بما يحتاج منه إلى ضبط يمنع الخطأ في قراءته.

صحيح أن هذا الجيل لم يهتم بتخريج النصوص، وتنسيق الفقرات، والتعليق على بعض المسائل، ومراعاة علامات الترقيم،



Afāq al -Taqāfa Wa al -Turāt
A Quarterly Journal of Cultural Heritage
Jum `a al -Majid Center for Culture and Heritage

آفاق الثقافة و التراث
مجلة فصلية ثقافية تراثية مكتبية
تصدر عن مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث

Subscription Order Form — قسيمة اشتراك

☐ سنة One Year — ☐ أكثر من سنة More Than One Year — ☐ عدد السنوات # of Years

للأعداد : .... # Issues — عدد النسخ : .... # of Copies:

ابتداء من تاريخ : .... Subscription Date :

☐ شيك Check — ☐ حوالة مصرفية Bank Draft — ☐ حوالة بريدية Postal Draft

التاريخ : .... Date : — التوقيع : .... Signature :

الاشتراك السنوي

داخل الإمارات :
للمؤسسات : ١٠٠ درهماً .
للأفراد : ٦٠ درهماً .
للطلاب : ٤٠ درهماً

في الخارج :
للمؤسسات : ٣٥ دولاراً أمريكياً
للأفراد : ٢٠ دولاراً أمريكياً .

تودع الإشتراكات في رقم الحساب البنكي للمركز : ٠٤٩٠٩٠٦٥٢٣ - بنك المشرق - دبي

Payments should be made To Juma al - Majid Center for Culture and Heritage
Acc . # 0490906523 al - Mashriq Bank - DUBAI

Afāq al -Taqāfa Wa al - Turāt

آفاق الثقافة و التراث

إشعار بالتسلم
Acknowledgment of Receipt

Name: .... : الاسم الكامل

Institution: .... : المؤسسة

Address : .... : العنوان

P.O.Box : .... : صندوق البريد

No of Copies ☐ عدد النسخ — Issue No ☐ العدد

Subscription ☐ اشتراك — Exchange ☐ تبادل — Gift ☐ اهداء

Sig- .... التوقيع — Date .... : التاريخ

ترسل إلى :

مجلة آفاق الثقافة و التراث

ص ب : ٥٥١٥٦ - فاكس : ٦٩٦٩٥٠ (٠٤) - دبي - الإمارات العربية المتحدة

Afāq al -Ṯaqāfa Wa al -Turāṯ

P.O.Box : 55156 - Fax : (04) 696950 DUBAI - U.A.E

Stamp
الطابع
البريدي

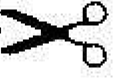
Name: .... : الاسم

Address : .... : العنوان

Country : .... : البـــلد

Phone : .... : هاتف   P.O .Box : .... : ص ب

Fax : .... : فاكس





ووضع الفهارس المختلفة وما إلى ذلك مما تواضع عليه منهج التحقيق المعاصر، لكنّ جهد ذلك الجيل كان جهداً علمياً خالصاً، وكان بما بذل كالجندي المجهول يجاهد أصدق الجهاد ولا يعنيه إن ذكره الناس وأشادوا به، أو نسوه ولم يلقوا بالاً إليه[٦].

وهذه المرحلة في نشر التراث عرفها العالم الإسلامي كله بوجه عام، كما شاركت فيها بعض دول غير إسلامية، عن طريق المستشرقين، لقد نشرت مؤلفات علم الأصول وغيره من العلوم في تركيا والهند وفارس وروسيا وبعض دول أوروبا، بالإضافة إلى البلاد العربية، وكان ذلك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، والنصف الأول من القرن الرابع عشر على وجه التقريب.

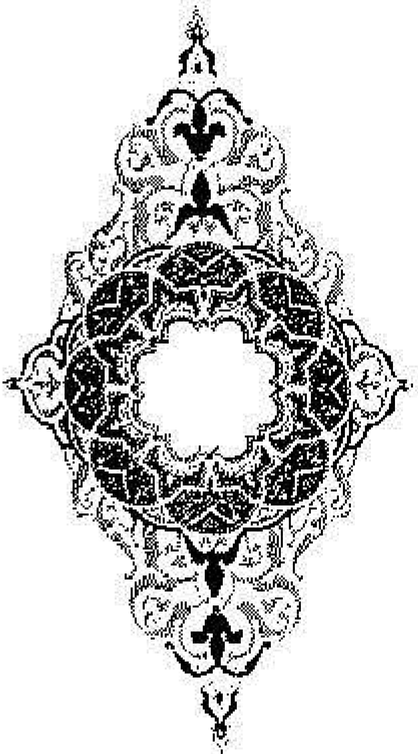
وأتت بعد هذه المرحلة في الطباعة مرحلة أخرى اهتمت بتحقيق الكتب قبل طبعها، وحظي تراث علم الأصول بطائفة من العلماء والباحثين الذين نقبوا عن المخطوطات في شتى المكتبات، وشد أزرهم في هذا إنشاء بعض المعاهد الخاصة بالمخطوطات، وظهور بعض الفهارس والمؤلفات التي حاولت أن تستقرىء التراث من حيث مقداره ومكانه، وعكفوا عليها مراجعة وتحقيقاً وتوثيقاً، ومن هؤلاء من كان يحقق كتاباً ليحصل به على درجة جامعية. وصدرت عشرات الكتب محققة مفهرسة.

ومع كثرة الكتب الأصولية التي حققت وطبعت لم تكن كلها على درجة سواء من حيث الدقة في التحقيق، فبعض هذه الكتب طبعت دون توثيق دقيق لنصوصها، ودون بيان للفروق بين نسخها، ولم تخل من تصحيف وتحريف، ولم تخدم بالشروح والتعليقات. على حين أن كتباً أخرى لقيت عناية خاصة في مقابلتها وتوثيقها ووضع الفهارس المتنوعة لها، فجاءت عملاً علمياً يشهد بالجهد الفائق في خدمة التراث الأصولي.



ويلاحظ المتتبع لما نشر من كتب هذا التراث أن بعضها حقق أكثر من مرة. ومرد ذلك إما لظهور أصل خطي لم يكن معروفاً حين حقق الكتاب أولاً، وإما لقيام باحثين بتحقيق نص واحد في وقت واحد غالباً دون أن يدري أحدهما أن غيره يحقق هذا النص، وقد يدري، ولكنه لا يأبه للأمر، بحجة أنه أسبق في العمل، وأنه أولى بإخراج النص من سواه.

وأخطر ألوان التكرار في التحقيق ذلك



اللون الذي يتمثل في السطو[7] على كتب محققه، ويحاول أن يوهم القارئ بأنه أضاف جديداً فيغير في بعض الهوامش إما بالنقص وإما بالزيادة، على نحو يجعل الكتاب في صورته الثانية أدنى مرتبة مما صدر عليه أولاً.

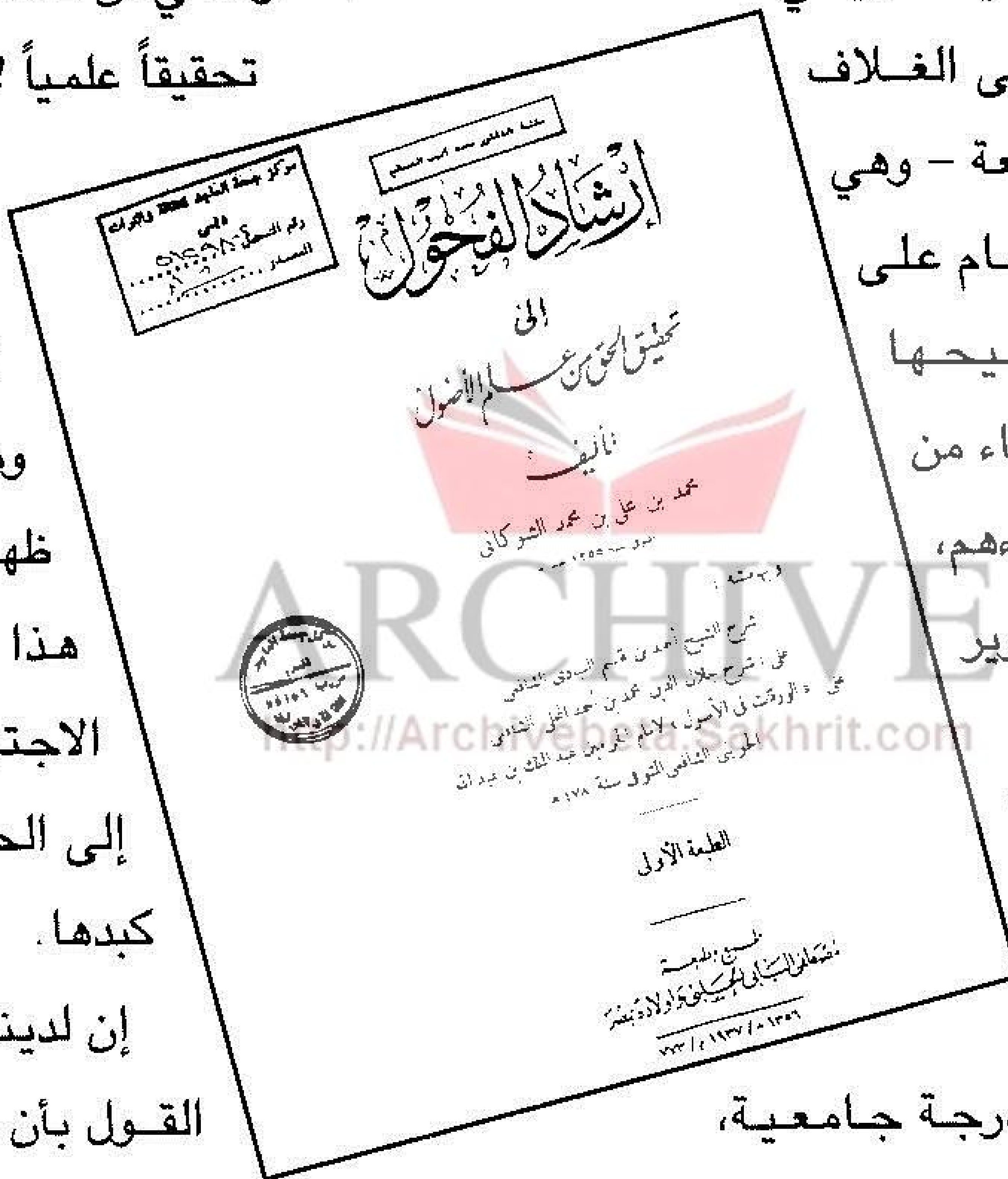
وهناك أحياناً من يصور النص المطبوع دون أن يضيف إليه شيئاً، ويأتي الناشر ليضع على الغلاف عبارة أن هذه الطبعة – وهي مصورة – قام على مراجعتها وتصحيحها جماعة من العلماء من غير أن يذكر أسماءهم، وهذا لون من التزوير والتدليس[8].

وقد أومأت آنفاً إلى أن تحقيق بعض التراث في الأصول كان لنيل درجة جامعية، ونظراً لعدم التنسيق في مجال تسجيل الرسائل العلمية بين أقسام الدراسات العليا في الجامعات وبخاصة في كليات الشريعة حققت نصوص أكثر من مرة، ومنحت أكثر من درجة جامعية على نص واحد تكرر تحقيقه.

ويمكن أن يندرج تحت مفهوم التكرار في التحقيق ما أعيد طبعه محققاً تحقيقاً[9] وافياً مما كان قد طبع في المرحلة الأولى، فهذه المرحلة كما أسلفت عرفت بعض جوانب التحقيق، ولعل هذا اللون من التكرار هو أجدى ألوانه وأكثرها نفعاً.

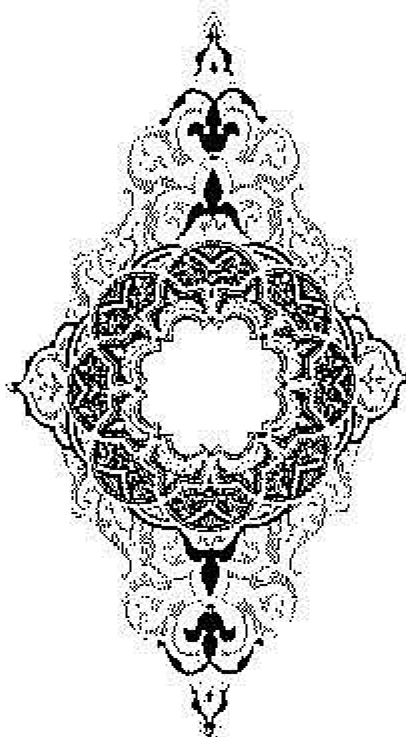
وماذا بعد ذلك عن أول كتاب في الأصول حقق تحقيقاً علمياً، وما أهم الكتب التي أخذت بمنهج هذا التحقيق وعكست الصورة المشرقة لنشر التراث الأصولي؟

لا مراء في أن تحديد أول كتاب حقق تحقيقاً علمياً لا يسلم من الخطأ، فما حقق وطبع من كتب الأصول ليس من اليسير الوقوف عليه، ومعرفة التاريخ الذي ظهر فيه، ومن ثم يصبح هذا التحديد لوناً من الاجتهاد، ولعله يكون أقرب إلى الحقيقة إن لم يصب كبدها.



إن لدينا كتباً ثلاثة يمكن القول بأن نشرها كان البداية العلمية لتحقيق التراث الأصولي وإن تفاوتت فيما بينها درجة التحقيق، هذه الكتب هي: موافقات الشاطبي، وأحكام ابن حزم، ورسالة الشافعي.

لقد طبعت الموافقات أولاً في تونس، ولم يتح لي الاطلاع على هذه الطبعة، وجاء عنها أنها صححت بمعرفة ثلاثة من علماء الزيتونة[10] وطبع الكتاب بعد ذلك في مصر أكثر من مرة،



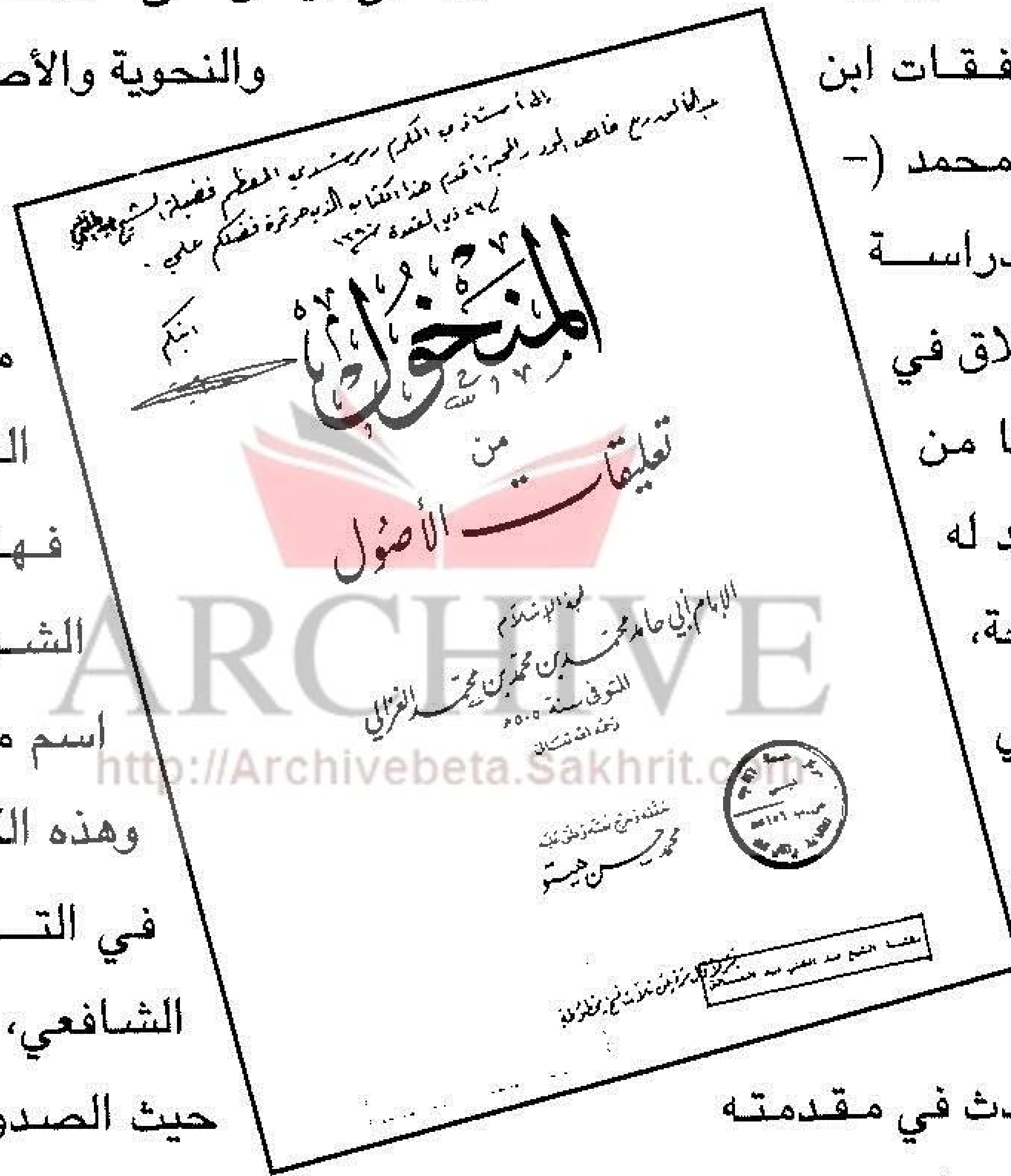
وتعد الطبعة التي حققها الشيخ عبدالله دراز، أهم الطبعات وأكثرها تداولاً، فقد كتب لها مقدمة ألقت بعض الأضواء عليها، كما قام بتخريج الأحاديث التي وردت بها، فبلغت نحو ألف حديث، وكان للشيخ شروح وتعليقات جمة ومهمة وضحت كثيراً من القضايا والمسائل، وبعض هذه التعليقات كانت نقداً علمياً للشاطبي في طرف من آرائه،

وأشرف على طبع الموافقات ابن الشيخ عبدالله الدكتور محمد (- ١٣٧٧ هـ) صاحب الدراسة الممتعة عن دستور الأخلاق في القرآن، وغيرها من الدراسات التي تشهد له بغزارة العلم، وقوة الحجة، ودقة المنهج، فكان له في هذا الإشراف أثره في خدمة الموافقات وضبط نصوصها.

ولكن الشيخ لم يتحدث في مقدمته للكتاب عن النسخ الخطية والمطبوعة التي عوّل عليها في التحقيق، كذلك لم يضع للموافقات فهارس وافية واكتفى بفهرس للموضوعات لكل جزء من أجزاء الموافقات الأربعة.

وأحكام ابن حزم - كما أومأت آنفاً في الحاشية رقم ٧ - طبع ثلاث طبعات، والطبعة التي حققها الشيخ أحمد شاكر كانت الأولى وهي أصح هذه الطبعات، والطبعتان الأخريان عالة عليها، ومع هذا كانتا دونها دقة وسلامة من الأخطاء.

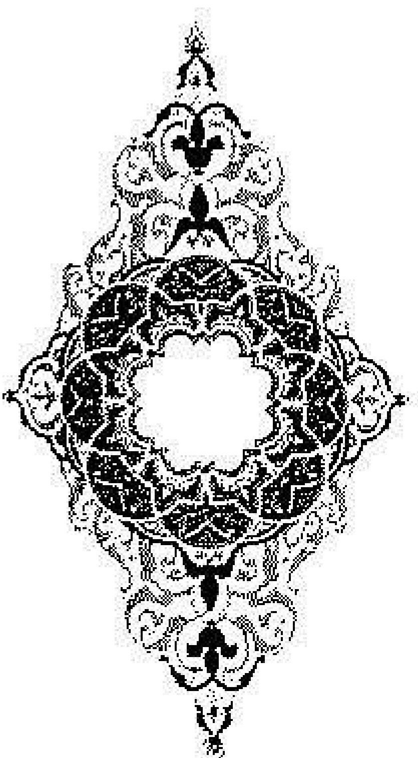
أما الرسالة فقد توافر لها جميع عناصر التحقيق العلمي من حيث التعريف بأصولها الخطية والسماعات وما ألحق بها، والطبعات[11] التي ظهرت من قبل، ثم تحقيق النص تحقيقاً دقيقاً، يذكر فروق النسخ ويشرح ويعلق على مختلف القضايا اللغوية والنحوية والأصولية والفقهية وما إلى ذلك، وتخريج الآيات والأحاديث مع ضبط كثير من النصوص ووضع فهارس أطلق عليها الشيخ أحمد شاكر اسم مفاتيح الكتاب.



وهذه الكتب الثلاثة أوفاها في التحقيق رسالة الشافعي، ولكنها آخرها من حيث الصدور فقد طبعت سنة ١٣٥٨ هـ، على حين صدر آخر جزء من أحكام ابن حزم سنة ١٣٤٨ هـ.

أما الموافقات فيرجح أنها صدرت في التاريخ الذي صدر فيه الأحكام ذاته أو قريب منه.

والنتيجة أن رسالة الشافعي بتحقيق الشيخ شاكر أول كتاب أصولي ظهر محققاً تحقيقاً علمياً وافياً وأن ما سبق الرسالة من كتب لم



يتوافر لها من عناصر التحقيق ما توافر للرسالة.

وصدرت بعد الرسالة تحقيقات أصولية كثيرة وإن لم تعرف العقود الثلاثة الأولى التي أعقبت ظهور الرسالة إلا عدداً قليلاً من هذه التحقيقات، ثم تضاعف بعد ذلك صدور الكتب المحققة وكان بعضها رسائل جامعية.

وتفاوتت درجة التحقيق تفاوتاً ملحوظاً كما سبق أن ذكرت، وكان مرد الهبوط في مستوى التحقيق لبعض الكتب هو العجلة في إخراج النص من جهة، ودخول من لا خبرة له بلغة علماء الأصول ولا قواعد التحقيق هذا الميدان العلمي الذي يقتضي ممن يدخله أن يكون ذا تمرّس واسع بالعربية والمصطلحات الأصولية والفقهية من جهة أخرى. ويضاف إلى هذا أن الناشر لا يعنيه في كثير من الأحيان مستوى التحقيق بقدر ما يعنيه الربح الذي يعود عليه من وراء إصدار الكتاب.

وأما الكتب التي تجافت عن المستوى الهابط للتحقيق، ومثلت الإخلاص في البحث وحب العلم وخدمة التراث فليست قليلة، على رأسها الرسالة بتحقيق العلامة الشيخ شاكر. ومنها على سبيل المثال:

١ - شفاء الغليل في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل للغزالي، وقد حققه الدكتور حمد الكبيسي، ونشر ببغداد سنة ١٣٩٠هـ.

٢ - البرهان للجويني، حققه الدكتور عبدالعظيم الديب، ونشر على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير دولة قطر سنة ١٣٩٩ هـ.

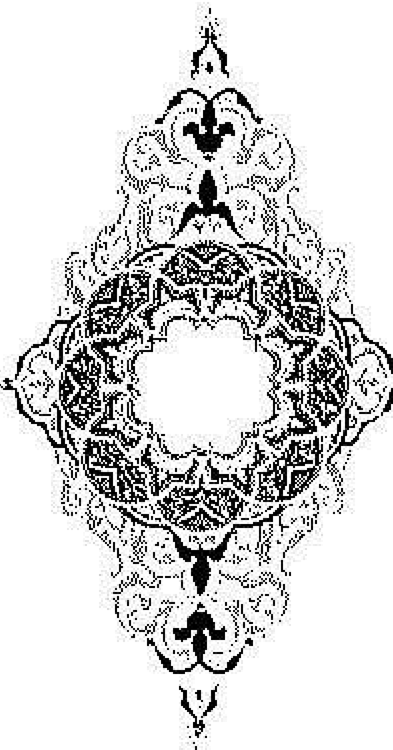
٣ - المحصول للرازي حققه الدكتور طه جابر فياض العلواني، ونشرته لجنة البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٣٩٩ هـ.

٤ - المنخول من تعليقات الأصول للغزالي حققه الدكتور محمد حسن هيتو، ونشرت طبعته الثانية دار الفكر بدمشق سنة ١٤٠٠ هـ.

٥ - منار الأصول في نتائج العقول لأبي بكر محمد بن أحمد السمرقندي (- ٩٣٥ هـ) حققه الدكتور محمد زكي عبدالبر، ونشر بالدوحة سنة ١٤٠٤ هـ.

ومن طالع مقدمات الكتب المحققة سواء منها ماكان تحقيقه علمياً أم ليس كذلك يلاحظ أن كل محقق لكتاب يراه أحسن ما ألف في موضوعه.

إن كتاب الرسالة بلا مراء أدق وأغلى ما كتب العلماء، ولهذا كان اقتراح الشيخ شاكر وجوب تدريس هذا الكتاب في الجامعات واختيار نصوص منه لطلاب المرحلة الثانوية ليفيدوا منه علماً بصحة النظر وقوة الحجة، وبياناً لا يرون مثله في كتب العلماء وأثار الأدباء[١٢] اقتراحاً لا يختلف عليه اثنان، ولكن إذا نظرنا فيما كتب في مقدمات غير الرسالة تطالعنا تلك الأحكام التي ربما عبرت عن عاطفة نفسية أكثر مما عبرت عن نظرة عقلية وازنت وقررت، ولعل ذلك يرجع إلى طول

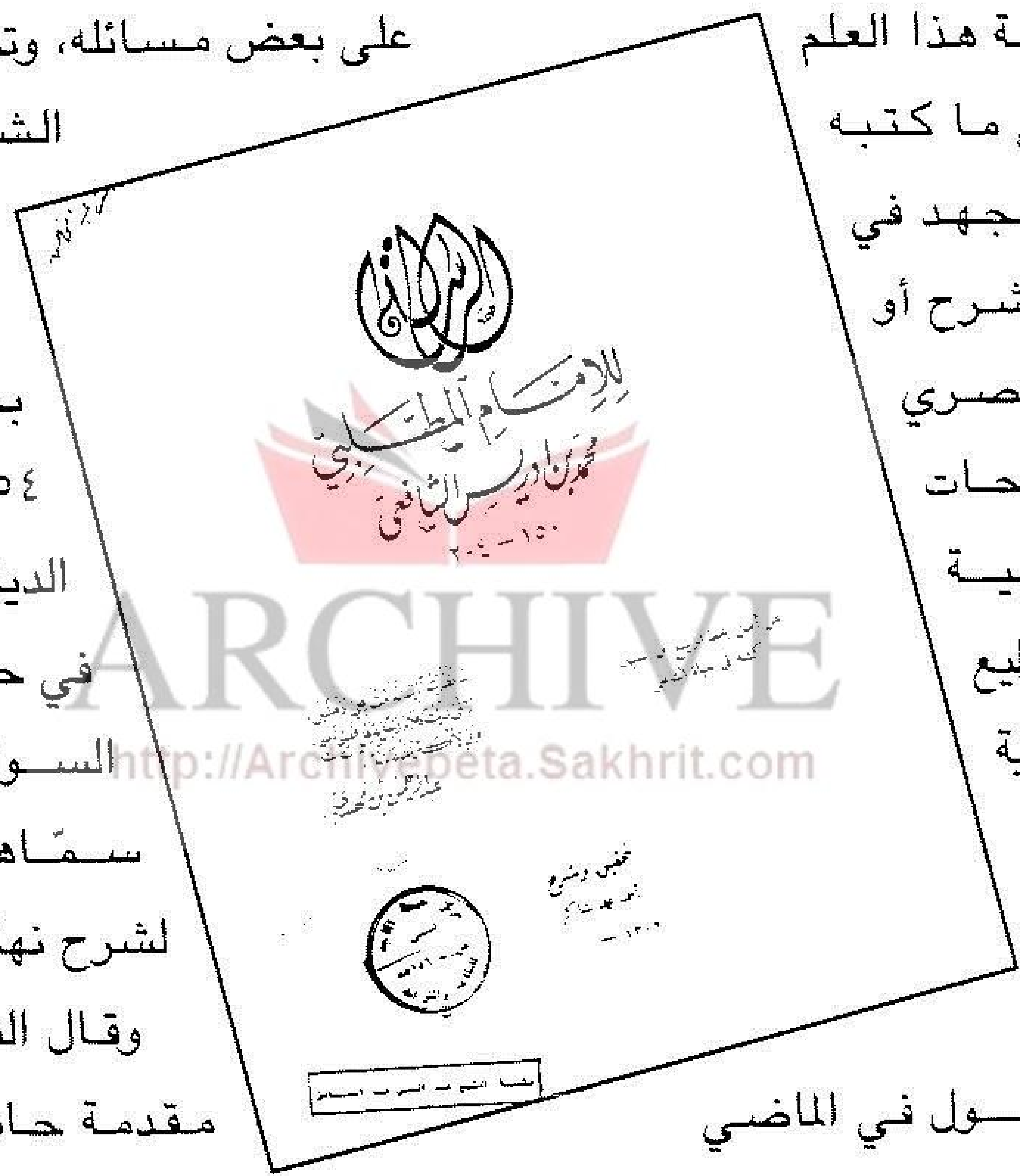


معايشة النص، والتفاعل النفسي معه، والتعلق الفكري به، كما يفعل غالباً كل من يدرس شخصية من الشخصيات العلمية، فقد يسرف في الثناء عليها والإشادة بها ويتغاضى عن مواقفها السلبية وكبواتها الفكرية.

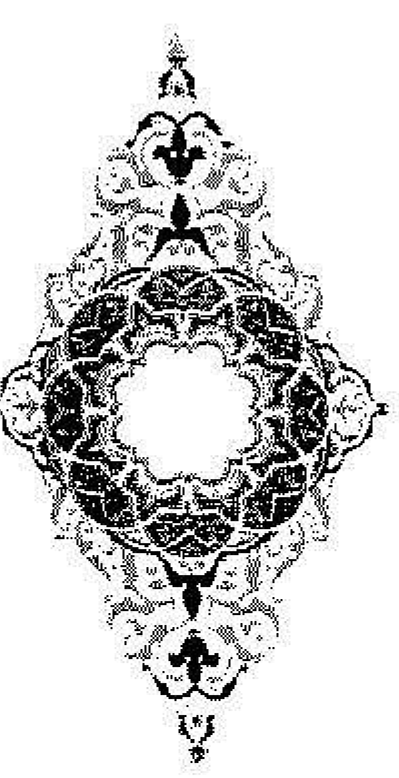
وإذا كان تحقيق الكتب قد خدم علم الأصول ونشر كثيراً من كنوزه، فإن للمعاصرين جهداً آخر لا يقل عن التحقيق أثراً من حيث خدمة هذا العلم وتيسير الوقوف على ما كتبه القدماء، وتجلى هذا الجهد في تأليف الحواشي أو الشرح أو العرض في أسلوب عصري يذلل صعوبة المصطلحات والعبارات الأصولية التقليدية، ومن ثم يستطيع كل دارس ليست له دراية بأساليب الأصوليين أن يفقه القضايا الأصولية فقهاً يقوده إلى فهم ما كتبه علماء الأصول في الماضي واستيعابه.

والمهمة ليست هينة، فهي تتقاضى من كل من يضطلع بها أن يكون أصولياً، قد خبر عن تجربة ومعاناة وتحصيل مناهج الأصوليين ومصطلحاتهم وطرائقهم في التعبير، وفي الوقت نفسه يكون متمكناً من العربية محيطاً بقدر ضخم من مفرداتها، وتطور دلالات هذه المفردات، حتى يقدر على صياغة الفكرة الأصولية صياغة معاصرة لا تجور على المضمون، ولا تنبو عن المستوى العام للمعجم اللغوي لجمهرة طلاب العلم والمثقفين، والذين يقفون على أبواب الدراسات العليا.

وبدأ هذا الجهد بكتابة الحواشي. وكتابة المعاصرين للحواشي امتداد لما كان في الماضي. والحاشية تدور في فلك شرح المتن، فهي توضح ما غمض من هذا الشرح، وتعلّق على بعض مسائله، وتضيف إليه مافات الشارح أن يذكره، ومن هذا ماقام به الشيخ محمد بخيت المطيعي (- ١٣٥٤ هـ) مفتي الديار المصرية سابقاً في حاشيته على نهاية السول للإسنوي، وقد سمّاها «سلم الوصول لشرح نهاية السول».



وقال الشيخ المطيعي في مقدمة حاشيته: «لما قررت رياسة المعاهد الدينية تدريس منهاج الوصول للبيضاوي وشرحه للإسنوي بالمعاهد المذكورة، طلب مني بعض أفاضل أهل العلم أن أكتب على شرح الإسنوي، تقييدات لطيفة وتحقيقات شريفة توضح ما أشكل على الطلاب في هذا العصر من معانيه. وتشتمل على الجواب عما استشكله على المنهاج ولم يجب عنه فيه، مع بيان ما كان حقاً من



الاعتراض بدون ميل عن الحق ولا إعراض». ثم قال: «فأجبت طلبه وشرعت أن أكتب ما يسّر الله لنا نقله من كلام المحققين من علماء هذا الفن المتقدمين والمتأخرين، وما فتح الله به على عبده المسكين المتوسل إليه بسيد المرسلين، فجاءت وافية إن شاء الله تعالى بالمقصود، فهي وإن كانت قليلة المباني، لكنها كثيرة المعاني تغني عن كثير من المطولات، ويستفيد منها المبتدي ولا يستغني عنها المنتهي»[١٣].

فالشيخ في هذه الحاشية أخذ بمنهج القدماء في التعليق والشرح والإضافة، فهو في كل ما كتبه لا يخرج عما اشتملت عليه المؤلفات الأصولية للمتقدمين والمتأخرين من آراء، وإن كان له دوره في الترجيح، وجاء أسلوبه وإن كان متأثراً بأساليب هذه المؤلفات يحمل مسحة من لغة العصر في التعبير والتيسير.

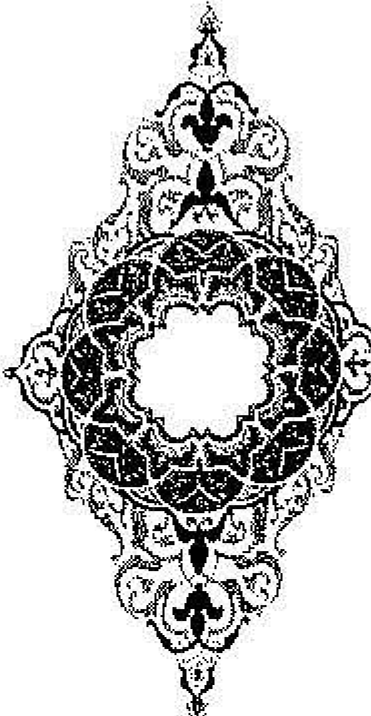
أما الشيخ محمد زهير أبو النور في كتابه أصول الفقه بأجزائه الأربعة فقد شرح فيه منهاج البيضاوي، واقتصر عمله في هذا الشرح على فك بعض التراكيب، وبسط بعض العبارات، وقد ذكر في مقدمة شرحه أن الطلاب الذين درسوا كتاب المنهج في كلية الشريعة بجامعة الأزهر، وجدوا مشقة وعسراً في فهم هذا الكتاب لإيجازه. فآثر أن يشقق القول في عبارته تشقيقاً يتيح لهؤلاء الطلاب سهولة الفهم وسرعة الاستيعاب.

وقد التزم الشيخ محمد زهير بترتيب البيضاوي للقضايا دون تعليق عليها أو إضافة إليها.

ولكن الشيخ أحمد فهمي أبوسنة في كتابه «الوسيط في أصول فقه الحنفية»، شرح فيه شرحاً وافياً قسماً من كتاب «التوضيح في حل غوامض التنقيح» لصدر الشريعة، ومما قاله الشيخ أبوسنة في مقدمة كتابه: «ولما كان المعهود به إليّ دراسة القسم الثاني من الكتاب لطلاب السنة الثانية[١٤] استخرت الله تعالى أن أضع كتاباً أبسط فيه بحوثه، وأحقق ما أشكل من مسائله، وأضم ما فاته من قواعد علم الأصول التي لا يستغني عنها المتفقه، وربما أشرت إلى بعض عبارات الكتاب توضيحاً لمجمله، وتقييداً لمرسله، أو مناقشة له، وربما اقتضى الدليل أن أخالفه في تصحيحه أو ترجيحه».



فالشيخ أبوسنة لم يشرح ويوضح فحسب، وإنما أضاف إلى هذا المناقشة والنقد والتعقيب، ولم يقم بمثل هذا الشيخ زهير في



آفاق الثقافة والتراث - ع (١٢) شوال ١٤١٦هـ = مارس (آذار) ١٩٩٦م

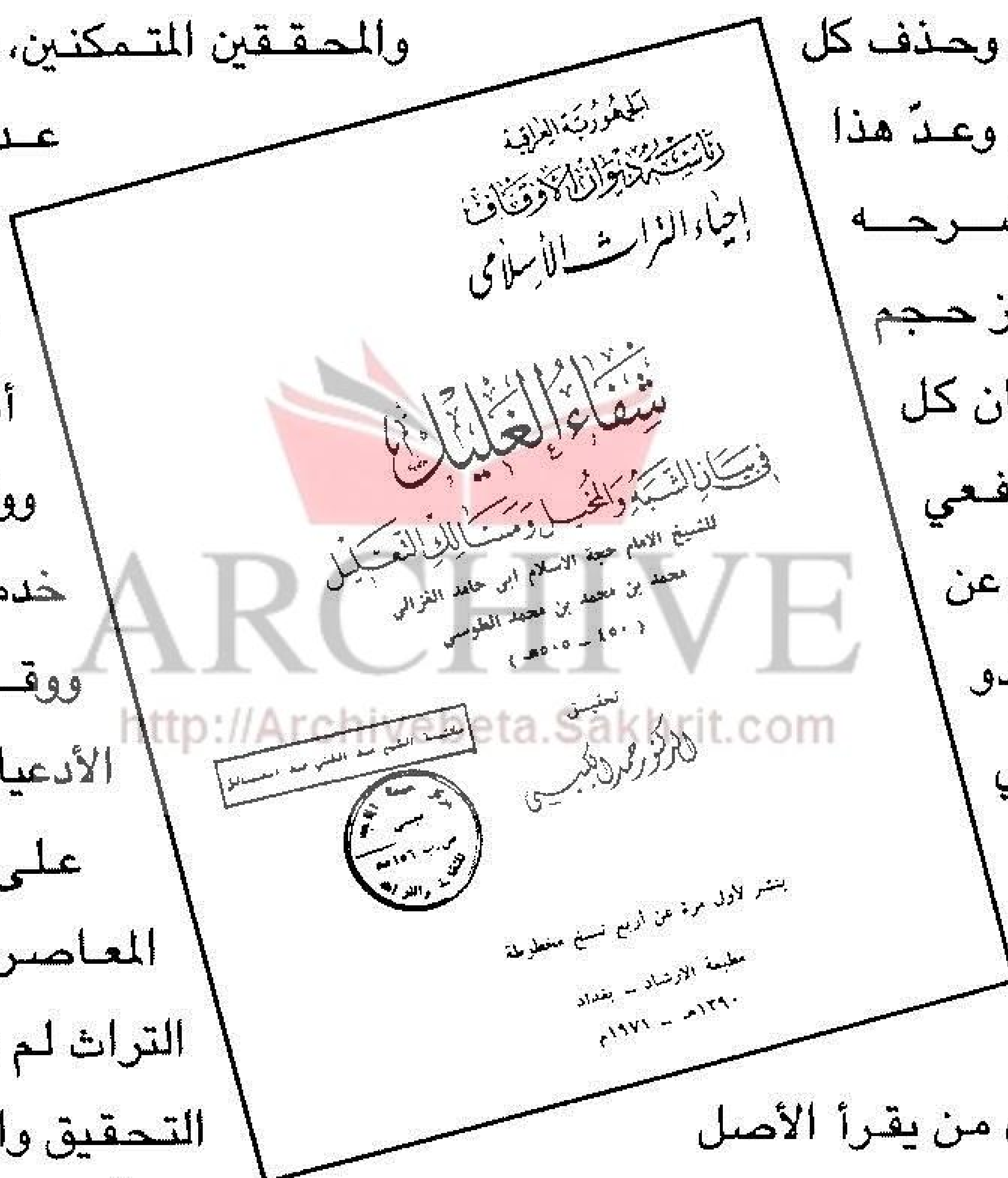
تيسيره لمنهاج البيضاوي.

وقام الزميل الأستاذ الدكتور محمد نبيل غنايم[١٥] بشرح كتاب الرسالة للشافعي، وهو شرح موجز توخّى فيه الدكتور نبيل تقديم ما كتبه عالم قريش الذي ملأ طباق الأرض علماً في أسلوب حديث يوضح المعاني والآراء دون إخلال بالجوهر أو المضمون.

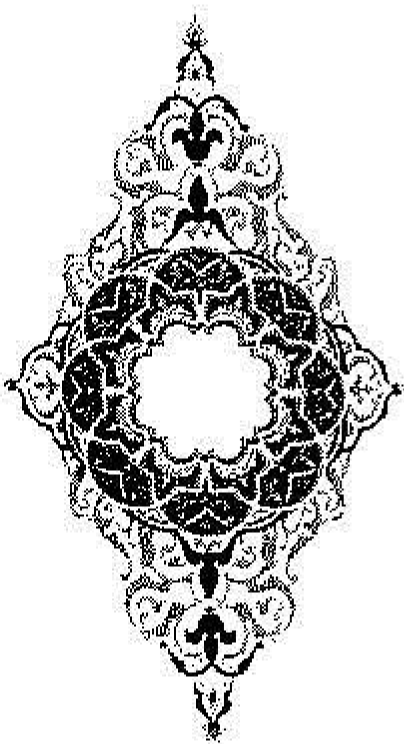
إن الدكتور نبيل أخذ نص الرسالة الذي حققه الشيخ شاكر، وحذف كل التعليقات والهوامش وعدّ هذا النص بمثابة متن، وشرحه شرحاً لا يكاد يتجاوز حجم المتن، فكأنه أقام مكان كل تركيب أو عبارة للشافعي عبارة أخرى تترجم عن مدلولها، ولا تعدو مقدارها، وقد وفق في هذا إلى حد كبير[١٦].

ولا شك في أن مثل هذا الشرح على إيجازه يستفيد به كل من يقرأ الأصل والشرح معاً، ويحاول من خلال الشرح أن يتدرب على فهم الأصل ومعرفة قسماته التعبيرية والاصطلاحية، فيستطيع بعد ذلك أن يقرأه ويفهمه دون اللجوء إلى الشرح، بل ويقرأ سواه من النصوص الأصولية، ويلم بمضمونها.

والحاصل أن المعاصرين في تحقيقهم ونشرهم للتراث الاصولي لم يكونوا جميعاً سواء في درجة التحقيق والتوثيق، ويبدو أن غياب النقد العلمي في العقود الثلاثة الأخيرة سوّل لبعض النفوس أن تقتحم ميدان التحقيق دون أن تكون مؤهلة لذلك، فضلّ سعيهم، وإن ظنوا أنهم كانوا يحسنون صنعاً. ولكن كان إلى جانب هؤلاء الذين تطفلوا على موائد البحث والعلم والتحقيق والنشر طائفة من الباحثين الجادين والدارسين المخلصين، والمحققين المتمكنين، فظهر على أيديهم عدد كبير من هذا التراث موثقاً محققاً يعبّر عما أنفقوا من جهد ووقت في سبيل خدمة التراث الأصولي ووقايته من عبث الأدعياء والجاهلين.


الجمهورية العراقية
رئاسة ديوان الأوقاف
إحياء التراث الإسلامي
شفاء الغليل
في بيان الشبه والمخيل ومسالك التعليل
للشيخ الامام حجة الاسلام ابي حامد الغزالي
محمد بن محمد بن محمد الطوسي
(٤٥٠ ـ ٥٠٥هـ)
تحقيق
الدكتور حمد الكبيسي
ينشر لاول مرة عن اربع نسخ مخطوطة
مطبعة الارشاد ـ بغداد
١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م

على أن جهد المعاصرين في خدمة هذا التراث لم يكن مقصوراً على التحقيق والنشر، وإنما شمل أيضاً الشرح والتعليق، وهو عمل علمي لا يتسنى القيام به إلا لمن كان ذا اطلاع واسع على الفكر الأصولي، ومعرفة دقيقة بخصائص هذا الفكر من حيث الشكل والمضمون. وكان جهد المعاصرين في هذا المجال وإن تأثر بأسلوب القدماء أحياناً مفيداً في فهم ما كتبه علماء الأصول.■



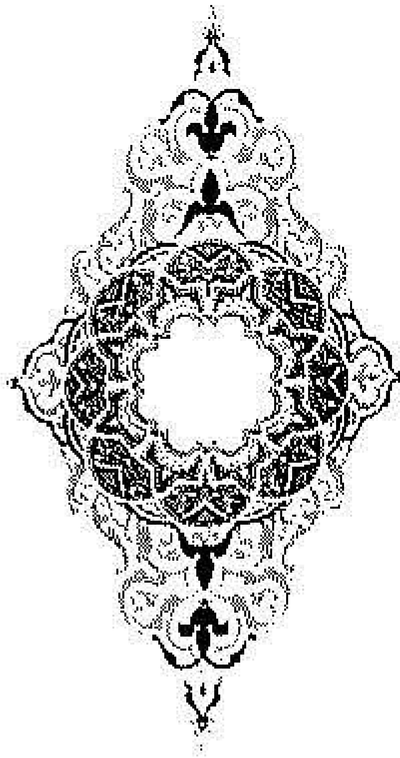
الحواشي

١ - انظر مجلة المحاماة الشرعية س١، ع٣، (ديسمبر) ١٩٢٩ ص ١٧٢.
٢ - شعبان، زكي، اصول الفقه الإسلامي (جامعة بنغازي) ص ٦.
٣ - عبد الرحمن، عائشة، مقدمة في المنهج (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية) ص ١١٦.
٤ - الوراقة : حرفة كان يقوم بها من يهيىء ورق الكتابة وينسخ فيها الكتب، للاتجار فيها.
٥ - ابن همام الدين، كمال الدين محمد بن عبد الواحد، التحرير في أصول الفقه (القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٣٥٢ هـ). وجاء نصه كله مشكولاً بدقة. وورد في خاتمة هذا الكتاب أن التصحيح كان بمعرفة لجنة من علماء الأزهر برئاسة الشيخ أحمد سعد علي، كما ورد أيضاً: وقد وقف على تصحيحه ووثق في مراجعة الفاظه خدمة للعلم وذويه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد العزبي المدرس بكلية أصول الدين.
٦ - وكان لبعض هؤلاء في آخر الكتب التي صححوها بعض الكلمات التي تشهد لهم بالعلم والتواضع والإخلاص في العمل.
٧ - قام الشيخ أحمد محمد شاكر، رحمه الله بتحقيق كتاب الأحكام لابن حزم وتصحيحه، وقد ذكر أنه حقق الكتاب معتمداً على ثلاث نسخ، وكان الشيخ في تحقيقه يذكر الفروق بين النسخ، ويصحح النص، ويعلق أحياناً على بعض المسائل، ويخرج الأحاديث، ويترجم لبعض الرواة والأعلام. وكان البدء في نشر الكتاب سنة ١٣٤٥ هـ وانتهى سنة ١٣٤٨ هـ كما جاء في خاتمة الجزء الثامن.

وقد طبع الكتاب بعد ذلك الناشر علي يوسف، بالقاهرة، فنقل بعض تعليقات الشيخ شاكر وأهمل فروق النسخ، وقد ألحق بالكتاب فهرساً تحليلياً لموضوعاته ومسائله، وهذا الفهرس كان ناشر تحقيق الشيخ شاكر قد وعد به على غلاف الجزء الثاني، ولكنه لم يظهر مع الكتاب. ولعل الناشر علي يوسف قد استطاع الحصول عليه من ورثة الشيخ شاكر.

ثم طبع هذا الكتاب في سنة ١٣٩٨ هـ، ونشرته مكتبة عاطف بالقاهرة، وحققه من لا خبرة له بالعربية أو الأصول، وقد نقل بعض تعليقات الشيخ شاكر، وكان يخطىء في النقل. كما كان يكرر نفسه، ويفسر بعض المفردات تفسيراً لغوياً مضطرباً فجاء الكتاب في هذه المطبعة مشوهاً، وظلت طبعة الشيخ شاكر لا سواها أدق الطبعات وأحسنها.

٨ - من هذا كتاب الإحكام للآمدي، فقد طبع أولاً في القاهرة، دون تحقيق، ثم صدرت منه عدة طبعات في بيروت مصورة عن طبعة القاهرة، وعلى غلافها تلك العبارة، وصدر الكتاب عن المكتب الإسلامي في سنة ١٤٠٢ هـ. وعلق على بعض مسائله تعليقات يسيرة الشيخ عبدالرزاق عفيفي، ولم يذكر في مقدمته أنه رجع إلى نسخ خطية للكتاب.
٩ - كان كتاب إرشاد الفحول للشوكاني قد طبع دون تحقيق، وقد نشره في عام ١٤١٣ هـ الزميل الأستاذ الدكتور شعبان محمد إسماعيل، محققاً تحقيقاً علمياً بعد حصوله على نسخة خطية مهمة للكتاب، صححت كثيراً من الأخطاء والنقص الذي كان بالطبعة غير المحققة.
١٠ - العبيدي، حمادي، الشاطبي ومقاصد الشريعة (دمشق : دار ابن قتيبة) ص ١٠٠.
١١ - طبعت الرسالة قبل تحقيق الشيخ شاكر لها بمصر ثلاث طبعات في نحو عشر سنوات كانت الأولى سنة ١٣١٢ هـ والثانية سنة ١٣٢١، ولكن هذه الطبعات كلها لم تعرف التحقيق، وكثرت فيها الأخطاء (وانظر مقدمة تحقيق الرسالة للشيخ شاكر ص ١٦).
١٢ - انظر مقدمة تحقيق الرسالة، ص ١٤.
١٣ - انظر نهاية السول مع حاشية الشيخ المطيعي، عالم الكتب، ١: ٣. وللشيخ بخيت كتاب آخر وهو كتاب البدر الساطع على جمع الجوامع علّق فيه وشرح وأضاف.
١٤ - بكلية الشريعة جامعة الأزهر.
١٥ - أستاذ بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
١٦ - نشر هذا الشرح (الزهراء للإعلام) بالقاهرة.



القصيدة اليتيمة والدوقلة

ألفنا في تاريخ الأدب العربي أن نجد **بعض القصائد أُعطيت لها أسماء عُرفت بها عند الرُّواة والمؤلفين في مختلف العصور، ويشمل ذلك قصائد معينة لشعراء معروفين أو مجهولين، كما يشمل مجموعات معينة تشترك في خاصّة ما عدّها الرواة والمؤلفون في الأدب العربي سببا للتسمية.**

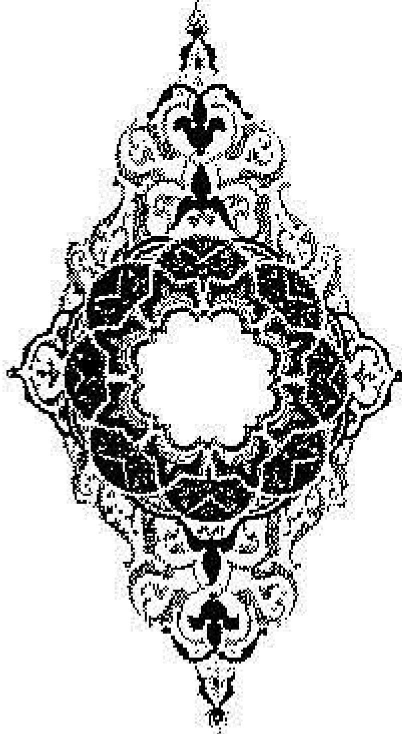
الدكتور ناول عبد الهادي
الدار البيضاء

فإلى جانب القصائد التي سُميت بالمعلقات – وتحت هذا الاسم حُفظت، ورُويت، ودُونت، وشُرحت – نجد من يسمّى بأبي زيد القرشي في «الجمهرة» يذكر مجموعات يبلغ تعدادها تسع مجموعات، وكل مجموعة تضم سبع قصائد، وقد أعطى لكل مجموعة اسماً خاصّاً بها... فهناك المُجمهَرات، والمذهَّبات، والمُلحَمَات، والمشوبات، والمنتقيات.

والجاحظُ في البيان والتبيين[1] يحدثنا عن الأشعار المُنْصِفَة، التي كان المِرْبَديّون والمَسْجِدِيون في عصره يروونها، ويعدّون من لم يروها، ليس من الرواة، المعتد بروايتهم.

وفي معركة المفاخرات والمهاجاة الثلاثية بين جرير، والفرزدق والأخطل ظهر اللّونُ الشعري المسمّى بشعر المناقضات، واختار الرواةُ من هذا اللون قصائد سموها بأسماء خاصة، عُرفت بها في كتب الأدب...

والطريف في هذا الباب أن نجد المفكر الأديب محمد بن داود الظاهري الأصفهاني المتوفى سنة ٢٩٧هـ = ٩١٠م يقول في كتابه الزهرة: «الشعر الذي لا تَشْبِيبَ لهُ يلقَّب بالحصَى وتسمّى القصيدة منه البتراء...»[2].



وتتبعُ هذه الظاهرة يَقتضي منا تتبعاً لعدة أنواع من التسمية وأسبابها في موضوع القصيدة وشكلها وبحرها وقافيتها وما إلى ذلك.

بيد أننا هنا بصدد الحديث عن قصيدة معينة اشتهرت باسم اليتيمة، نُسِبَتْ قديماً وحديثاً إلى عدة شعراء، ومنهم هذا الذي يسميه بعضُ الرواة بهذا الاسم الغريب «الدَّوْقَلَة».

وأريد قبل الحديث عن هذه اليتيمة وصاحبها أن أشير إلى أن المفضّل الضبي اختار في كتابه المفضليات قصيدة للشاعر المخضرم سُوَيْد بن أبي كاهل اليشكري، عُرِفت باسم «اليتيمة»، مطلعها:

ربّ من أنضجتُ غيظاً صدره
قدْ تمنّى لي موتاً لم يُطعْ
ويَراني كالشجا في حَلْقِه
عَسِراً مخرجُه ما يُنْتَزعْ[٣]

واقتطف منها ابن قتيبة بعض الأبيات في كتاب «الشعر والشعراء»[٤].

أما القصيدة اليتيمة المنسوبة إلى هذا الدوقلة. فهي قصيدة أخرى تباين قصيدة أبي كاهل اليشكري شكلاً ومضموناً ووزناً، وقافية، مطلعها :

هل بالطلول لسائل ردُّ
أمْ هل لها بتكلُّم عهْدُ
درسَ الجديدُ جديدَ معهدها
فكأنّما هي ريطَةٌ جَرْدُ

وهي كما تُسمى بالقصيدة اليتيمة تسمّى بالقصيدة الدعدية؛ لأن صاحبها أطنب في الحديث عن دَعْد، وخَلْقها وخُلُقها، وهُيامه بها.

ووجه تسمية هذه القصيدة بالقصيدة الدَّعْدية ظاهر مما ذكرنا، بخلاف تسميتها بالقصيدة اليتيمة فإنه يحتاج إلى ربطه بالمادة اللغوية «اليُتْم» ربطاً حقيقياً أو مجازياً..

فالمادة اللغوية – بناءً على ما في المعاجم – تعني في الأصل الانفراد... واليتيمُ هو المنفردُ. ومن هذا المعنى الأصلي ظهرت معانٍ أخرى معروفة.

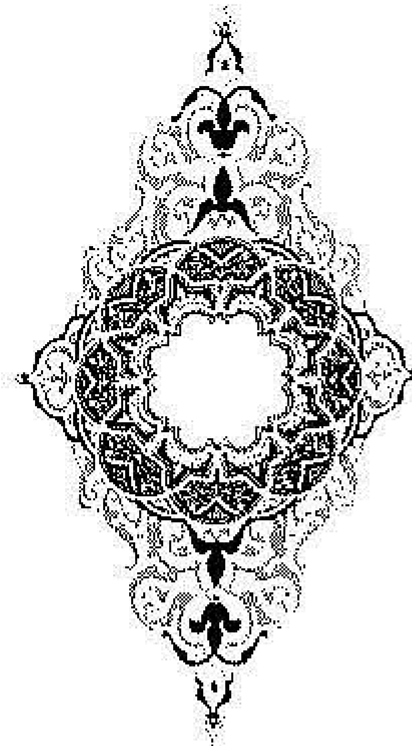
فهل رُوعي في وصفها باليُتْم أنها منفردة في بابها شكلا ومضموناً؟ كما تقول في الجوهرة الكريمة النفيسة : إنها جوهرةٌ يتيمةٌ أو دُرة يتيمة. وكما تقول في البيت الشعري الجيّد المعنى والمبنى : إنه بيتٌ يتيم منفرد في بابه. لا سابق له ولا لاحق..؟

أم رُوعي في وصفها باليُتم أنها غيرُ معروفة النسبة المحققة إلى شاعر معين معروف، تطمئن النفس إليه، وتكون القصيدة من بنات قريحته وعبقريته الشعرية..؟

وسواء تحقق هذا الاحتمال أم ذاك. فإن هذه القصيدة عُرِفَتْ بالقصيدة الدعدية. كما عُرفت بالقصيدة اليتيمة.

ولعل من أقدم المصادر التي أشارت إلى بعض الأبيات من هذه اليتيمة وإلى الدَّوْقَلَه المنسوبة إليه كتاب «التشبيهات» الذي ألّفه إبراهيم بن أبي عون، المقتول سنة ٣٢٢هـ = ٩٣٤م[٥].

في حين أن مصادر نصوص الأدب العربي الشهيرة مثل كتب الضَّبِّي، والأصمعي، والجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد، والأصبهاني، وابن عبد ربه. – فيما نعلم – لا تُفيدنا بشيء



عن هذه القصيدة، ولا عن هذا الشاعر الملقب بهذا اللقب الغريب الدَّوْقَلَه.

فهل يعني هذا أن القصيدة إنما نُظمت في عصر متأخر عن هؤلاء جميعاً ؟

ولكن إشارة ابن أبي عون – وهو من أهل القرن الرابع كالأصبهاني وابن عبد ربه تجعلنا في موقف التشكك والحيرة .

وفي القرن السادس الهجري نجد القصيدة اليتيمة الدعدية من عيون الشعر العربي عند الرواة والمؤلفين تحفظ ويُعتنى بها. وتروى عن الشيوخ بالأسانيد في كتب الفهارس.

ويفيدنا بهذا مصدران، أحدهما أندلسي، وثانيهما شامي، فالمصدر الأندلسي هو فهرسة ابن خير الأموي الأندلسي الإشبيلي، المتوفى سنة ٥٧٥هـ = ١١٧٩م. فهذا المؤلف. يروي هذه القصيدة اليتيمة عن شيخه الإمام أبي بكر ابن العربي المَعَافري دفين فاس المتوفى بها سنة ٥٤٣هـ = ١١٤٨م بحكم روايته إياها عن شيوخه في المشرق ويسمي ابن خير صاحب القصيدة اليتيمة باسم الحُسين بن محمد المنبِجي، الملقّب بدَوْقَلة. كما أنه تلقى من شيخه ابن العربي أنها تُنْسَب لسبعة عشر شاعراً[٦].

والمصدر الشاميُّ هو كتاب «المنازل والديار» لمؤلفه الأمير أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤هـ = ١١٨٨م. فقد روى أسامة من هذه القصيدة سبعة أبيات من أولها. وهي المتعلقة بالأطلال. لأنه يهمه في كتابه «المنازل والديار» أن يقدّم أحسن ما قيل في هذا الموضوع .

ويفيدنا ابن منقذ أن صاحب القصيدة هو سعيد بن حُميد المنبجي المذحجي. المعروف بالدَّوْقَلَة[٧]. وهو بطبيعة الحال غير سعيد بن حُميد الكاتب المشهور المتوفى أواسط القرن الثالث الهجري.

فالمصدران الأندلسي والشامي وإن كانا يتفقان في لقب الشاعر الدَّوْقَلَة فإنّهما يختلفان في اسمه اختلافاً كبيراً. ولا يذكران شيئاً عن ترجمته ولا عن عصره.

وفي القرن السابع الهجري نجد أبا البقاء العكبري البغدادي المتوفى سنة ٦١٤هـ = ١٢١٧م . عند شرحه لبيت المتنبي في قصيدته الهمزية التي مدح بها الكاتب المتصوف أبا علي هرون بن عبد العزيز الأوراحي :

ونَذِيمُهم وبهم عرفنا فضله
وبضدها تتبيَّنُ الأشياءُ

يقول : قال أبو الفتح : هذا مأخوذ من قول المنبجي :

فالوجه مثل الصبح مبيض
والشَّعر مثل الليل مسودُّ
ضدان لما اجتمعا حسنا
والضدّ يُظهر حُسنَه الضدّ[٨]

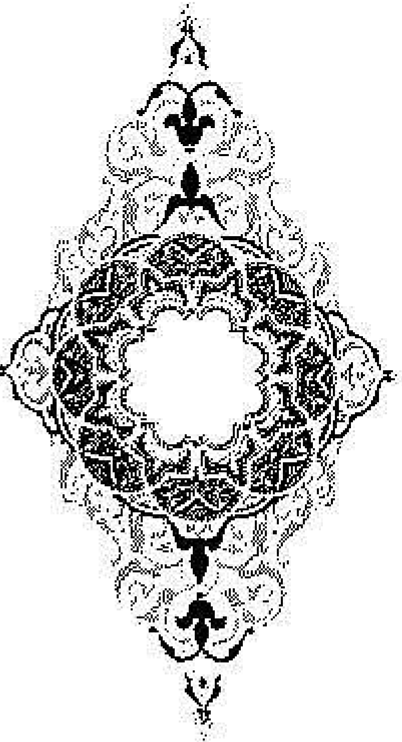
فأبو البقاء العكبري. ينقل عن أبي الفتح ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢هـ = ١٠٠١م ما ذكره من أخذ المتنبي معنى الشطر الثاني من بيته :

وبضدها تتبيَّنُ الأشياءُ

من شطر بيت المنبجي :

والضدّ يُظهر حُسنَه الضدّ

والمنبجي في كلام العكبري وابن جني يكون بطبيعة الحال هو الدَّوْقَلَة. لأن البيتين اللذين ذكرهما ابن جني هما ضمنَ القصيدة اليتيمة الدعدية التي بين أيدينا.



ونجد في العصر الحديث علامة العراق السيد محمود شكري الألوسي في كتابه «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» يذكر من هذه القصيدة اليتيمة واحداً وعشرين بيتاً في الفصل الذي خصصه لما كان يُستحسن من المرأة لدى العرب خلقاً وخُلقاً. مستشهداً بما ورد في هذه الأبيات، مما يتعلق بهذا الموضوع. ويقدّم ذلك بقوله : «... وفي الشعر الجاهلي كثير من أوصاف النساء المحمودة، من ذلك قول بعضهم من قصيدة». ويعقب على اختياره بقوله: «والقصيدة طويلة، ولها قصة مشهورة[٩].

فالألوسي كان يعتقد أن القصيدة جاهلية، لذلك استشهد ببعض أبياتها على ما كان العرب يستحسنونه من صفات المرأة خَلقاً وخُلقاً.

أما إشارته إلى قصتها المشهورة فهو يعني بذلك تلك الأسطورة التي حيكت حول أميرة عربية يمنية أو نجدية، كانت فصيحة اللّسان قوية الجنان، أبت الزواج إلا من شاعر تعترف بتفوقه عليها.

فنظم شاعر فارس هذه القصيدة، وقصدها، إلا أنه نزل في طريقه على شاعر كانت له الرغبة ذاتها، فلما علم بقصده قَتَلَهُ، وانتحل القصيدة لنفسه، وقصد الأميرة، ولكنه أخفق أمام امتحانها، فأغرت به من قتله.

ولا يعنينا هنا الوقوف أمام هذه الأسطورة التي إنما هي من نسج الخيال. فالقصيدة ليست من الشعر الجاهلي في شيء، لا في روحها ولا في لغتها ولا في أسلوبها. نعرف ذلك من دراسة نصها والتمعن في ذلك الرصف اللغوي الذي رصفت به الكلمات والأبيات والصفات الجسدية للمرأة. كما نعرفه في تلك الحلة التي أضفاها الشاعر على نفسه في آخر القصيدة من العفة والمروءة والكرم... مثل قوله :

ولقد علمت بأنني رجل
في الصالحات أروح، أو أغدو
سلم على الأدنى ومرحمة
وعلى الحوادث هادئ جلد
متجلبب ثوب العفاف وقد
غفل الرقيب وأمكن الورد
ومجانب فعل القبيح وقد
وصل الحبيب وساعد السعد
منع المطامع أن تثلمني
إني لمعولها صفا صلد

وينبغي ألا تغالطنا تلك الإشارات التي جاءت في بعض الأبيات، مثل البيت الثاني والأربعين الذي يقول فيه :

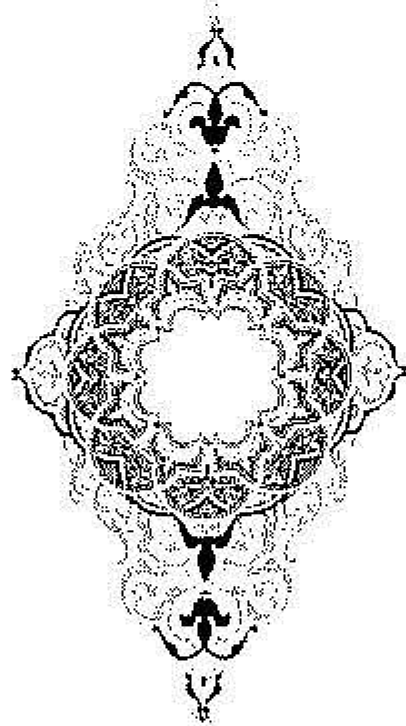
إن تتهمي فتهامة وطني
أو تنجدي إن الهوى نجد

وقوله في البيت السابع والخمسين :

والجد كندة والبنون هم
فزكا البنون. وأنجب الجد

فإن ناظم القصيدة رصف اللغة رصفاً، وسبك الأبيات سبكا. وكان يملك طاقة شعرية ودراية أدبية، تمكن بهما من حشد المعاني والإشارات حشداً، كما يفعل فحول الشعراء في العصر العباسي..

وينبغي هنا ونحن نتحدث عن القصيدة اليتيمة ألا نغفل المقالتين المفيدتين اللتين



كتبهما العلامة الهندي عبد العزيز الميمني الراجكوتي رحمه الله. حول هذه القصيدة في مجلة الزهراء[١٠]. وعمل الراجكوتي لفت الأنظار إلى هذه القصيدة بحثاً عن نصها الكامل وبحثاً عن صاحبها الحقيقي.

وقد نشر نصها باستثناء الأبيات المتعلقة بوصف بعض أعضاء دعد محب الدين الخطيب رحمه الله صاحب مجلة الزهراء في كتابه: «الحديقة»[١١]. ونسبها إلى دوقلة المنبجي.

وكذلك اختارها الأستاذ أنيس المقدسي في كتابه: «المختارات السائرة» نموذجاً للشعر الذي ينبغي أي يدرس، لأنه يمثل خصائص لفظية ومعنوية[١٢]. ونسبها إلى دوقلة.

ثم تتابع ذكرها في الدراسات الأدبية المتعلقة بالعصر العباسي[١٣]. وكذلك المجموعات الشعرية المتعلقة بالشاعرين أبي الشيص الخزاعي المقتول سنة ١٩٦هـ = ٨١١م[١٤]. وعلي بن جبلة الملقب بالعكوك المتوفى سنة ٢١٣هـ = ٨٢٨م[١٥]. على اعتقاد أن القصيدة تنسب إليهما. وقد جاء نص القصيدة محققاً في هاتين المجموعتين. وبلغت أبياتها ستة وستين بيتاً.

وهكذا تبقى هذه «اليتيمة» معلقة النسبة، لا نستطيع الجزم بنسبتها إلى شاعر معين.

أما هذا الدوقلة إن صح أنه شخص مذحجي منبجي فإننا لا نعرف عنه شيئا يمكننا الجزم به. إلا أن هذا لا يمنعنا من ذكر ما عثرنا عليه من إشارات تتعلق به.

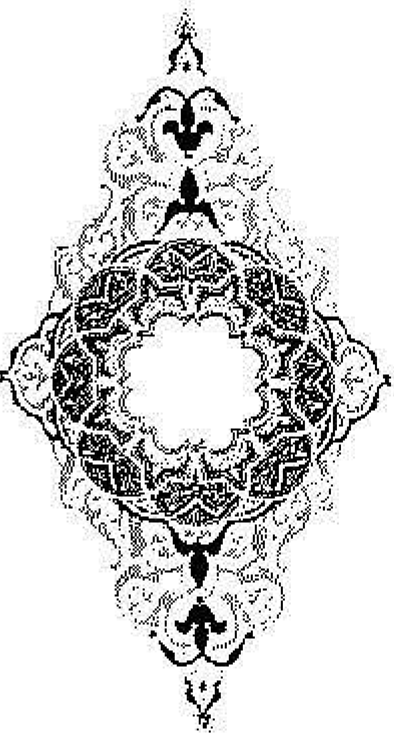
فصاحب لسان العرب ابن منظور على كثرة ما عنده من أسماء الشعراء وألقابهم فإنه لم يعرج على هذا الدوقلة. لا في مادة د . ق . ل ، ولا في غيرها. بخلاف الفيروز ابادي فإنه بعد أن شرح مادة د . ق . ل وبين مدلول كلمة دوقل بأسلوبه المعهود في الإيجاز زاد قوله : «وشاعر..» ولكنه لم يزدنا على ذلك شيئاً. ومثله فعل شارحه مرتضى الزبيدي في «تاج العروس».

ومن الملاحظ أن كتاباً بعنوان «معجم ألقاب الشعراء» لمؤلفه الدكتور سامي مكي العاني، نشره ببغداد سنة ١٩٧١م المجمع العلمي العراقي وهو معجم مفيد مرتب على حروف المعجم ذكر عدداً كبيراً من ألقاب الشعراء، لكنه لم يعرج على الدوقلة.

ولقب الدوقلة يذكرنا بلقب آخر شبيه به في اللفظ، وهو الدوخلة. وهذا اللقب عرف به علي بن منصور الحلبي[١٦] صاحب أبي العلاء المعري. كما عرف بكنيته ابن القارح، ورسائله مع أبي العلاء شهيرة.

وهكذا يدخل الدوخلة عالم المعرفة، بينما يظل الدوقلة في عالم النكرات، رغم أن هذه القصيدة اليتيمة نسبت إليه منذ قرون.

ولا نودع الحديث عن القصيدة اليتيمة والدوقلة دون أن نشير إلى قصيدة أندلسية شبيهة بها. وربما كانت داخلة في إطار المعارضة الشعرية المعهودة عند الشعراء. ونعني بها قصيدة دالية، مدح بها الشاعر الأندلسي أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي المتوفى سنة ٥٧٢هـ = ١١٧٦م الوزير الوقشي الذي كان قائما بأعمال ابن



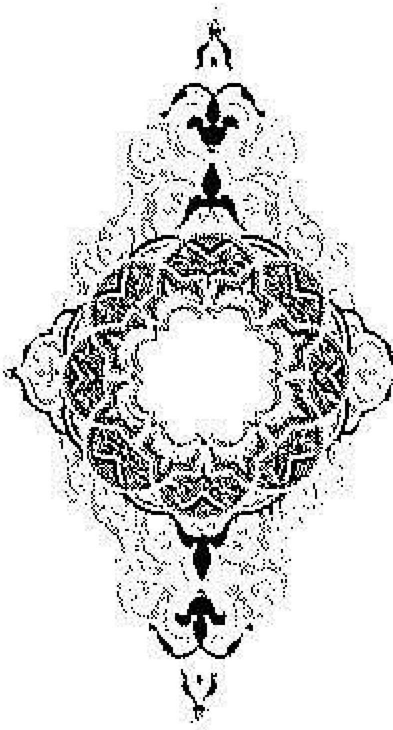
همشك، وأرسله سفيرا إلى مراكش لمفاوضة دولة الموحدين، والدخول في طاعتهم. والقصيدة مثبتة في ديوان الرصافي البلنسي[17] ومطلعها:

الأجـرُعِ تحـتـلـه هـنـدُ
يندى النسـيـم ويارج الرند.



الحواشي

١ – البيان والتبيين، تـ عبد السلام هارون.
٢ – الزهرة (بيروت، ١٩٣٢) ٤:٢٣.
٣ – المفضليات، تـ عبد السلام هارون (القاهرة، ١٩٤٠).
٤ – الشعر والشعراء، تـ أحمد شاكر (القاهرة، ١٣٦٤هـ) ص ٣٨٤.
٥ – التشبيهات، تصحيح محمد عبد المعين خان (كمبردج، ١٩٥٠) ص ٩٧.
٦ – فهرسة ابن خير (سرقسطة، ١٨٩٣) ص ٤٠١.
٧ – المنازل والديار (بيروت، ١٩٦٥) ص ٢٢٢ – ٢٢٣. وانظر (القاهرة، ١٩٦٨) ص ١١٦. تحقيق مصطفى حجازي.
٨ – العكبري، شرح ديوان المتنبي، تـ مصطفى السقا (بيروت، ١٩٧٨) ١:٢٢.
وتذيمهم : في بيت المتنبي، مضارع ذام، بمعنى عاب وذم.
٩ – بلوغ الأرب، ط٣ (القاهرة، د.ت) ٢: ٢ – ٢١.
١٠ – الزهراء. س. ٣ ع. ٤. ربيع الأول ١٣٤٥هـ. و. س. ٤. ع. ٦. شعبان ١٣٤٦هـ.
١١ – الحديقة (القاهرة، ١٣٤٩هـ) ٦: ١٩٦ – ٢٠٥.
١٢ – المختارات السائرة، ط٤ (بيروت، ١٩٥٥) ص ١٥٨.
١٣ – الشكعة، مصطفى، الشعر والشعراء في العصر العباسي (بيروت، ١٩٧٣) ص ٤٢٩ . وفروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي (بيروت، ١٩٨١) ٢:١٩٧.
١٤ – اشعار ابي الشيص، جمعها عبد الله الجبوري(النجف، ١٩٦٧) ص ٤٢ – ٥١.
١٥ – شعر علي بن جبلة العكوك، جمعه حسين عطوان (القاهرة، ١٩٧٢) ص ١١٥ – ١١٩.
١٦ – بغية الوعاة، ص٣٥٥ . وياقوت، معجم الأدباء (دار المأمون) ١٥:٨٣.
١٧ – ديوان الرصافي البلنسي، تـ إحسان عباس (بيروت، ١٩٦٠) ص ٥٣.

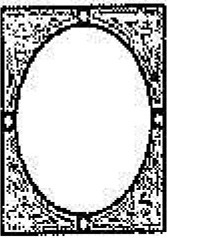


آليات اتخاذ القرار في الدولة العثمانية ضمن إطار تاريخ الفكر العثماني

لمعرفة آليات اتخاذ القرار في الدولة العثمانية، لابد من التمهيد لهذه المعرفة بالوقوف على مسألتين مهمتين هما: تصنيف التاريخ العثماني العام إلى قسمين أساسيين «سياسي» و«فكري»، ثم بيان حال الشريعة الإسلامية في الدولة العثمانية وما خالطها في عمر الدولة الأخير من تقنين غربي.

الدكتور محمد حرب
رئيس المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي والبلقان – القاهرة

التمهيد



يبدأ التمهيد بالناحية الأولى من المسألة الأولى وهي تصنيف التاريخ العثماني العام إلى قسمين: سياسي وفكري.

التاريخ العثماني

أولاً: القسم السياسي

بدأت الدولة العثمانية، كما ورد في النصوص العثمانية المبكرة، إمارة ثغر[1] داخل إطار دولة سلاجقة الروم، وهي دولة السلاجقة في الأناضول.

ومسألة استقرار العثمانيين في الأناضول في حمى السلاجقة تعود إلى الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، في أثناء الذعر العالمي من الموجة المغولية التي قادها جنكيز خان، وجعلت كثيراً من القبائل والشعوب تفر مذعورة من أمامها[2].

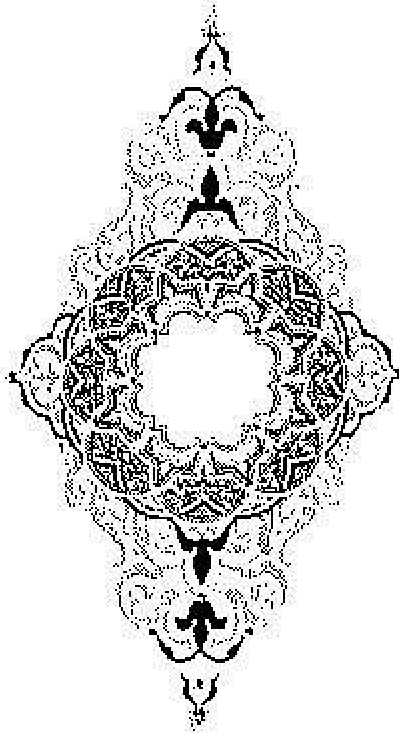
من القبائل والشعوب التي فرت خائفة من أمام المغول عشيرة قايى التركية التي كانت تقيم جنوب صحراء قارا قوروم شمال خراسان.

عبرت هذه العشيرة وغيرها من عشائر الأتراك إيران واستقر بعضها شمال العراق وبعضها الآخر غرب إيران، كما استقر قسم منها في القوقاز. ولكن قايى فقط هي التي هاجرت إلى الأناضول برياسة كوندوز ألب والد أرطغرل (- ١٢٣٠م) وجد عثمان (١٢٣١ - ١٢٨١م) الذي أخذت الدولة فيما بعد اسمه[٣].

وفي كنف سلطان قونية السلجوقي حصلت هذه العشيرة على أرض هبة من هذا الحاكم السلجوقي لتتخذها وطناً للخائفين، وكانت على الحدود السلجوقية الرومية[٤] وظلت هذه العشيرة - الإمارة - تحارب البيزنطيين وتقتطع منهم أرضاً تضمها إلى ملكيتها.

ومات كوندوز ألب فخلفه ابنه أرطغرل الذي خلفه عثمان وهو المؤسس الفعلي - في رأي المؤرخين - للدولة العثمانية.

من الناحية السياسية، كان عثمان أمير ثغر تابع لعاصمة سلاجقة الروم - قونية - الذين كانوا بدورهم تابعين لدولة الايلخانيين (١٢٥٦ - ١٣٤٤م) التي كانت هي الأخرى خاضعة لقوبيلاي (١٢٥٩ - ١٢٩٤م) حفيد جنكيز خان، وكان يسيطر ويحكم من عاصمته بكين[٥].



دور الإمارة العثمانية

حكم عثمان ثم ابنه أورخان ثم ابنه مراد - فاتح البلقان - ثم ابنه بايزيد الصاعقة (١٣٨٩ - ١٤٠٢م). وهذا الدور يسمى دور الإمارة، فقد كان كل من عثمان وأورخان ومراد وبايزيد، يحمل لقب «أمير».

دور السلطنة العثمانية

وفي زمن بايزيد الصاعقة انتقلت الإمارة العثمانية من طور إلى طور فاستبدل لبايزيد لقب أمير ليصبح سلطاناً، وكان ذلك عندما منحه الخليفة المتوكل العباسي (١٣٨٩ - ١٤٠٦م) لقب سلطان. والواقع أن العثمانيين كانوا في ذلك الوقت أقوياء فاتحين في أوروبا وفي الأناضول ولم يكونوا في حاجة ماسة إلى «التشريف»[٦] الذي أرسله الخليفة في القاهرة لسلطانهم بايزيد.

وجاء بعد بايزيد ستة سلاطين هم:

محمد جلبي (١٤١٣ - ١٤٢٠م) ومراد الثاني (١٤٢٠ - ١٤٥١م) ومحمد الثاني (الفاتح) (١٤٥١ - ١٤٨١م) وبايزيد الثاني (١٤٨١ - ١٥١٢م) وسليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م). وهذا الدور هو «دور السلطنة» إذ حمل كل واحد من حكامه لقب «سلطان».

دور "السلطنة - الخلافة" العثمانية

وفي عهد سليم الأول انتقلت الدولة العثمانية من سلطنة إلى سلطنة وخلافة عقب انتصاره على قانصوه الغوري المملوكي في موقعة مرج دابق عام ١٥١٦ م، ثم دخول العثمانيين القاهرة في ١٥ فبراير ١٥١٧ م.

وظلت الدولة العثمانية بوصفها السياسي والقانوني هذا عبر ٢٨ سلطاناً خليفة، وخليفة واحد بدون سلطنة[٧] وانهارت السلطنة العثمانية عام ١٩٢٢، كما ألغى الكماليون[٨] الخلافة عام ١٩٢٤.

ثانياً: القسم الفكري

كما يمكن أيضاً تقسيم التاريخ الفكري لدى العثمانيين إلى قسمين رئيسيين، يمكن تسمية الأول منهما: مرحلة الدولة الإسلامية الشرقية، والثاني مرحلة الدولة الإسلامية الخاضعة للتأثير الغربي، ويمكن تحديد زمن الأولى من بداية تأسيس الإمارة العثمانية عام ١٢٩٩ م إلى عام ١٨٣٩ م، وهو العام الذي صدر فيه فرمان التنظيمات[٩]. ويمكن تحديد زمن المرحلة الثانية بتاريخ ١٨٣٩ م، وينتهي بانتهاء الدولة العثمانية رسمياً في عام ١٩٢٤ م.

المرحلة الأولى:

الدولة الإسلامية الشرقية

وتبدأ ببداية الإمارة العثمانية حين كان دين هذه الإمارة «الشرعية الإسلامية» مضافاً إلى ذلك الأعراف والعادات التركية التي أتى بها الأتراك من آسيا الوسطى معهم ولا تتعارض مع الإسلام، وكان الجهاد العسكري أساس علاقاتها الخارجية[١٠].

وتتأكد ملامح صفة الدولة بوصفها إمارة في تلك الفترة (أي في مرحلتها الأولى) بوصية عثمان بن أرطغرل المؤسس، عند وفاته، وهي الوصية التي استمر التمسك بها إلى النهاية.

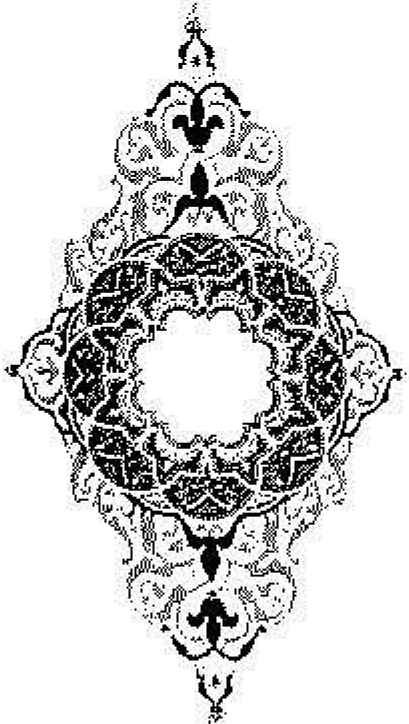
يورد عاشق جلبي (١٥١٩ - ١٥٧٢م) وهو مؤرخ عثماني مرموق المكانة هذه الوصية التي حددت الأسس الفكرية لدولة آل عثمان، والتي تشمل ناحيتين: إدارة الدولة، والعلاقات الخارجية.

أما عن إدارة الدولة فيقول عثمان لابنه أورخان الذي خلفه في السلطة:

«يا بني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين، و.. فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً، و.. إياك أن تبتعد عن أهل الشريعة وأنعم على الجند.. ولا يغرنك الشيطان بجندك وبمالك».

أما العلاقات الخارجية العثمانية المبكرة فكان رسمها في الوصية كالتالي: «..غايتنا هي إرضاء الله رب العالمين و..بالجهاد يعم نور ديننا - الإسلام - كل الآفاق فتحدث مرضاة الله جل جلاله.. و..لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد، فنحن بالإسلام نحيا وللإسلام نموت..»[١١].

ولقد كانت هذه الوصية مؤثراً فعالاً، وألقت بظلالها - كما سنرى - على آليات اتخاذ القرار في الدولة العثمانية حتى عهد التنظيمات والإصلاح الإداري.



وبهذه السياسة اجتاز آل عثمان عصر القوة، وقد كانوا في عهد عثمان المؤسس إمارة صغيرة، لا تتجاوز مساحتها عند وفاته ١٦٠٠٠ كم٢ فبلغت في عصر سليم الأول ٦٥٥٧٠٠٠ كم٢.

كانت إمارة ثغر عام ١٢٩٩ م فأصبحت دولة عالمية عام ١٥١٧ م، لتشمل أراضي في ثلاث قارات كبرى هي: أوروبا وآسيا وإفريقيا، وامتد نفوذها من موسكو إلى ڤيينا ومن بغداد إلى المغرب. وبلغت الدولة خلال هذه الفترة أوجها حضارة وإدارة وعدلاً.

واستمرت هذه المرحلة الفكرية أيضاً جزءاً كبيراً من عصر القوة السياسية وجزءاً من بداية عصر الضعف السياسي.

المرحلة الثانية:

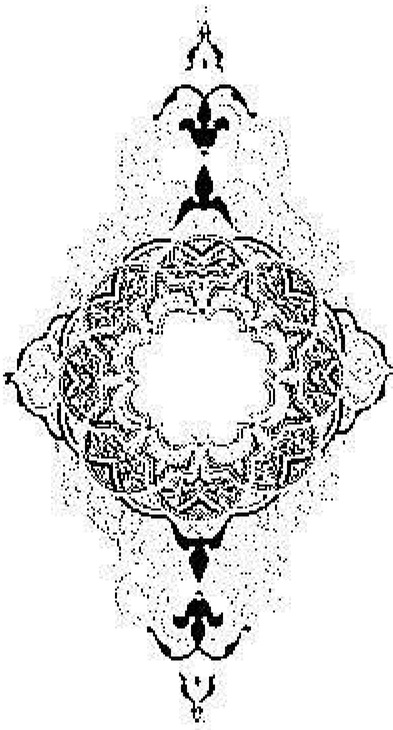
الدولة الإسلامية المستغربة

وعندما حدث الضعف في دولة العثمانيين - وليس هنا مجال البحث في أسبابه - اتجهوا إلى أوربا محاولين اللحاق بآخر الاختراعات العلمية والتكنولوجية منها، دون أن يصيخوا السمع إلى نداءات بعض المصلحين من أمثال قوجي بك (١٥٨٠ - ١٦٦٠م) الذي قال في رسالة مشهورة باسمه: إن الإصلاح لا يكون إلا بالعودة بحزم إلى تطبيق الشريعة الإسلامية[١٢].

اتجهت الدولة العثمانية إلى أوربا فأرسلت البعثات العلمية في مختلف التخصصات، ودرس هؤلاء الطلاب، ثم عادوا بعد أن نقلوا من أوربا التقدم التكنولوجي ومعه أفكار غربية، غريبة على العالم الإسلامي وقتها مثل الديمقراطية والعقلانية وفصل الدين عن الدولة والقوانين الوضعية، والقومية.

عند غائلة محمد علي باشا (١٨٠٥ - ١٨٤٩م) والي مصر العثماني اضطرت الدولة إلى الرضوخ تماماً للفكر الغربي، فأصدر السلطان عبد المجيد مرسوم خط كلخانه[١٣]، غيّر وجه الدولة العثمانية الفكري تغييراً كبيراً، ثم أصدرت الدولة فرمان الإصلاحات[١٤] عام ١٨٥٦م، ويعدّ أول «دستور» للدولة العثمانية على نمط غربي بديلاً عن أحكام الإسلام في بعض بنودها. ومثال ما أتى به الدستور الجديد: «إلغاء أحكام الارتداد»[١٥] «وقبول أفراد الدولة في المدارس العسكرية والمدنية دون أدنى تفرقة في الدين أو الجنس ما دام شرط القبول متوافراً في السن واجتياز الامتحانات المطلوبة[١٦]، والمساواة في الضرائب، واستخدام الشعب العثماني غير المسلم أيضاً في القوات المسلحة»[١٧].

والجدير بالذكر أن محاولات إصلاح الدولة العثمانية المسلمة على أساس المنهج الغربي في بناء الدولة والمؤسسات السياسية أدى بالضرورة إلى تسرب بعض القوانين الأوربية خاصة في التجارة والصناعة[١٨].



وفي عهد الإصلاح هذا بدأت الدولة العثمانية تأخذ مثلها الأعلى أو نموذجها الأسمى من الغرب، وبالتالي بدأت الأفكار السياسية تتحول من مفهوم فكر إسلامي - يقوم على أساس وجود خليفة للمسلمين يحكم دولة إسلامية واسعة الأرجاء تضم عناصر شتى من أجناس مختلفة وأديان متعددة من مسلمين ونصارى ويهود وأتراك وأكراد وعرب وأرمن وصرب ويونانيين وبوماق وبلغار وبوسنويين وألبان وجركس وغيرهم - إلى مفهوم ثقافي غربي، تمثل في القومية والسلطات التشريعية والانتخابات ووضع القوانين غير الثابتة وتغييرها أو إلغائها بقرار من المجالس الديمقراطية بديلاً من القوانين الشرعية الإسلامية الثابتة.

وأدى هذا في النهاية إلى قيام فرق سياسية عرقية تطالب بتفتيت الدولة العثمانية إلى دول قومية صغيرة، فقامت الحركات القومية الألبانية والعربية والكردية والرومية وغيرها، مما أدى في النهاية إلى انهيار الدولة وانتهائها من التاريخ.

والواقع أن فرمان الإصلاحات (١٨٥٦م) قد صدر بضغط من أوربا، كما كان شأن سابقه خط كلخانه أيضاً. أما فرمان الإصلاحات - بالذات فقد تمت دراسته وتقريره بين «عالي باشا الصدر الأعظم وبين السفير الإنجليزي والفرنسي في اسطنبول» وبعدها أعلنته الدولة رسمياً[١٩].

ومنذ هذا العهد حتى نهاية الدولة - تقريباً - تغير شكل إدارة الدولة، وبالتالي تغير شكل آليات اتخاذ القرار في الدولة.

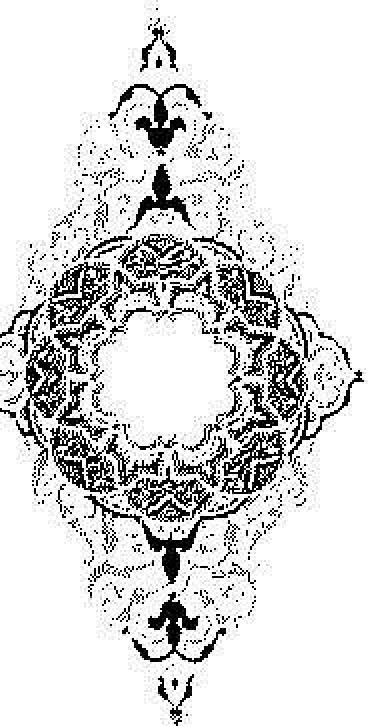
وفي المرحلة التي كانت فيها الدولة مسلمة شرقية وضعت سياستها على أساس الجهاد العسكري والتكوين الحضاري الإسلامي، ففي عهد الإمارة كانت آليات اتخاذ القرار اثنتين:

١ - أمير يقود الدولة يساعده قواد عسكريون، وكان هذا الأمير متفرغاً للإدارة والحرب مع مساعديه العسكريين.

٢ - مجموعة «مشايخ الشرع الشريف» يقننون لمجتمع الإمارة ويفصلون في القضايا وتسيير إدارة المجتمع على أساس فتاواهم، وكانت هذه المجموعة هي القضاة في المجتمع العثماني البسيط وأساسه الفكري.

وبينما كان العثمانيون إمارة كان رئيس مجموعة المشايخ يسمى المفتي، بدءاً من المفتي «قرا رستم» والمفتي «داود القيصري» ثم أصبح هذا المنصب يسمى «باش مفتي» بمعنى كبير المفتين أو المفتي الأكبر، وهذا له دلالة في توسع الإمارة مساحة وسكاناً ومشاكل[٢٠].

أما في عهد تطور الدولة إلى سلطنة - وبالذات في عهد الفاتح - فقد تحول منصب «باش مفتي» إلى مسمى «شيخ الإسلام» بموجب قانون الفاتح، المشهور باسم «فاتح قانون نامه سي»[٢١].



أما في عهد الخلافة، فظل مسمى اللقب «شيخ الإسلام». وكان آخر شيخ للإسلام في الدولة العثمانية هو مدني محمد نوري، وبعدها ألغيت مشيخة الإسلام في عام ١٩٢٤[٢٢].

نعود بعد ذلك إلى اتخاذ القرار في الدولة العثمانية

آليات اتخاذ القرار

أولاً : الفترة الفكرية الأولى من عمر الدولة (١٢٩٩ - ١٨٣٩)

كانت سلطة اتخاذ القرار في الفترة الأولى من تاريخ الدولة العثمانية تتمثل في الديوان الهمايوني في العاصمة، وفي الديوان في الولايات.

والديوان الهمايوني (Divan imepe-riel) اسم أطلق على الديوان الذي يجتمع برئاسة السلطان لينظر في أمور الدولة ذات الأهمية الأولى، وهو امتداد حضاري لهذه المؤسسة منذ عهد السلاجقة ثم الإيلخانيين والدول التركية الأخرى، ومثله في ذلك مثل الديوان العالي عند السلاجقة والديوان الكبير عند الإيلخانيين والديوان السلطاني عند المماليك[٢٣].

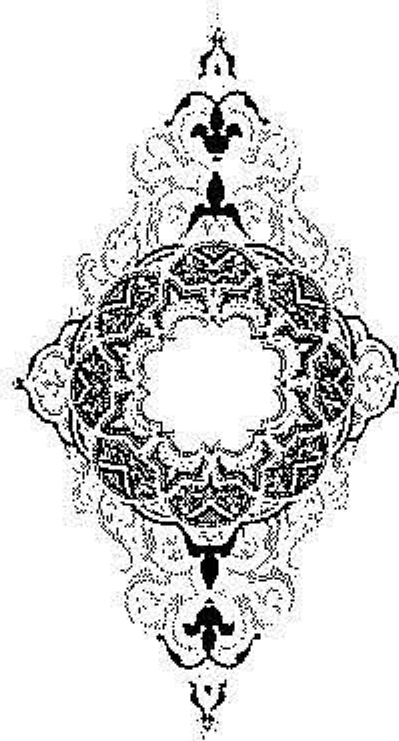
كانت مهمة الديوان الهمايوني دراسة أمور الدولة السياسية والإدارية والعسكرية والعرفية والشرعية والعدلية والمالية، كما كانت مهمته النظر في الشكاوى والقضايا، ويتخذ فيها القرار. وكان الديوان مفتوحاً لكل من يتمتع بحماية الدولة العثمانية مهما كان دينه أو ملته ومهما كان عرقه أو مكان موطنه في الدولة ومهما كانت مهنته أو الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها. كما كان الديوان مفتوحاً لكل رجل أو امرأة وكل من يحس بظلم وقع عليه أو يتعرض للظلم أو لمن صدر حكم من القضاة المحليين ضده ويرى خطأ هذا الحكم أو لمن يشكو الولاة أو الجنود أو الضباط أو لمن وقع عليه ظلم القائمين على الأوقاف[٢٤].

كانت الشؤون الإدارية والعرفية في الديوان من اختصاص الوزير الأعظم، أما الشؤون الخاصة بالأراضي فكانت من اختصاص النشانجي (التوقيعي). أما الشؤون الشرعية والقانونية فكانت من اختصاص قاضيي العسكر، أما الشؤون المالية فكانت من نصيب الدفتر دار، وكانت القرارات التي يتخذها والأمور التي ينظرها تسجل بدفاتر تسمى «مهمه دفتري» و«رؤوس دفتري» و«نامه» و«عهد نامه» ثم تمهر بخاتم السلطان الذي يكون عادة في عهدة الوزير الأعظم، ثم تودع في «الدفترخانه»[٢٥].

ويتشكل الديوان الهمايوني من أعضاء دائمين (الأعضاء الطبيعيين). وأعضاء مؤقتين.

الأعضاء الدائمون

هم السلطان والصدر الأعظم أو الوزير الأعظم وقاضيا العسكر والنشانجي (وهو



التوقيعي أو الطغرائي) والدفتردار.

الأعضاء المؤقتون

هم أمير أمراء الروملي (إذا كان موجوداً في العاصمة)، وآغا الإنكشارية، وقائد الأسطول (إذا كان حائزاً على رتبة الوزير فيكون عضواً دائماً)، وشيخ الإسلام (إذا دعي للحضور).

هذا بالإضافة إلى (الكادر) المساعد وأهمهم رئيس الكتاب و«التذكرجي» و«جاووش باشي» والكتّاب.

ويستطيع السلطان استخدام سلطاته أو إحالتها إلى الوزير الأعظم.

سلطات الديوان الهمايوني

١ - السياسية

يتمتع الديوان الهمايوني بأعلى سلطة في الدولة بعد السلطان، وعلى مستوى السياسة كانت مهمته المحافظة على نظام الحكم وهو السلطة العثمانية القائمة على مبادىء الإسلام[٢٦]. لذلك كانت مهمة الديوان الهمايوني السياسية الأولى ضمان ملائمة جميع أجهزة الدولة لهذه السلطة ومنع القيام ضدها وهو صاحب المسؤولية في اتخاذ ما يراه كفيلاً للقيام بمهمته، خاصة أن هذا الديوان يمثل قوى رأس الدولة كلها، ومن هذا المنطلق تكون السلطة السياسية التي يتمتع بها الديوان[٢٧].

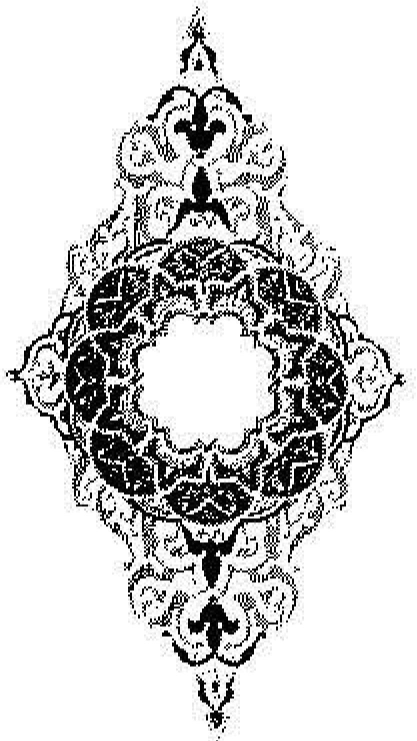
وتنقسم سلطة الديوان الهمايوني السياسية إلى قسمين: داخلية وخارجية.

أ - الداخلية

السلطة السياسية الداخلية التي يمارسها الديوان الهمايوني كانت حماية الشريعة الإسلامية، وهي روح السلطة السياسية وإعلاء الإسلام، وسحق كل حركة تقوم ضده[٢٨]، واستقبال من أسلم حديثاً من غير المسلمين، وإقرار رواتب لهم من الدولة كل حسب وضعه الاجتماعي، وتقديم هدايا مناسبة له، وحمايته من تدخل سفراء الدول التابعين لها، وعدم تسليمهم لهم عند مطالبة هؤلاء السفراء بتسليم المهتدين حديثاً إلى الإسلام لهم، في حالة ما إذا كان هذا المسلم حديثاً من مواطني دولة أخرى. أما إذا كان من مواطني الدولة العثمانية فالديوان يستقبلهم ويوزع عليهم هدايا ويربطهم برواتب منتظمة من الدولة[٢٩]، كما كان يتخذ تدابير شديدة ضد من يرتد عن دينه من المسلمين[٣٠].

ب - الخارجية

كانت السياسة الخارجية العثمانية التي ينفذها الديوان الهمايوني تتلخص في الآتي: نشر الإسلام بكل ما تستطيعه الدولة من إمكانات وبتعبير آخر: «تحويل دار الحرب إلى دار إسلام»[٣١]. وكان هذا أحد أهم الأهداف السياسية الخارجية العثمانية التي يتولى



تنفيذها الديوان الهمايوني. وقد نجحت هذه السياسة الخارجية بتوسيع حدود الدولة العثمانية إلى أقصى اتساعها، وهذا يعني نشرها للإسلام. ولم تتوقف حروب «الفتح» إلا منذ أواخر القرن السادس عشر الميلادي. ومنذ ذلك الحين كان على الديوان الهمايوني الذي يمثل الدولة العثمانية أن يجعل هدفه في السياسة الخارجية حماية الأراضي المفتوحة والدفاع عنها، وهو أيضاً دفاع عن الإسلام. وبعد مداخلات الدول الأوروبية في السياسة الخارجية العثمانية وإرسال هذه الدول سفراء مؤقتين ثم سفراء دائمين لها في اسطنبول أصبح السفراء يقدمون رسائل لهم إلى الديوان الهمايوني ويحصلون على أجوبتها في مراسم رسمية يوضحها قوجي بك في رسالته المشهورة، وكان للسفراء الأجانب أن يقدموا شكاوى للديوان الهمايوني إذا حدث إخلال بالاتفاقات المعقودة بين بلادهم وبين الدولة العثمانية التي تسمى في العثمانية «عهد نامه»، وكان الديوان يحقق فيها ويعدل[٣٢]. وكان لهذا الديوان حق تعيين العثمانيين في المناصب الدبلوماسية، وكانوا غالباً من البيروقراطيين العاملين فيه[٣٣].

أما أهم سلطات الديوان الهمايوني فكان إعلان الحرب، وكان المعتاد أن يحيل السلطان قرار الحرب إلى الديوان الهمايوني لدراسته واتخاذ اللازم لتنفيذه. وكان هذا القرار أحياناً يُتَّخذ في الديوان الهمايوني[٣٤].

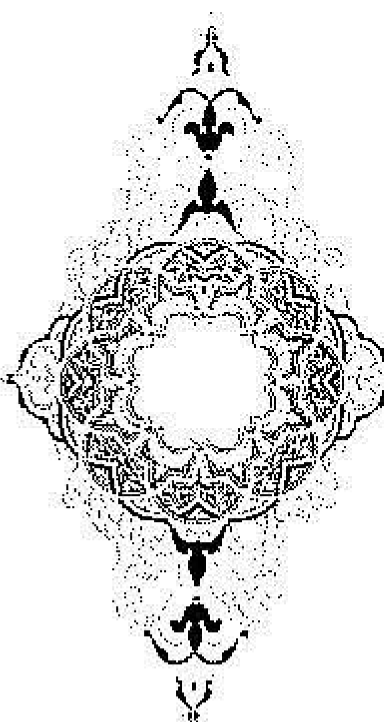
٢ - الإدارية

كان التفتيش على جميع الأعمال الإدارية في البلاد من سلطات الديوان الهمايوني وهو في ذلك - بعد السلطان - السلطة الأولى في البلاد وعليه محاكمة الموظفين إذا لزم الأمر.

وإن كان توجيه المناصب إلى حد معين من اختصاص الجهات الإدارية الأخرى مثل تعيين القضاة يكون من اختصاص قاضي العسكر، إلاّ أن التعيين في بعض المناصب مثل منصب صوباشي المدن الكبرى من اختصاص الديوان الهمايوني. وإذا صدر قرار بتعيين شخص في منصب وتظلم من هذا التعيين أو النقل فمن حقه مراجعة الديوان الهمايوني، وللديوان في هذه الحالة الأمر بإجراء التحقيقات وعمل اللازم[٣٥].

ومن السلطات الإدارية لهذا الديوان أيضاً حماية أهل الذمة في البلاد من تعديات الإداريين وإعادة الحق لهم ومعاقبة المسؤولين على ذلك[٣٦].

وكانت خيوط المركزية الإدارية في الدولة تتجمع في هذا الديوان، مثال ذلك أن الديوان طلب من أجهزة الدولة المسؤولة عمل قوائم بكل الموجودين داخل حدود الدولة العثمانية وتسليمها للديوان الهمايوني وتجديدها كل ثلاثين عاماً وإن على المسؤولين عن هذا تسجيل الوفيات والمواليد خلال هذه الأعوام الثلاثين، وهو ما يعرف اليوم بالإحصاء العام[٣٧].



٣ - المالية والاقتصادية

والديوان الهمايوني هو سلطة الفصل العليا في الأمور الاقتصادية والمالية على أعلى مستوياتها في الدولة، فالوزير الأعظم والدفتردار عضوا الديوان الطبيعيان وهما صاحبا السلطة الأولى في الدولة - بعد السلطان - في التصرف بالأمور المالية، ومهمتها أيضاً الإشراف على مالية الدولة. ومن مهام الديوان الطبيعية الضرائب والاقتصاد والمال.

أما عن الضرائب فمهمة الديوان تحرير موارد البلاد المفتوحة بدقة وعناية فائقتين، والإشراف المباشر سنوياً على الضرائب التي من حق الخزينة العامة، واستلام دفاتر الضرائب التي تُحصَّل سنوياً من جميع أرجاء البلاد، فهذه يكتب منها نسختان: نسخة في مركز الولاية ونسخة أخرى ترسل إلى اسطنبول لتسلم للديوان الهمايوني.

والقوانين التي تسن لجمع الضرائب تعد في الديوان الهمايوني، يقوم بإعدادها التوقيعي (النشانجي) ومجموعة مساعديه، وينظر الديوان في مدى مطابقة هذه الضرائب للعدالة الضريبية بناءً على مدى مطابقتها للشرع الإسلامي.

ويتساوى في هذا جميع أنواع الضرائب، من أهمها ضرائب الجمارك التي يتابعها الديوان بدقته المعهودة، حتى إنه يتدخل فوراً إذا قدمت له شكوى تخص تحصيل هذه الضرائب بغير وجه حق إلى أبسط أنواع الضرائب وأخفها.

وعلى الديوان الهمايوني ضمان عدم تحصيل الضرائب من الذين لا تحصل منهم مثل رجال الدين الذميين[٣٨]، وعليه أيضاً مجازاة المرتشين - إذا وجدوا - في عمليات جمع الضرائب[٣٩].

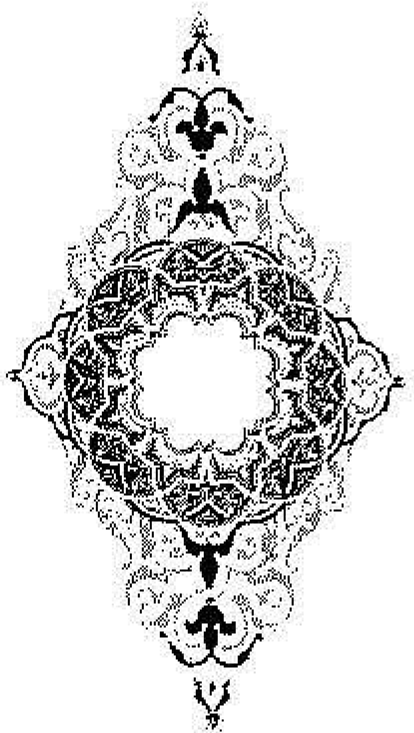
وعلى الديوان القيام بعمل اللازم لعدم إهدار المال العام واتخاذ التدابير الصارمة في هذا السبيل[٤٠] واتخاذ الإجراءات الضرورية لحماية البائع والمستهلك على حد سواء ومراقبة أعمال قطع الأشجار وأعمال المحافظة على الخضرة[٤١].

من مهام الديوان الهمايوني أيضاً اتخاذ التدابير الضرورية لتطور اقتصاد البلاد والعمل على عدم سيطرة تجار معينين على تجارة البلاد واحتكارهم لها وعلى عدم تخزين البضائع والمواد الضرورية في الوقت المناسب ثم بيعها بعد ذلك بأسعار باهظة. ومن مهماته القضاء على التهريب وحصر ثروة السلطان إذا توفي وغير ذلك[٤٢].

أعضاء الديوان الهمايوني الطبيعيين (غير السلطان) هم:

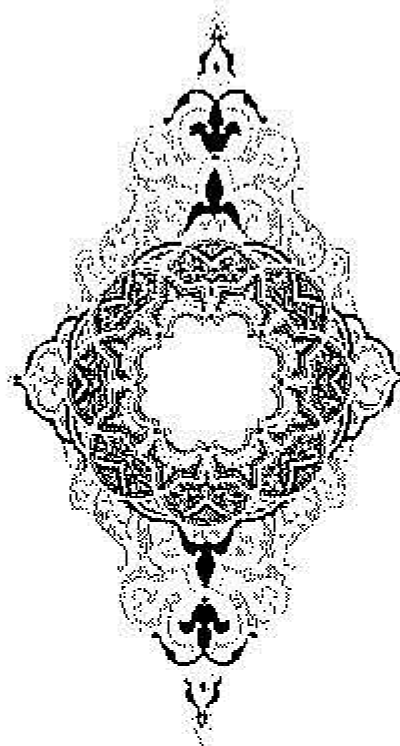
١ - الوزير الأعظم

وسلطاته - كما ذكرنا من قبل - تتلخص في أنه وكيل السلطان وحامل خاتمه وكان يعين في أوائل الحكم العثماني من طبقة



العلماء. وكان هناك وزير واحد لكنه منذ عهد مراد الأول (١٣٨٩ - ١٣٩٢م) كثر عدد الوزراء ولذلك سمي أولهم الوزير الأعظم، وكانت له رئاسة الديوان الهمايوني نيابة عن السلطان في حالة عدم وجوده، وسلطة تعيين العلماء ومن على شاكلتهم وعزلهم وترقيتهم وكان له أن يقطع حتى ٥٩٩٩ اقجه دون الرجوع إلى السلطان، وكان له في أوقات الحرب سلطة السلطان في كثير من الأمور.

ولا بد أن يشترك مع السلطان في الحرب فإذا ترك السلطان الحرب لسبب أو لآخر يتولى الوزير الأعظم قيادة الجيش نيابة عن السلطان. وفي أثناء ذلك يحمل لقب «السردار الأكرم»، ويترك في حالة الحرب مكانه موظفاً في البلاد يسمى «قائمقام الصدارة» أو «قائمقام الركاب الهمايوني» وهو يرأس الديوان الهمايوني في العاصمة بدلاً من الوزير الأعظم بمقتضى بنود القانون[٤٤]، وكانت إطاعة الوزير الأعظم هي إطاعة السلطان[٤٥].



٢ - قاضيا العسكر

وموقعهما في البروتوكول خلف الوزير الأعظم مباشرة، وهما اثنان: قاضي عسكر الأناضول وقاضي عسكر الروملي (البلقان). وكانا يستمعان إلى الشكاوى، ويجلسان على يسار الوزير الأعظم في الوقت الذي يكون فيه بقية الوزراء على يمينه، وكان عليهما حل المسائل الشرعية، ويمثلان العلماء، إذ إن شيخ الإسلام لم يكن عضواً بالديوان الهمايوني. وأهم عمل لهما في الديوان الاستماع إلى القضايا المعروضة[٤٥].

٣ - النشانجي

ويسمى بالتوقيعي وأحياناً بالطغرائي والمعنى الحرفي لعمله: «هو الشخص الذي يختم الفرمانات السلطانية بالطغراء». لكن سلطاته كانت أوسع من ذلك، فهو الذي يعد الفرمانات من حيث صياغتها، ويكتب بنفسه أهم الفرمانات، وعليه تثبيت قواعد الحقوق العرفية الواجب وضعها أو تغييرها، وعليه المراجعة الأخيرة على ما يعده الدفتردار من وثائق.

ونظراً لأهميته في الديوان فقد كان اختياره من العلماء ثم من بعد ذلك من الكتّاب البارزين. ولم يكن لشيخ الإسلام ولا قاضي العسكر دخل في اختيار النشانجي أو تعيينه[٤٦].

٤ - الدفتردار

وله سلطة خاصة وهو وكيل السلطان في مال الدولة. وميدان عمله الأمور المالية في الدولة. ومن واجباته فتح الدفترخانه والخزانة. ويعرض على السلطان مسائله عقب اجتماع الديوان في أيام الثلاثاء[٤٧].

موقف شيخ الإسلام من الديوان الهمايوني

كان لشيخ الإسلام في الدولة وضع خاص فلا يجوز حبسه أو سجنه أو اعتقاله، ومع ذلك فلم يكن عضواً بالديوان الهمايوني[٤٨].

ثانياً: الفترة الفكرية الثانية من عمر الدولة (١٨٣٩ - ١٩٢٤م)

اتجه الإداريون العثمانيون في عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ - ١٨٣٩م) وبرغبته إلى التغريب، وما يهمنا هنا أنه غيّر اسم الصدارة العظمى إلى «باش وكالت» أي رئاسة الوزراء - كما في أوربا - وأوجد نظارتين (وزارتين) جديدتين هما المالية والأوقاف[٤٩]. وقد وصف أ. سلاد - الذي كان خدم الدولة العثمانية برتبة «مشاور باشا» مع أنه أوربي - السلطان محمود الثاني بأنه «قلد نقائص الغرب كما هي وبدأ إصلاحاته للدولة من حيث ما كان يتوجب عليه تركه» ويقصد أنه أخذ من الدول الأوربية المظهر والمداراة[٥٠].

وفي عهد ابنه السلطان عبد المجيد أصدرت الدولة بياناً رسمياً يؤكد أن الدولة العثمانية قد اتجهت إلى الغرب في تغيير مظهرها وجزء كبير من تقنينها وآليات اتخاذ القرار فيها.

مما سبق نتبين أن الدولة العثمانية كانت تدار، وكانت قراراتها تُتَّخذ في الديوان الهمايوني، وكان الديوان ينعقد برئاسة السلطان أو الصدر الأعظم نيابة عنه كما كان هذا الديوان يعقد في القصر في المكان المسمى تحت القبة (Kubbe Alti).

واستمر هذا حتى عهد السلطان محمد الفاتح الذي ثبت هذا التقليد بقانون. وقد أُلغي في هذه الفترة الديوان الهمايوني بوصفه نظاماً يشكل آليات اتخاذ القرار في الدولة العثمانية واستبدل به النظام الأوربي، وبالتالي فقد تكوَّن رسمياً بديلاً عن الديوان ما سمي في عهد محمود الثاني باسم «مجلس وكلا» والوكيل بالتركية بمعنى الوزير في العربية وبالتالي فقد أصبح النظام الجديد يعرف باسم مجلس الوزراء[٥١] أو ما عرف باسم «الباب العالي».

الباب العالي (Sublime Porte) أو مجلس الوزراء

وهو اصطلاحاً «المجلس الذي يتشكل من شيخ الإسلام والنظار (الوزراء) الذي يتخذ القرار في الأمور المتعلقة بسياسة الدولة (العثمانية) الداخلية والخارجية والأمور الهامة ويسمى أيضاً «المجلس الخاص» أو «مجلس الوزراء الخاص»[٥٢].

وكان يتكون من: شيخ الإسلام وناظر العدلية وقائد الجيش ورئيس شورى الدولة، وناظر الخارجية، وناظر الداخلية، وناظر البحرية، ومشير المدفعية، وناظر المالية، وناظر الأوقاف، وناظر التجارة والأمور النافعة (الأشغال)، وناظر المعارف، ومستشار الصدر الأعظم العالي.

وبذلك بعد شيخ الإسلام عن استقلاله

وتوزعت الشؤون الدينية بينه وبين ناظر الأوقاف وأصبح شيخ الإسلام موظفاً كبيراً في الدولة.

وعلى النظام الغربي في تكوين الدولة العثمانية أيضاً أصبح هذا المجلس الوزاري - بعد انقلاب يوليو/ تموز ١٩٠٨ م الذي عزل السلطان عبد الحميد عن العرش - مقيداً بقوانين ولوائح وأنظمة محددة ومعينة ومسؤولاً أمام السلطان ومجلس المبعوثان (مجلس الأمة) عن الشؤون المتعلقة بسياسة الدولة الداخلية والخارجية والوظائف العامة(٥٣).

لحواشي

١ - انظر في معنى ثغر: أوغلو، سرت ، معجم التاريخ العثماني، عثمانلي تاريخ لغتي، بالتركية الحديثة (إسطنبول، ١٩٨٦) ص ٣٤٨.

٢ - انظر: درسون، حقي، تاريخ الإسلام الكبير منذ النشأة إلى يومنا هذا، دوغوشدن كونمزه بيوك إسلام تاريخي، بالتركية الحديثة (إسطنبول، ١٩٨٩) ص ١٣٣.

٣ - سعد الدين، تاج التواريخ، بالحروف التركية الحديثة، (إسطنبول د. ت) ص ٢٥.

٤ - يرى بعض المؤرخين المحدثين أنها في أسكيشهر انظر: اوزطونه، يلماز، تاريخ تركيا الكبير (بيوك تركيا تاريخي) بالتركية الحديثة (إسطنبول، ١٩٧٧) ص ٢٥٦.

٥ - انظر: رحمتي، رشيد، في دائرة المعارف الإسلامية التركية المترجمة في مادة (قوبيلاي) (إسطنبول، ١٩٦٥) ص ٩٤٨.

٦ - «تشريف» عن معنى هذا المصطلح انظر: حرب، محمد، العثمانيون في التاريخ والحضارة (القاهرة، ١٩٩٤).

٧ - انظر: بول، ستانلي، وخليل أدهم، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، ترجمة وتعليق أحمد السعيد سليمان، (القاهرة، ١٩٦٩) ص ٤٤١ - ٤٥٣.

٨ - نسبة إلى أنصار مصطفى كمال أتاتورك.

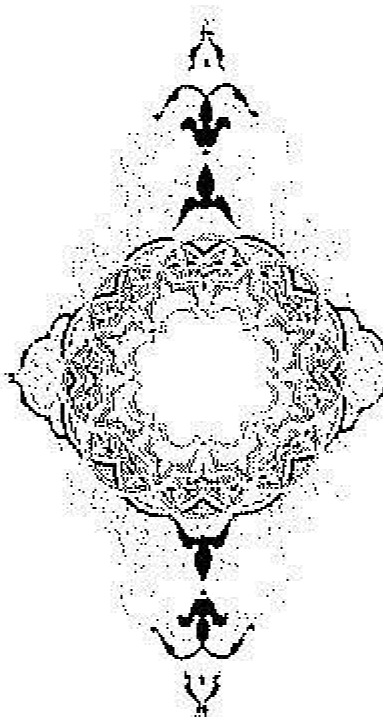
٩ - التنظيمات: كلمة عربية دخلت اللغة العثمانية لتعني في مصطلحها السياسي: حركة التنظيم والإصلاح على المنهج الأوربي الغربي، ومفردها تنظيم. وتعني في المصطلح التاريخي حركة الإصلاح التي حدثت في الدولة العثمانية في القرن الثالث عشر الهجري = التاسع عشر الميلادي مهتدية بالمؤسسات والتنظيمات الأوربية انظر. حرب، محمد، السلطان عبد الحميد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الكبار (دمشق، ١٩٩٠) ص ٢٨.

١٠ - انظر: دائرة المعارف العثمانية، عثمانلي انسيكلوبيدسي، بالتركية الحديثة (إسطنبول د. ت) ٢: ٢٠٧ - ٢٠٨.

١١ - انظر ترجمة الوصية في: حرب، محمد، العثمانيون، ص ١٦.

١٢ - قوجي بك : ضابط مؤرخ مصلح عميق الفكر، قدم أولى رسائله في إصلاح الدولة إلى السلطان مراد الرابع عام ١٦٣١ وقد أوضح في هذه الرسالة - من وجهة نظره - جل الأسباب التي دفعت بالدولة في طريق الضعف والانحطاط. كما أوضح ما يمكن أن تتخذه الدولة من إصلاحات كفيلة بإعادتها إلى ما كانت عليه وقت قوتها وعظمتها. لمزيد من التفاصيل انظر: الموسوعة التركية الحديثة يكي تورك انسيكلوبيدسي، بالتركية الحديثة (إسطنبول، ١٩٨٥) ٥: ١٨٩٠.

١٣ - خط كلخانه: هو الفرمان الشهير الذي أصدره السلطان عبد المجيد في نوفمبر/ تشرين الثاني من عام ١٨٣٩م وتلاه مصطفى رشيد باشا الصدر الأعظم آنذاك في الحديقة المسماة «كلخانه». وكان ذلك إيذاناً ببدء عصر التنظيمات في



الدولة العثمانية. لمزيد من التفاصيل انظر: اوغلو، سرت، مرجع سابق، ص ١٢٦.
١٤ - فرمان الإصلاحات (إصلاحات فرماني): هو الفرمان التالي الذي أصدره السلطان عبد المجيد عام ١٨٥٦ الذي الغى جميع الفوارق بين جميع رعايا الدولة. وفي هذا يمكن الرجوع إلى: اوغلو، سرت، المرجع السابق، ص ١٦٤.
١٥ - انظر: قرال، ضيا، التاريخ العثماني، عثمانلي تاريخي، بالتركية الحديثة (انقرة، ١٩٨٣) ٦:١.
١٦ - قرال، ضيا، المرجع السابق، ص ٣.
١٧ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
١٨ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
١٩ -المرجع ذاته، ص ٧١.
٢٠ - انظر: اوزطونه، يلماز، مرجع سابق، ٣٤٨:٣.
٢١ - عن قانون الفاتح انظر مادة: «فاتح قانون نلمه سي» في حقي دوسون، ١٢: ٣٩٣ - ٤٠٨.
٢٢ - دانشمند، إسماعيل، إيضاحلي عثمانلي تاريخي قرونولژيسي» بالتركية الحديثة (إسطنبول، ١٩٧١) ص ١٦٤.
٢٣ - جارشلي، إسماعيل حقي أوزون، مدخل إلى مؤسسات الدولة العثمانية، عثمانلي دولتي تشكيلاتنه مدخل (أنقرة، ١٩٧٠) ص ٣٩، ٨٧، ٢٠٨، ٢٧٥.
٢٤ - درسون، حقي، المرجع السابق، ١٢: ٣١٦ - ٣١٨.
٢٥ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
٢٦ - مومجي، أحمد، حقوق سال وسياسال قرار اورغاني اوله رق ديوان همايون، بالتركية الحديثة (أنقرة، ١٩٧٦) ص ٧٣.
٢٧ - مومجي، أحمد، المرجع نفسه.
٢٨ - المرجع ذاته، ص ٧٤.
٢٩ - المرجع ذاته، ص ٧٥.
٣٠ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
٣١ - المرجع السابق، ص ٧٦.
٣٢ - قوجي بك، رسالة سي، ساده لشدين ظهوري دانشمان (أنقرة، ١٩٨٥) ص ١٦٣.
٣٣ - انظر: مومجي، أحمد، مرجع سابق، ص ٨٢.
٣٤ - سعد الدين، خوجه، المرجع السابق، ٢١٥:١.
٣٥ - انظر: مومجي، أحمد، مرجع سابق، ص ١٠٨ - ١٠٩.
٣٦ - مومجي، أحمد، مرجع سابق، ص ١١١.
٣٧ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
٣٨ - المرجع ذاته، ص ١١٣.
٣٩ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
٤٠ - المرجع ذاته، ص ١١٤.
٤١ - المرجع ذاته، ص ١١٥.
٤٢ - المرجع ذاته، ص ١١٦.
٤٣ - انظر: درسون، حقي، المرجع السابق، ١٢: ٣١٨ - ٣٢٠.
٤٤ - مومجي، أحمد، مرجع سابق، ص ٤٣. وحقي درسون، ص ٣٢١ - ٣٢٢.
٤٥ - مومجي، أحمد، مرجع سابق، ص ٤٨.
٤٦ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
٤٧ - المرجع ذاته، ص ٥٠. وحقي درسون، ص ٣٢.
٤٨ - اوزطونه، يلماز، مرجع سابق، ٢٥٦:١٠.
٤٩ - حلمي، أحمد، إسلام تاريخي، ساده لشدين ضيا نور (إسطنبول، ١٩٨٢) ص ٧٥١.
٥٠ - المرجع ذاته، ص ٧٥٣.
٥١ - انظر مادة (مجلس وكلا) في عثمانلي تاريخ ديملري وتريملري سوزلكي (إسطنبول، ١٩٧١) ٣٦٥:١١.
٥٢ - المرجع ذاته، ص ٤٣١.
٥٣ - انظر عثمانلي تاريخ ديملري، ص ٤٣١.

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع العربية

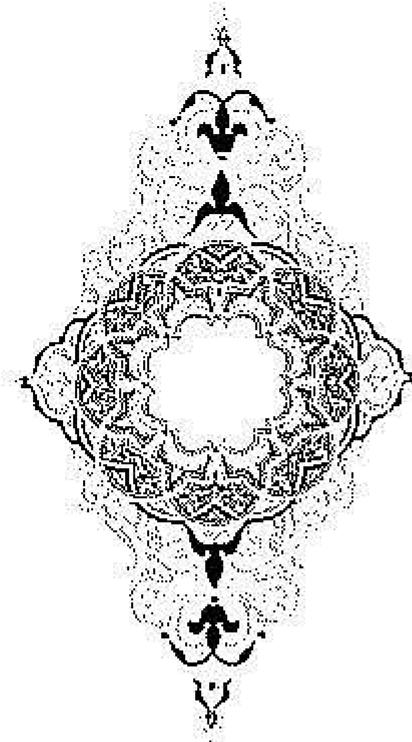
- بول، ستانلي . وخليل أدهم . تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة . ترجمه وزاد عليه أحمد السعيد سليمان . القاهرة، ١٩٦٩.
- حرب، محمد . السلطان عبد الحميد آخر السلاطين العثمانيين الكبار . دمشق، ١٩٩٠.
- حرب، محمد . العثمانيون في التاريخ والحضارة . القاهرة، ١٩٩٤.

ثانياً : المراجع التركية

- Ahmet Mumcu, Hukuksal Ve Siyasal Karar Organi Olarak Divani Humayum, Ankara, 1976.
- Hakki Dursun, Dogustan Gunumuze Buyuk Islam Tarihi, Istanbul, 1989.
- Ismail Danismend, Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, Istanbul, 1971.
- Ismail Hakki Uzuncarsili, Osmanli Deuleti Teskilatine Medhal, Ankara, 1970.
- Kogi Bey, Risale (Sadelestiren) Zuhuri Danisman, Ankara, 1985.
- Mithat Sertoglu, Osmanli Tarihi Lugati, Hazirlayan Ismet Parmaksizoglu, Istambul.
- Yilmaz Oztuna, Buyuk Turkiye Tarihi, Istanbul, 1977.
- Ziya Karal, Osmanli Tarihi, Cilt 6, Ankara, 1983.

ثالثاً : دوائر معارف متخصصة

- Islam Ansiklopedisi, Istanbul, 1965.
- Osmanli Ansiklopedisi, Istanbul.
- Yeni Turk Ansiklopedisi, Cilt 5, Istanbul, 1985.

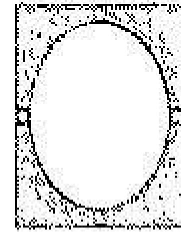


المراسيم المملوكية

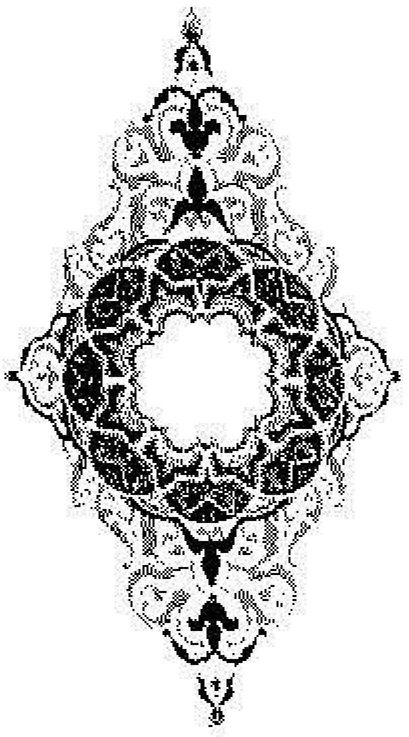
بمساجد فُوَّه(*) الأثرية

الأستاذ خالد عزب
القاهرة

احتلت مدينة فُوّه مكانة خاصة في العصر المملوكي، إذ كانت ثغراً من الثغور الاقتصادية الهامة في ذلك العصر(١) ونتج عن ازدهارها الاقتصادي أن أصبحت محط اهتمام سلاطين المماليك، ولذا كثرت المراسيم المملوكية المتعلقة بها، موضوع البحث.



المراسيم جمع مرسوم، أخذ من قولهم: «رسمت كذا فارتسمته إذا امتثلته. أو من قولهم: رسم على كذا إذا كتب. ويحتمل أن يكون منها جميعاً»(٢). والمقصود بالمراسيم في موضوعنا الأوامر السلطانية الخاصة برفع مظلمة معينة. وقد وكثرت هذه المراسيم بصفة خاصة في العصر المملوكي



الجركسي. وبمدينة فُوَّه سبعة منها[٣]. تكشف عن العديد من أوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية في تلك المدينة خلال العصر المملوكي الجركسي.

وكثرة المراسيم بتلك المدينة ترجع لسببين:

أولاً - أن فوه كانت ضمن إقطاع الديوان الخاص الشريف، وكانت العادة في العصر المملوكي أن يختار السلطان لنفسه ما شاء من الأراضي الجيدة أو القريبة، ومن المكوس المربحة والجوالي وغيرها من أبواب الإيراد الوفيرة، وهذا الإقطاع يحوزه السلطان بوصفه سلطاناً، وهو يملك حق الانتفاع به واستغلاله مادام حاكماً، وينتقل عنه بزوال حكمه[٤]. وكان يدخل في إقطاع السلطان فوه وما بها من زكاة، وتقدر عبرتها بستة عشر ألف دينار[٥].

ثانياً - أنّ فوّه اكتسبت أهمية تجارية في العصر المملوكي[٦].

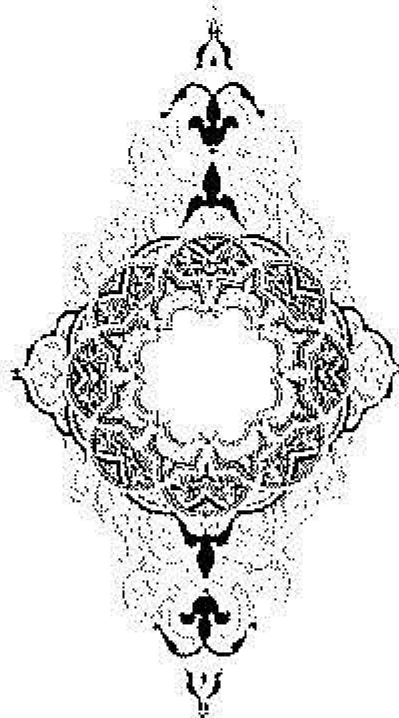
ووضعت المراسيم المملوكية في المساجد الرئيسية بالمدينة، فتجد بمسجد أبي النجاة اثنين منهما يتضمنان الإشارة إلى الحركة التجارية. ووضع هذين المرسومين في هذا المسجد ربما يرجع لوجوده على ساحل النيل بالقرب من موردة (رصيف) أبي النجاه، ولذا فمن السهل أن يطلع عليهما التجار القادمون إلى المدينة. وبمسجد القنائي وهو المسجد الرئيسي بالمدينة اثنان آخران، وثلاثة كذلك بمدرسة حسن نصر الله. وربما كان لحسن نصر الله دور في إصدارها، لاحتلاله مناصب عليا في دولة المماليك، وهو من أبناء مدينة فوه، ولذا فقد حرص على وضعها بمنشائته.

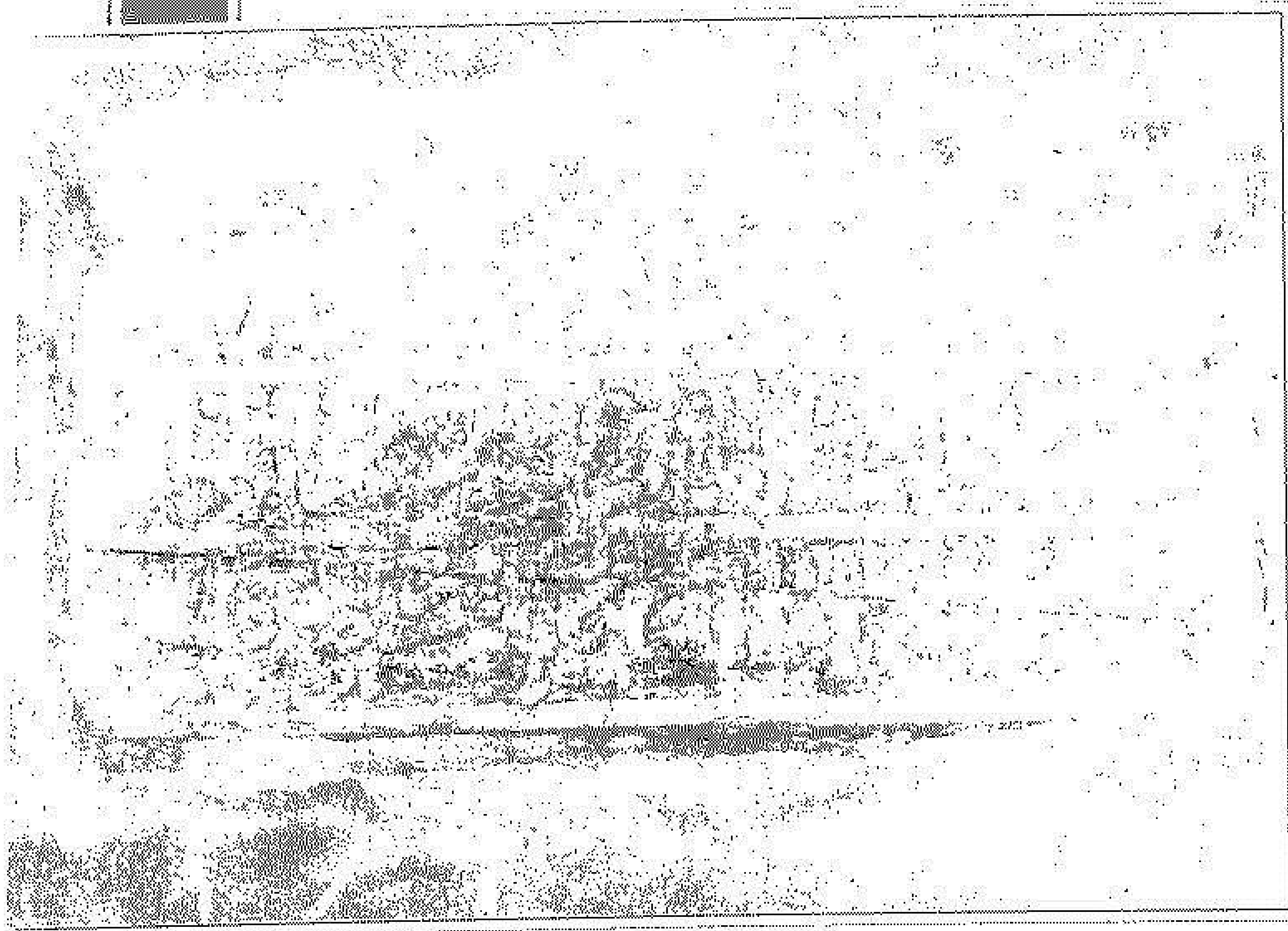
واختيرت المساجد لوضع هذه المراسيم لأنها من الأماكن التي يرتادها الناس بصفة مستمرة، ولذا فمن السهل إطلاعهم على مضمونها، وبالتالي نشر ما جاء في المرسوم من أمر سلطاني برفع مظلمة أو غير ذلك.

وأود أن أوضح أنه ربما كان بمدينة فوه أكثر من هذا العدد من المراسيم، ولكن ما تبقى لنا هو هذا العدد، فضلاً عن أن معظم آثار المدينة المملوكية قد تهدمت وأعيد بناؤها، وعلى أي حال فما من مدينة بمصر تحتفظ بمثل هذا العدد من المراسيم.

وقد درست بعض المراسيم المملوكية وبصفة خاصة تلك المحفوظة بمساجد الشام دراسة وافية وشاملة[٧]. وهذه المراسيم تتضمن نصوصها اسم السلطان المملوكي مصحوباً بجملة من ألقابه، بالإضافة إلى تاريخ إصدار المرسوم، وسبب الإصدار، وجملة من الأدعية والآيات القرآنية تحث على رفع الظلم أو تدعو للسلطان بأعظم الثواب.

واختلفت المراسيم فيما بينها من حيث التركيب اللفظي للجمل. وهذا يتضح لقارئها بسهولة. وأهميتها عظيمة، إذ تقدم معلومات موثقة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية بمدينة فوه، وتوضح لنا بشكل جلي أهمية هذه المدينة في العصر المملوكي.







١ - المرسوم الأول

مكان الحفظ : مسجد القنائي على يمين المدخل الشمالي الشرقي.

الصدور : عن السلطان الظاهر برقوق.

التاريخ : ٧٨٦ هـ = ١٣٨٤ م.

المادة : رخام.

الحالة : جيدة.

موضوعه : إبطال جزء من ضريبة.

مقاساته : ٦٠ × ٢٧ سم.

نص المرسوم

«رسم بإبطال جماعة من الهلال[٨] بمدينة فوة السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين برقوق ابتغاء لوجه الله تعالى وطلب الثواب وذلك بتاريخ العشرين من شهر صفر عام سبعمائة وثمانين وستة».

المرسوم الثاني

مكان الحفظ : مدرسة حسن نصر الله على يسار المحراب الأيسر.

الصدور : عن السلطان الناصر فرج بن برقوق.

التاريخ : ٨٠٣ هـ = ١٤٠١ م.

المادة : حجر جيري.

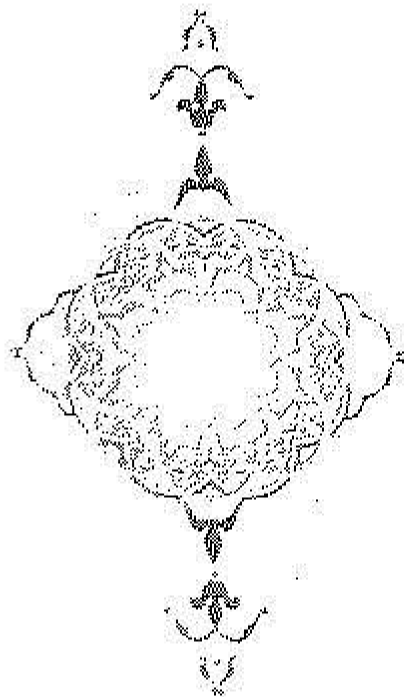
الحالة : جيدة.

موضوعه : إبطال مكس فوه.

مقاساته : ٥٠ × ٥٠ سم.

نص المرسوم

«بسم الله الرحمن الرحيم[وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان]. لما كان بتاريخ شهر شعبان لسنة ثلاث وثمان مايه برز المرسوم الشريف السلطاني الملكي الناصري فرج الله ملك الملك بأن يبطل مكس فوه بالمزاحمتين الحادي في الخاص إنما هو الشريف المقر عليهم بالأموال الديوانية[٩]



ابتـغـاء لوجـه الله تعـالى وإعـلان البـلاد الصـالحـة لهذه الدولة العـادلة خلد الله ملك مالكها».

المرسوم الثالث

مكان الحفظ : مدرسة حسن نصر الله على يمين المحراب الأيسر.

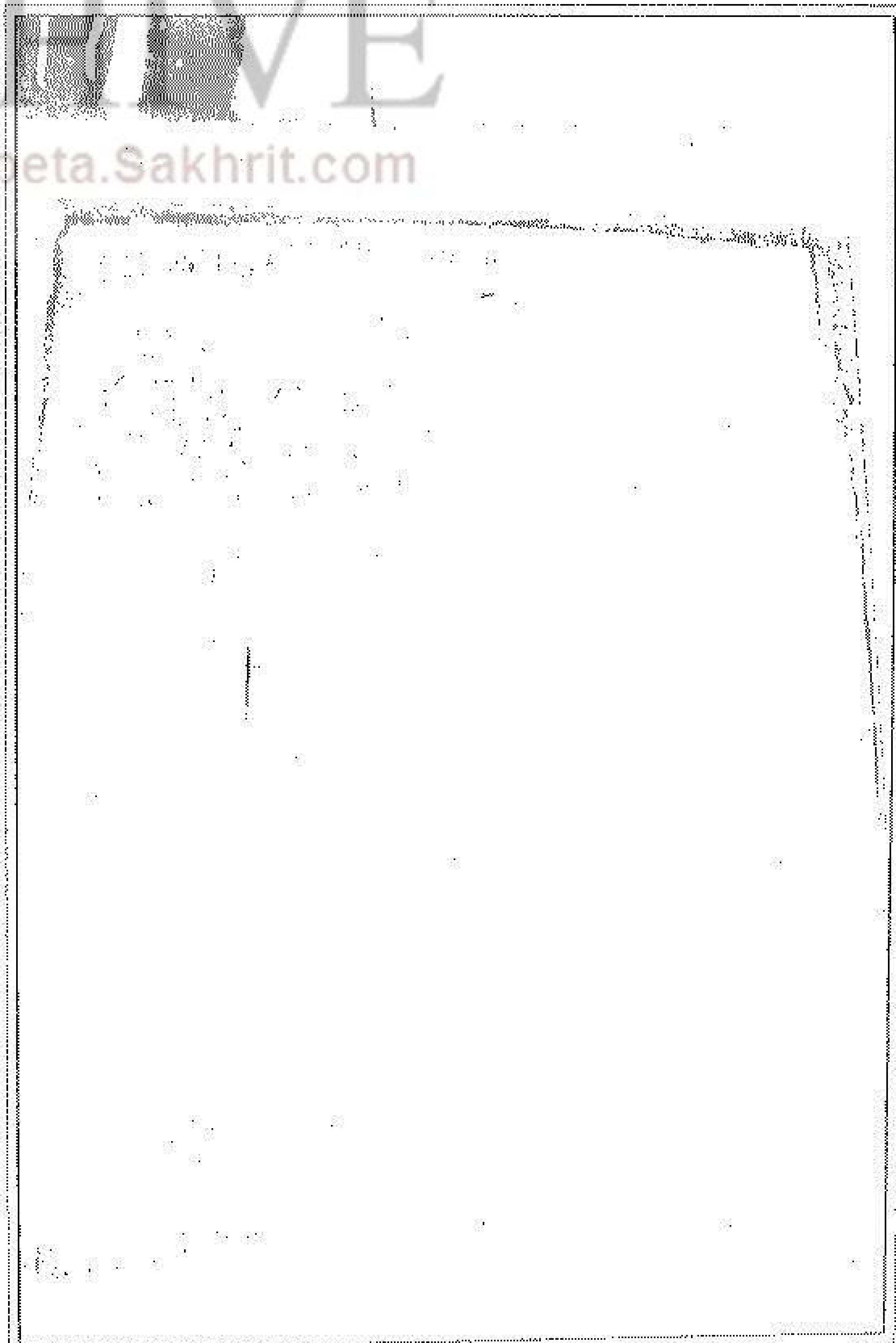
الصـدور : عن السلطان النـاصـر فـرج بن برقوق.

التاريخ : ٨٠٦ هـ = ١٤٠٣ م.

المادة : حجر جيري.

الحالة : سيئة جداً.

موضوعه : إعادة توزيع مكس فوه.



مقاساته : ٤٠ × ٥٤ سم.

نص المرسوم

«بتاريخ الحادي من رجب الفرد سنة [ست] وثمان مايه برز الأمر الشريف لعالي المولوي السلطاني الملكي الناصـري.. قـواعـد... للهلالية... وقطعه جميعه على قدر كماله على علم البلاد... على... العال... أن... ومن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم»(١٠).

المرسوم الرابع

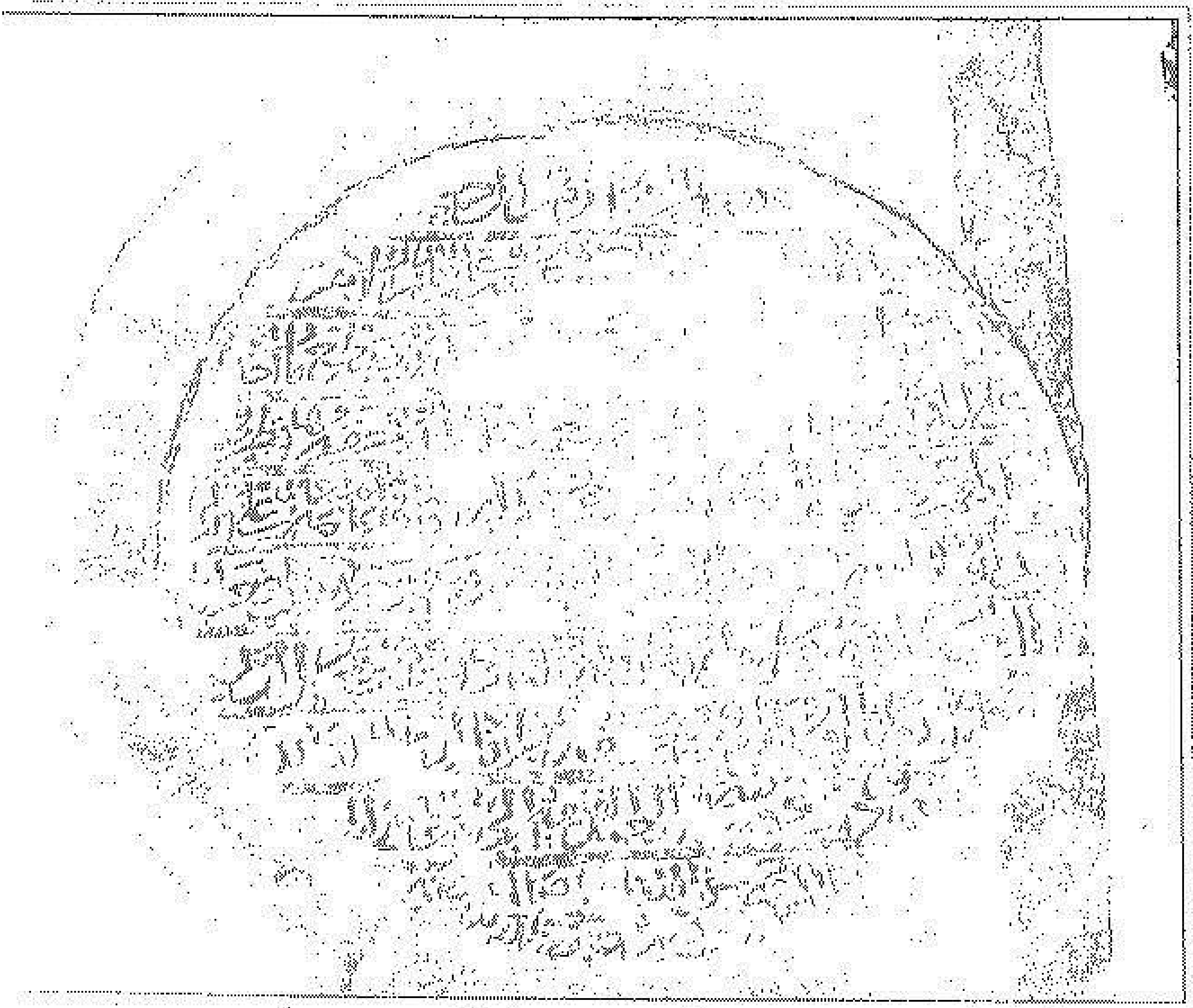
مكان الحفظ : على يسار المحراب الرئيسي بمدرسة حسن نصر الله.

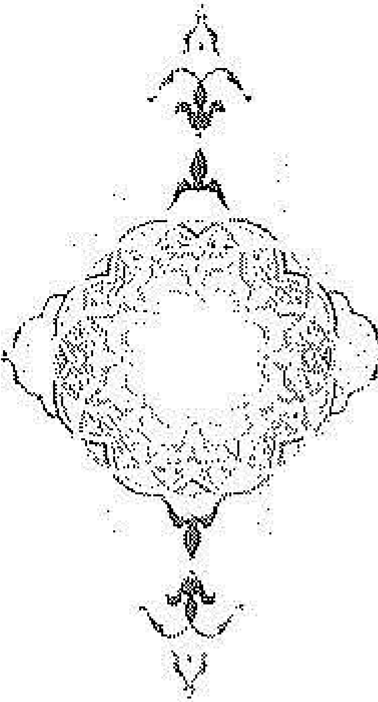
الصدور : عن السلطان المؤيد شيخ.

التاريخ : ٨١٦ هـ = ١٤١٣ م.

المادة : رخام.

الحالة : جيدة.





موضوعه : رفع ظلم عن المدولبين بقاعات السكر بفوه.

مقاساته : دائري قطره ٥٤ سم.

نص المرسوم

«بسم الله الرحمن الرحيم.

لما كان بتاريخ رسمي لعام ستة عشر وثمان مايه برز الأمر الشريف السلطاني الملكي المؤيدي خلد الله ملكه أن يقطع ما أخذ على المدولبين[١١] بقاعات[١٢] السكر[١٣] بفوه جميعها جليلها وحقيرها نظراً في حالهم على حكم المرسوم الشريف ومن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم. ومن يحد به أو يجدده بعد ذلك فعليه اللعنة من الله ورسوله والملائكة والناس أجمعين يوم الدين. وكان أمر إبطال ذلك في صحيفة مولانا السلطان خلد الله ملكه وذلك فيما بيّنه لنا العبد الفقير إلى الله تعالى المقدم حسن بن نصر الله[١٤] ناصر الحق الشريف».

المرسوم الخامس

مكان الحفظ : قبة أبي النجاة.

الصدور : عن السلطان الأشرف برسباي.

التاريخ : ٨٣٥ هـ = ١٤٣١ م.

المادة : رخام.

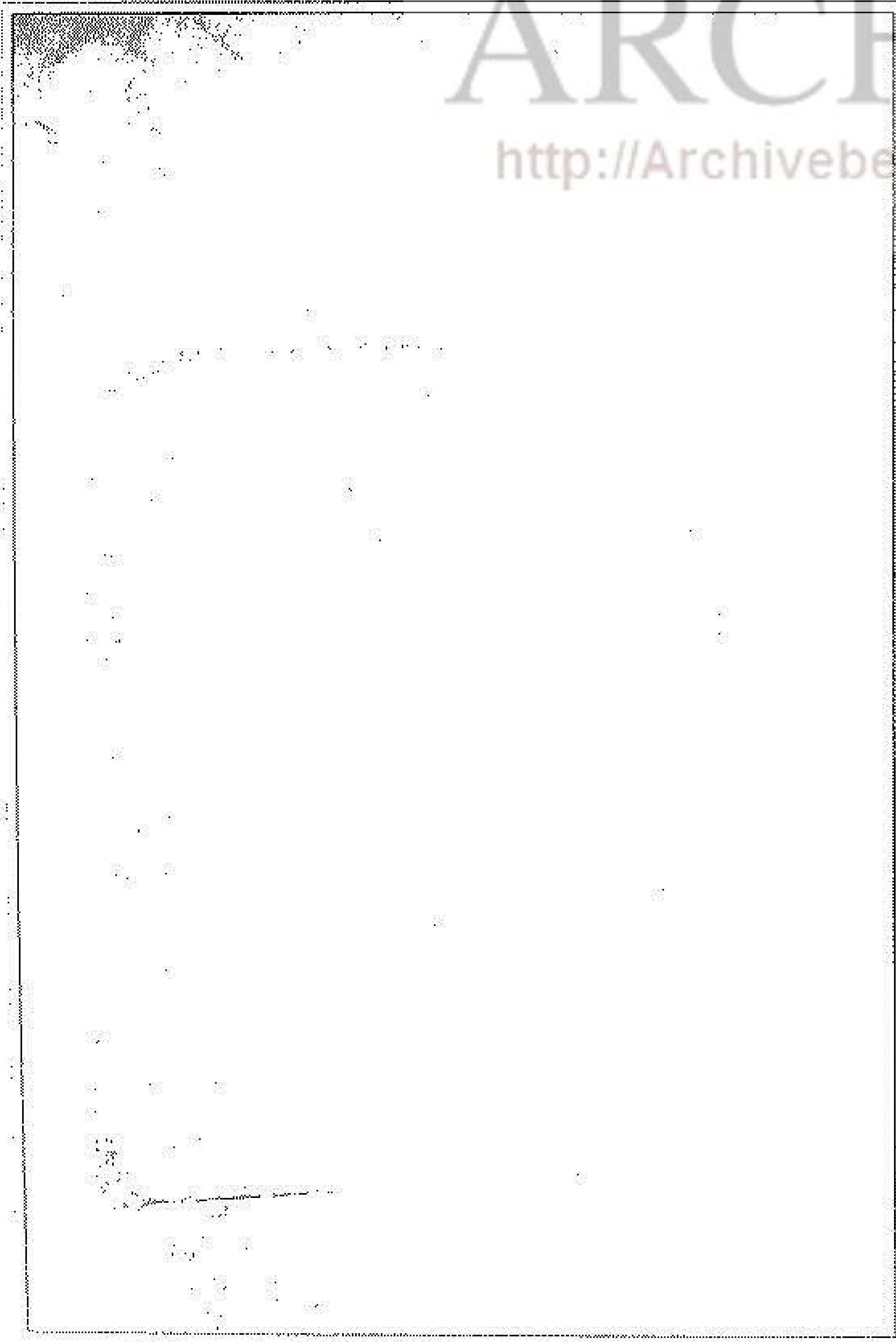
الحالة : سيئة جداً.

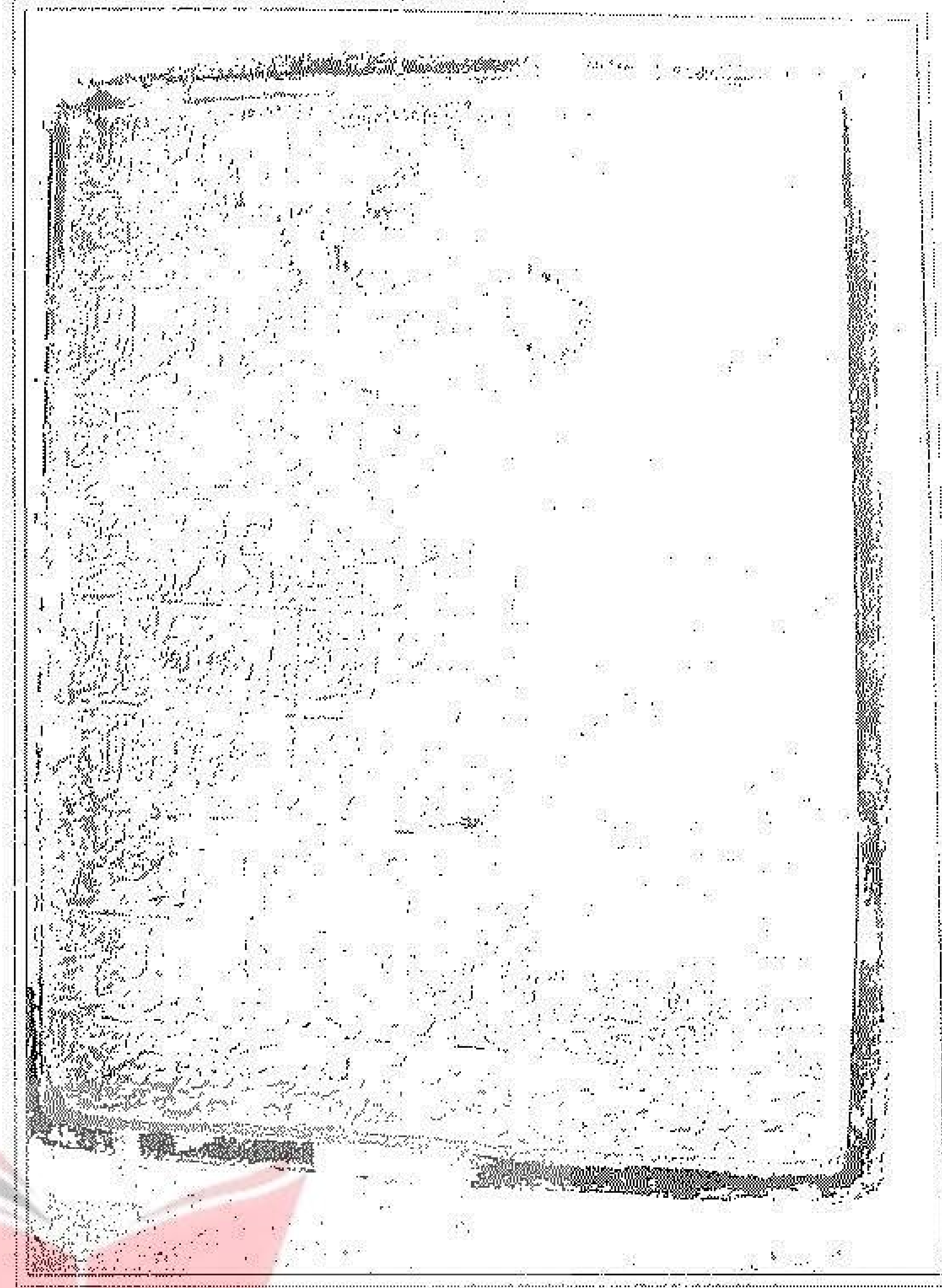
موضوعه : رفع الضرائب المقررة على مجموعة من السلع بفوه.

مقاساته : ٥٨ × ٤٠ سم.

نص المرسوم

«بسم الله الرحمن الرحيم برسم المرسوم العالي المولوي السلطاني الملكي الأشرفي[١٥] السيفي علاه الله تعالى وشرفه وأنفذه في الآفاق وصرفه أن يبطل موجب الغلال والأرز والسمسم[١٦] بوارده على ظهور المراكب إلى ساحات مدينة فوه[١٧] والزكاة بالجاري في الديوان الخاص الشريف شرفه الله تعالى... السادة (النقر) إلى.... في شهر صفر سنة خمسة وثلاثين و[ثمان مايه].





المرسوم السادس

مكان الحفظ : على يسار المحراب الرئيسي بمسجد القنائي.

الصدور : عن السلطان الغوري.

التاريخ : ٩١٩ هـ = ١٥١٣ م.

المادة : رخام.

الحالة : سيئة جداً، قطعت حروف منه وأصبحت كلمات كثيرة مبهمة.

موضوعه : رفع عدد كبير من المظالم عن أهالي فوه.

مقاساته : ١٠٠ × ٧٥ سم.

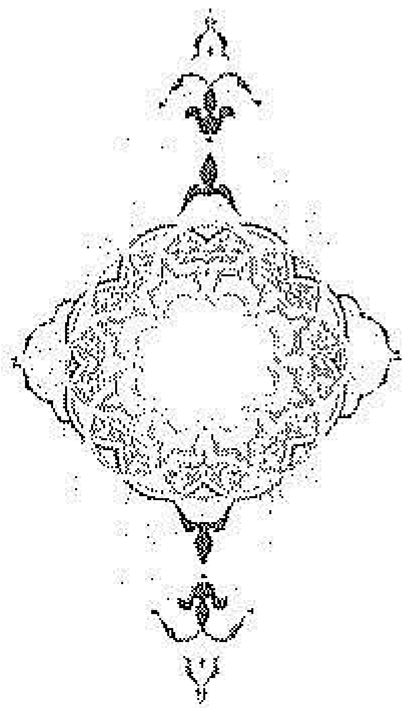
نص المرسوم

«بسم الله الرحمن الرحيم إن الله لا يريد ظلماً للعباد. ويرسم المرسوم السلطاني المالك الملكي أبو النصر قانصوه الغوري خلد الله ملكه أن يبطل جميع حد عليهم بمدينة فوه.. هو الحد إليه كان... وغيره... ليقرىء على قطانه.. إقطاعات الطواحين من الغلال..... وإن لامه على عصر الغلال.... صرف معاصر الحار..... والقناين..... والحمص المضاف على العطارين وصرف مغرم غير وإن.... على الحق المبين القرآني وغير أضعاف غيرهم.... في أعلى.... من إملال غيرها ولا..... على الرياف الخلق اعلا.... قط.... لا..... الله تعالى.... في على الطحانين... ولا يؤخذ الحق من العبيد ولا يؤخذ من الخبازين..... ولا يؤخذ من العطارين ولا..... ولا يبيع لهم..... يتولى ما غير.... لأهله.... وبالتعاون مع المقدم أحمد.

أقام ..... الله بحمد..... من شهر جمادى الأولى سنة تسعة عشر وتسعمائة»[١٨].

الحواشي

١ – عزب، خالد، فوة مدينة المساجد، ص ١١ – ١٢.
٢ – القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١١:١٠٧.
٣ – من المحتمل أن تكون المراسيم ثمانية نظراً لوجود لوح رخام خلف كشك خشبي مقام على حائط مسجد سيدي موسى.
٤ – طرخان، إبراهيم، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص ١٤٥ – ١٤٦.
٥ – ابن الجيعان، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، ص ١٣٧.



٦ - عزب، خالد، مرجع سابق.

7 - Sauvaget, décrets mamlouks de syrie, Beo, 11, 111, * II.
Sobernheim, mate'riaux pour un corpus inscription arabicarm, Syrie du nord.

٨ - عرفت المكوس بالمال الهلالي، وهي عدة أبواب تصرّف فيها ولاة السوء شيئاً فشيئاً، وأول من أحدث مالاً في مصر سوى مال الخراج هو أحمد بن محمد بن المدبر لما ولي خراجها سنة ٢٥٠ هـ. فإنه كان من دهاة الناس وشياطين الكتاب، فابتدع في مصر بدعاً صارت مستمرة من بعده لا تنقص، وحينئذ انقسم مال مصر إلى قسمين: خراجي وهلالي. فالخراجي ما يؤخذ مسانهةً من الأرض التي تزرع حبوباً، ومن غير الخراجي الأرض التي تزرع نخلاً وعنباً وفاكهة، وما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج وغيره من طرائف الريف، وكثر هذا في العهد المملوكي بصفة خاصة، وعرف المال الهلالي في زمن ابن المدبر وما بعده بالمرافق والمعاون، فلما ولي أبو العباس أحمد بن طولون إمارة مصر وأضاف إليه الخليفة المعتمد على الله الخراج والثغور الشامية رغب وتنزه عن أدناس المعاون والمرافق، وكتب بإسقاطها. ثم أعيدت الأموال الهلالية في أثناء الدولة الفاطمية وصارت تعرف بالمكوس. فلما تولى صلاح الدين الأيوبي حكم مصر أمر بإسقاط مكوس مصر والقاهرة، وكان جملة ذلك في كل سنة مائة ألف دينار. فلما ولي السلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين أعادها وزاد في شناعتها. على أن المكوس ظلت معروفة بهذا الاسم خلال عصر المماليك وتنوعت أبوابها.

والمال الهلالي مال يستأدى مشاهرة كأجر الأملاك المسقفة من الآدر والحوانيت والحمامات والأفران والطواحين وعداد الغنم. وعد بعض الكتاب أحكار البيوت وريع البساتين التي تستخرج أجرها مشاهرة ومصايد السمك ومعاصر الشيرج والزيت في المال الهلالي. وأبطل الظاهر برقوق جزءاً من هذا المال المقرر على فوه بموجب المرسوم السابق. وله أيضاً مرسوم مماثل في مسجد زغلول بمدينة رشيد وكلماته غير واضحة، يرجع لسنة ٧٨٥ هـ = ١٣٨٣ م(انظر النجوم الزاهرة، ٢:٤٣، والمواعظ والاعتبار، ١:١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ونظم الحكم بمصر، ص ٢١٩، والنظم الإقطاعية، ص ٥٠٩).

٩ - لقد كان للسلطان في الدولة المملوكية إقطاع باسم «الخاص السلطاني» أو «بلاد الخاص» أو «الخاص الشريف». والعادة أن يختار السلطان لنفسه ما شاء من الأراضي الجيدة أو القريبة، ومن المكوس المربحة والجوالي وغيرها من أبواب الإيراد الوفيرة، سواء في ذلك العقار الثابت أم المال المنقول والخاص السلطاني غير الأملاك الشريفة السلطانية، فالخاص هو الإقطاع الذي يحوزه السلطان بوصفه سلطاناً، ويقدر عادة بأربعة قراريط من خراج البلاد المقدر بأربعة وعشرين قيراطاً، أي بمقدار السدس، وإن لم تطرد هذه القاعدة، على ألا يملك السلطان رقبة هذا الخاص، وإنما يملك حق الانتفاع به واستغلاله لحسابه ما دام سلطاناً، لذا فهو ينتقل عنه بزوال السلطنة، أما الأملاك الشريفة فهي التي اشتراها بماله من مالك آخر أو من بيت المال، فصارت بذلك ملكاً حراً، له جميع وسائل التصرف فيه، وقد توزع الخاص السلطاني في الأقاليم المختلفة داخل مصر وخارجها، وكان منها فوه بالمزاحمتين. وهذا المرسوم يبطل الأموال (المكوس) المقررة للديوان، الخاصة بفوه (انظر التحفة السنية، ص ١٣٧، والنظم الإقطاعية، ص ١٤٥، ١٤٦).

١٠ - هذا المرسوم خاص بإعادة توزيع مكس فوه على البلاد، وكان السلطان الناصر فرج بن برقوق قد ألغاه عام ٨٠٣هـ. ويبدو أنه أعيد بعد ذلك. وهنا يصدر السلطان أمراً آخر بإعادة النظر في هذا المكس بتوزيعه على بلاد أخرى بالإضافة إلى فوه، وهذا يرفع جزءاً من الظلم الواقع على مدينة فوه.

١١ - المدولبين : جمع مدولب وهو العامل الذي يقف على دولاب الصناعة.

١٢ - قاعات : يطلق في مدينة فوة على أي مكان تتم فيه صناعة أي شيء قاعة. بينما كان يطلق عليها في القاهرة مطابخ السكر.

١٣ - السكر : اشتهر ريف فوه في العصر المملوكي بزراعة قصب السكر

١٤ - هو حسن بن نصر الله أحد أبناء فوه تولى الوزارة ونظر ديوان الخاص في دولة المؤيد شيخ، ولما كان من عادة أهل ريف مصر أن يقوم ذوو الجاه والسلطان بالعاصمة المصرية من أبنائهم بحل مشاكلهم إلى يومنا هذا ورفع المظالم عنهم فقد لجأ أهل فوه إلى ابن بلدتهم حسن نصر الله لحل تلك المشكلة، وقد قام بعرضها على السلطان، فأمر الأخير برفع الظلم عنهم(انظر الضوء اللامع، ١:١٣٠).

١٥ - الأشرفي نسبه إلى السلطان الأشرف برسباي.

١٦ - موجب الغلال والأرز والسمسم أي مكس الغلال. (إبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص ٧٨).

١٧ - مازال متبقياً بمدينة فوه إحدى ساحات الغلال.

١٨ - درج سلاطين المماليك حين تتعرض البلاد لخطر ما مثل الأوبئة - كما حدث في عصر الغوري لمّا انتشر الطاعون في مصر - على رفع المظالم، وكان من جملة ما أبطله السلطان الغوري عدة مكوس بفوه، وقد قدم لنا هذا المرسوم عدداً من طوائف الحرفيين بفوه كالعطارين والطحانين والخبازين، وكانت المدينة قد أصيبت بتدهور اقتصادي في أواخر العصر المملوكي. وعلى أي حال فمعظم هذه الأوامر السلطانية سرعان ما يزول مفعولها، ويعود الحال لما كان عليه من ذي قبل(انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٤: ٣٢٠).

**

(*) قال ياقوت : فوّه بليدة على شاطىء النيل قرب رشيد بينها وبين البحر نحو خمسة فراسخ أو ستة وهي ذات أسواق ونخل كثير (معجم البلدان . مادة : فوه).

المصادر والمراجع

ابن إياس . بدائع الزهور في وقائع الدهور . تـ محمد مصطفى . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

ابن تغري بردي . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . القاهرة : دار الكتب المصرية، ١٩٣٠ . ١١ج.

ابن الجيعان . التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية . القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧٤.

السخاوي . الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . القاهرة : مكتبة القدسي، ١٩٣٤ . ١٢ ج.

طرخان، إبراهيم . النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى . القاهرة : دار الكاتب العربي، ١٩٦٨.

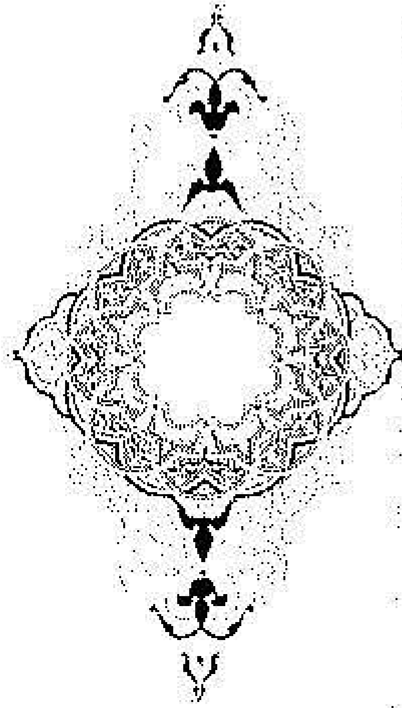
عزب، خالد . فوه مدينة المساجد . القاهرة : مؤسسة الأهرام، ١٩٨٩.

القلقشندي . صبح الأعشى في صناعة الإنشا . القاهرة : دار الكتب الخديوية، ١٩١٣.

مشرفة، عطية مصطفى . نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين . القاهرة : دار الفكر العربي، ١٩٤٨.

المقريزي . المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار . القاهرة : مكتبة أحمد علي المليجي الكتبي، ١٩٠٦.

- Sauvaget, Decrets mamlouks de Syrie, Beo, 11, 111, XII.
- Sobernheim, matériaux Pour un Corpus inscription arabicarm, Syrie du nord.



مقالات

المراصد الفلكية الإسلامية

علامة في تاريخ الفلك

الأستاذ عبد الأمير المؤمن - قم

بإطلاق المرصد الفلكي الطائر (تلسكوب هابل) إلى الفضاء عام ١٩٩٠، يكون علم الفلك قد حقق إنجازاً فلكياً فريداً في التاريخ العلمي كله. فهذا التلسكوب الطائر المتحرر من جو الأرض يشكل مرصداً حقيقياً كاملاً يستطيع أن يرى بدقة، تبلغ نسبتها من خمس مرات إلى عشر أكبر من أي تلسكوب أرضي آخر مهما بلغت دقته(١).

وإذا عرفنا أن علم الفلك في هذا القرن، بتلسكوباته الضوئية والراديوية وتطوراتها المختلفة، قدّم أكثر بكثير مما قدمه علم الفلك كله قبل هذا القرن. إذا عرفنا ذلك فسندرك مدى أهمية المراصد في علم الفلك.

لكن هذا التطور المرصدي لم يبدأ من نقطة الصفر، وإنما هو نهاية - وإن كانت نسبية - لسلسلة طويلة ابتدأت من يوم رفع ذلك الإنسان البدائي بصره متطلعاً إلى سماء، كلها إثارة وحركات ومفاجآت. وإذا تجاوزنا تفاصيل التاريخ الفلكي الطويل، قبل العصر الحديث، ووقفنا أمام محطّات أساسية في هذا التاريخ فسنكون أمام مراحل فلكية محددة:

١ - مرحلة الحضارات القديمة.

٢ - مرحلة الحضارة اليونانية.

٣ - مرحلة الحضارة العربية الإسلامية.

ولا شك أن لكل مرحلة فلكية ميزاتها الخاصة بها. ومن الطبيعي أن تكون المرحلة التالية أكثر تطوراً من المرحلة السابقة. لكن الذي حصل مع مرحلة الفلك في الحضارة الإسلامية أنه تجاوز سنة التطور التاريخي العادي. وحدثت طفرة أو نقلة نوعية ميّزت هذا الفلك من سائر الفلك القديم.

فقد بنى الفلك في الحضارة العربية الإسلامية - بشكل أساسي - بناءه على الأرصاد والملاحظات والعيون المباشرة والعقول الواعية من خلال ميدان أو ساحة علمية اسمها المرصد (Observatory).

وانتشرت هذه المراصد الفلكية في طول العالم الإسلامي وعرضه، في دمشق، وبغداد، والقاهرة، وأصفهان، وسمرقند، ومراغه وغيرها، مقدمة أروع الإنجازات الفلكية في التاريخ قبل الحديث.

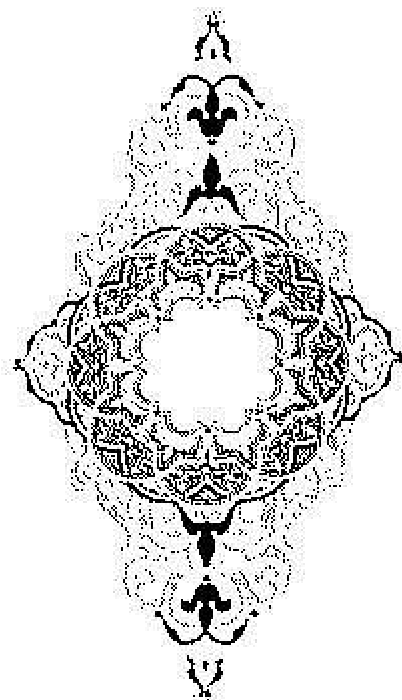
ما قبل المراصد الإسلامية

المرصد الفلكي - أساساً - مبنىً لرصد المعلومات الفلكية وتسجيلها. يحتوي عادة على أجهزة وأدوات مناسبة لرصد الأجرام السماوية والظواهر الفلكية المتنوعة ودراستها. وتختلف هذه الأجهزة والأدوات كماً وكيفاً من مرحلة إلى أخرى ومن مرصدٍ إلى آخر، حسب تطور ذلك المرصد.

وإذا تصوّرنا أن الإنسان البدائي كان يقف على تلةٍ أو مرتفعٍ مذهولاً بغرائب السماء متابعاً هذا النجم وتلك الظاهرة فذلك هو مرصده البدائي، إنْ صحَّ أن نسميه مرصداً. وبالطبع كانت تلك المتابعة بدائية ساذجة ذات أهداف محدودة جداً. إنها تصورات ميثولوجية تختفي بين ثناياها لمحاتٌ علمية. فكان ذلك الراصد يضيع بين الكواكب والنجوم ومعتقداته عن الأرواح والأشباح والآلهة والقوى الخفية وما شاكل ذلك.

لكن بظهور الحضارات القديمة الكبرى (المصرية، السومرية، البابلية، الصينية وغيرها) وظهور بدايات العلوم وتطور الملاحظات الفلكية المحدودة احتاج إنسان تلك الحضارات إلى ما يساعده على نموها وتطورها.

فاكتشف بعض الأدوات الفلكية البسيطة،



ووجد أنَّ رصد السماء من مكانٍ عالٍ خاص أفضل من رصدها من الأماكن المنخفضة والمغبرة، فحدَّد أماكن معيّنة، كالتلال وسطوح المعابد والأبراج، وما إلى ذلك.

وعلى الرغم من أن هدف الفلك في تلك الحضارات كان تنجيمياً، يسعى - في الدرجة الأولى - إلى كشف الطالع والتنبؤ بمستقبل الملك أو الدولة، أو كان لأغراض عملية كمعرفة المواسم والأوقات المناسبة للزرع مما يتعلق بحياة ذلك المجتمع إلا أنه حصل على أرصاد فلكية ممتازة، قدمت خدمة كبيرة لعلم الفلك. يقول جورج سارطون: «وبدأوا - يقصد البابليين - سلسلة طويلة من الأرصاد التي لولاها لاستحال تحقيق القواعد العامة الحديثة»[٢].

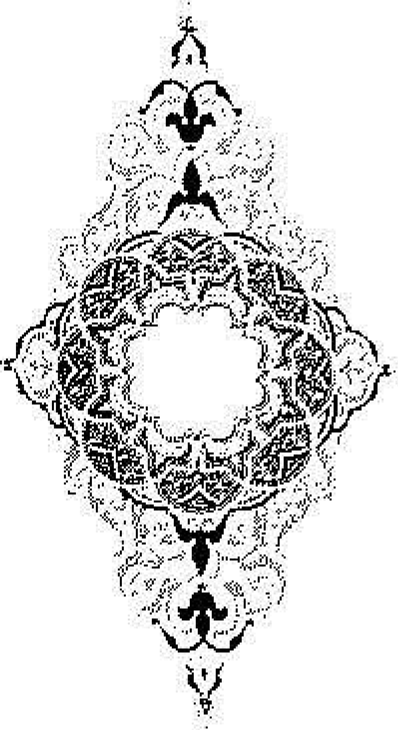
إن تلك الأرصاد لم تخرج من مراصد علمية متخصصة، إذ لم تساعد المرحلة الزمنية على ذلك. لكن لا شك أنها خرجت من أماكن مناسبة للرصد. ويمكن أن تكون الزقورات[٣] التي بنيت داخل المعابد إحدى تلك الأماكن. بل ويعتقد بعض الباحثين: «أنها كانت مراصد نموذجية»[٤] لجمع الأرصاد وخدمة الفلك والتنجيم والآلهة التي كانت الشعوب تعتقدها. ولعلَّ برجَ بابل هو أحدُ أنواع المراصد أيضاً. وهو برج يتألف من ثماني طبقات يمكن الوصول إليها عن طريق درج خاص، على حد تعبير هيرودوتس[٥].

ويذكر ول ديورانت أن هوانج وهو حاكم صيني قديم عاش قبل نحو ٤٥٠٠ سنة أقام مرصداً فلكياً لدراسة الكواكب والنجوم[٦].

أما في الحضارة اليونانية فقد تطوّر علم الفلك وبرز فلكيون شهيرون كهيبارخوس (في حدود القرن الثاني قبل الميلاد) وبطليموس القلوذي (في حدود القرن الثاني الميلادي). وإلى جانب ذلك عُرفت لدى اليونانيين مراصد شهيرة منها المرصد الذي أقامه هيبارخوس في رودس، وعمل فيه من سنة ١٦١ - ١٣٠ ق.م، وأجرى بحوثاً فلكية مهمة[٧]. أما الفلكي الشهير الآخر بطليموس فقد عاش في مدينة الإسكندرية بمصر، ورصد في مرصدها الشهير الملحق بمتحف الإسكندرية[٨] أعظم المراصد الفلكية قبل الإسلام. وقد بلغ القمة في عهد بطليموس. وظل المرصد الإسكندري وحيداً في العالم حتى نهض العرب وأنشأوا المراصد في بغداد ودمشق ومصر وغيرها[٩].

الإسلام يوجّه الفلك

جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم وانتشرت تعاليم الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم فانبثقت حضارةٌ من نوعٍ جديد، حضارة اختلفت عن جميع الحضارات القديمة السابقة، اهتمت بالإنسان والعلم والمنهج الصحيح في دراسة الأشياء، خاطبت في الدرجة الأولى عقل الإنسان منبّهة إياه إلى أنَّ هذا الكون الذي نعيش فيه مليءٌ بالأسرار



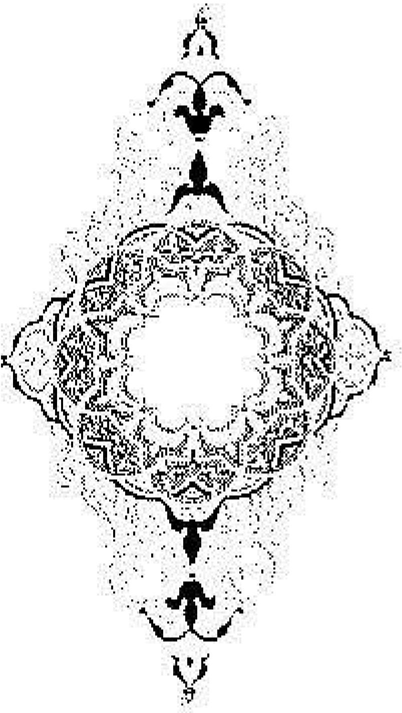
والظواهر المتنوعة والمثيرات، وعليك اكتشافها وحل ألغازها. وَجِّهْ عيونك إلى الأرض: {قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق}[١٠]. وجِّه عيونك نحو السماء: {قل انظروا ماذا في السموات والأرض}[١١]. تفكَّر في مخلوقات الله: {إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقِنا عذاب النار}[١٢] مؤكداً على الأدوات الأساسية في المعرفة: {وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون}[١٣]. ومحملاً الإنسان مسؤولية استخدامها: {إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا}[١٤].

وبغير هذه الآيات لا تستطيع استقاء معرفة صحيحة عن الطبيعة، لا تستطيع اكتشاف ما حولك من أشياء. وفي الوقت نفسه حَذَّره من المعرفة المشوشة غير العلمية، المستقاة من عقلية الآباء وخرافاتهم وأساطير الأولين. قال تعالى: {وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون}[١٥].

من هنا انتبه الإنسان المسلم، بل غير المسلم ممن عاش في أجواء الحضارة الإسلامية، انتبه إلى المنهج الصحيح في دراسة الأشياء، النظر والتعقل والاستنتاج. وأدرك أن سمعه وبصره وحواسه وعقله تستطيع اكتشاف أشياء كثيرة جداً، إذا استخدمت استخداماً صحيحاً. وبدأ يدرس الأشياء وفق المنهج الصحيح، فصوَّب عيونه نحو السماء، وراح يتابع ويستقرىء ويسجل مستعيناً بأدوات فلكية علمية مقدماً من خلالها إنجازات رائعة. وفي الوقت نفسه ابتعد عن خرافات القدماء وأساطيرهم، ونسبة ما يحدث على الأرض إلى الكواكب والنجوم والشمس والقمر والظواهر الكونية التي لا تسمع ولا تعقل، إلى أشياء لا حول لها ولا قوة، كما كان الشأن عند المصريين والبابليين والإغريق وغيرهم.

فلم يعد الاعتقاد بأثر الكواكب على الإنسان في مستقبله وتقرير مصيره مقبولاً في حسابات الشرع الإسلامي؛ فالغيب ومصائر الناس وحوادث الدنيا بيد الله تعالى لا يعلمها إلاّ هو، قال تعالى: {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو}[١٦]. وقال أيضاً: {قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلاّ الله}[١٧]. وهناك آيات مشابهة كثيرة.

لقد اتجه المسلمون إلى علم الفلك الحقيقي البعيد عن الخرافات والخزعبلات، بتوجيهٍ من آيات القرآن الكريم التي تحثُّ على النظر إلى السماء، وبتشويقٍ من الآيات الكثيرة التي تتحدث عن السماء وأجرامها وظواهرها أمثال قوله تعالى: {والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في



فلك يسبحون﴾[18].

إنها إثارات حقيقية للفرد المسلم المتطلّع إلى بناء حضارة متكاملة. إضافة إلى احتياجه مادة علمية فلكية صحيحة، وقياسات فلكية مضبوطة لغرض أداء بعض الواجبات الشرعية المرتبطة ببعض الظواهر الفلكية كالشمس والقمر والكسوف والخسوف أداءً صحيحاً ودقيقاً. فالصلاة فريضة تتكرر أكثر من مرة في اليوم الواحد، وترتبط ارتباطاً مباشراً بطلوع الشمس وغروبها، وتختلف أوقاتها من بلد إلى آخر ومن يوم إلى يوم. وعلى هذا يجب أن يعرف المسلم عرض البلد الجغرافي وحركة الشمس في فلك البروج وأحوال الشفق الأساسية. وليس هذا كافياً فالمصلي يجب أن يتجه إلى القبلة في مكة المكرمة، وهذا يستلزم أن يعرف سمت القبلة، ولا يتم ذلك إلا بحل مسألة من مسائل علم الهيئة الكروي مبنية على حساب المثلثات[19]. وقد أكد هذا المعنى المستشرق الإيطالي نالينو بقوله: «إن ارتباط بعض أحكام الشريعة بالمسائل الفلكية زاد المسلمين اهتماماً بمعرفة أمور السماء والكواكب»[20].

من هنا ندرك، كم كان الدافع قوياً لنمو علم الفلك وتطوره، وابتعاده عن التنجيم والخرافات القديمة والآلهة والخزعبلات التي آمنت بها الحضارات والشعوب القديمة قبل الإسلام.

وهذا لا يعني أن التنجيم والاعتقاد بتأثير السماء على الأرض وأهل الأرض اختفى تماماً في الحضارة الإسلامية. لقد بقي وله روّاده، لكنه في خط موازٍ لخط الفلك العلمي الرصدي. وإن كان موضع ريبة ورفض من قبل القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة وعلماء المسلمين[21].

إن الاتجاه الصحيح الذي أكدَّه القرآن والسنة في مجال علم الفلك استدعى استخدام أدواتٍ علميةٍ مناسبة وإجراءاتٍ عملية صحيحة. فكانت المراصد الفلكية في كل مكان الميدان الحقيقي لعلماء الفلك المسلمين ومن في ظلّهم، وكان معها أدواتها وأجهزتها وآلاتها المختلفة. وكانت النتائج رائعة، مادةً فلكية علمية عالمية، سادت العصور الوسطى، وعثر عليها الغرب فترجم الكثير منها، وبنى فلكه على أعمدتها.

المراصد الأولى في الإسلام

وإذا تجاوزنا مرحلة الخليفة المنصور العباسي (- ١٥٨ هـ) التي بدأ فيها الفلك العربي الإسلامي بالنشوء والنمو من خلال اهتمام المنصور بالتنجيم ومتابعة هذه المادة وتكليفه الفلكي محمد بن إبراهيم الفزاري (- ١٨٠ هـ) بترجمة كتاب «السند هند» الذي جاء به عالم رياضي ضمن وفد الهند[22] باعتبار أن السمة المميزة لهذه الفترة الروح التنجيمية وعدم تطور الأرصاد الفلكية. إذا

تجاوزنا هذه المرحلة إلى عصر المأمون العباسي (- ٢١٨ هـ) فسنكون أمام مرحلة علمية من أزهى عصور العلم في الحضارة الإسلامية.

وفي هذا العهد نما علم الفلك وتطوّر، بل تأسس الفلك العلمي الحقيقي ونحا منحىً علمياً رصدياً، أذهلت إنجازاته القرون الوسطى كلها. فحين تقرأ المصادر التي أرخت الإنجازات العلمية لعصر المأمون تجد أول مرة في التاريخ أرصاداً جمّة وعلماء رصاداً حقيقيين، وأزياجاً (جداول فلكية) جمة أيضاً. وما ذلك إلاّ بسبب ربط علم الفلك بالأدوات الفلكية العلمية والمراصد وساحات الرصد. إن حالة الرصد هذه جاءت جديدة لم تكن معروفة بهذا التوسع وتلك الكثافة.

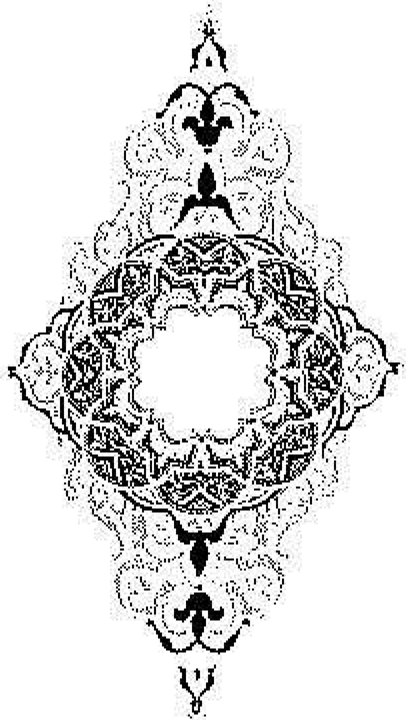
ويذكر لنا التاريخ العلمي أن أول المراصد في الحضارة الإسلامية كانت زمن المأمون، فيذكر القفطي أن الرصد حصل سنة ٢١٥ و٢١٦ و٢١٧. أي في أواخر حياة المأمون. فقد أمر هذا الخليفة جماعة من الفلكيين الرصّاد أن يرصدوا الكواكب ويصلحوا الآلات الفلكية في منطقة الشماسية ببغداد وجبل قاسيون بدمشق[٢٣].

وكان الدافع لهذا الاتجاه هو وقوف المأمون على ما جاء في كتاب المجسطي للعالم الفلكي بطليموس من معلومات فلكية مغرية. فتقدم إلى العلماء الرياضيين والفلكيين ليقوموا برصدِ الكواكب ويختبروا حقيقةَ ما جاء فيه.

وفي هذا الصدد يقول حاج خليفة: «لما أفضت الخلافة إلى عبد الله المأمون بن الرشيد العباسي وطمحت نفسه الفاضلة إلى درك الحكمة وسمت همته الشريفة إلى الإشراف على علوم الفلسفة ووقف العلماء في وقته على كتاب المجسطي وفهموا صورة آلات الرصد الموصوفة فيه بعثه شرفه وحداه نبله على أن جمع علماء عصره من أقطار مملكته وأمرهم أن يصنعوا مثل تلك الآلات وأن يقيسوا بها الكواكب ويتعرفوا أحوالها بها كما صنعه بطليموس ومن كان قبله، ففعلوا ذلك، وتولوا الرصد بها بمدينة الشماسية وبلاد دمشق من أرض الشام»[٢٤].

هذان هما المرصدان الأولان في الإسلام، كما يبدو، ولا نعرف مراصد إسلامية قبلهما. وإذ لا آثار باقية لهما في الوقت الحاضر ولا تفاصيل عنهما فنحن نجهل طبيعتهما وشكل بنائهما وحجميهما ومساحتيهما وتفاصيل الآلات المستخدمة فيهما.

ثم إن هناك عدداً من الباحثين[٢٥] ذكروا مرصداً آخر ملحقاً ببيت الحكمة[٢٦] فهل كان للمأمون في بغداد مرصدان، مرصد الشماسية (المذكور في المصادر) والمرصد الملحق ببيت الحكمة ببغداد (غير المذكور في المصادر)، أم أن المرصد الملحق ببيت الحكمة هو نفسه مرصد الشماسية ببغداد، وليس ملاصقاً لبيت الحكمة، البيت الذي نجهل مكانه في خارطة بغداد؟



المصادر التي ذكرت بيت الحكمة والرصد الفلكي لم تسعفنا بمعلومات وافية عن مرصد المأمون أو مراصده. لكن يمكن القول هنا: إن هناك مرصداً مهماً واحداً في بغداد هو مرصد الشماسية الذي ذكره القفطي عدة مرات، رصد فيه فلكيو بيت الحكمة أمثال يحيى بن أبي منصور وخالد بن عبد الملك وعلي بن عيسى الإسطرلابي والعباس الجوهري وغيرهم. ولا يستبعد أن تكون هناك أماكن أخرى للرصد تساعد ذلك المرصد.

أما وجود أكثر من مرصد مأموني في بغداد فبعيد، لأن المأمون اهتم بإنشاء المراصد في أواخر حياته. ففي ترجمة يحيى بن أبي منصور ورد أنَّ مرصدي الشماسية وقاسيون أُنشِئا في أعوام ٢١٥ و٢١٦ و٢١٧. أي قبل وفاة المأمون بقليل - كما ذكرنا - ويؤيد ذلك أن أرصاد أولئك الرصاد «أول أرصاد كانت في مملكة الإسلام»[٢٧] على حد تعبير صاعد الأندلسي.

المراصد الإسلامية تنتشر وتتطور

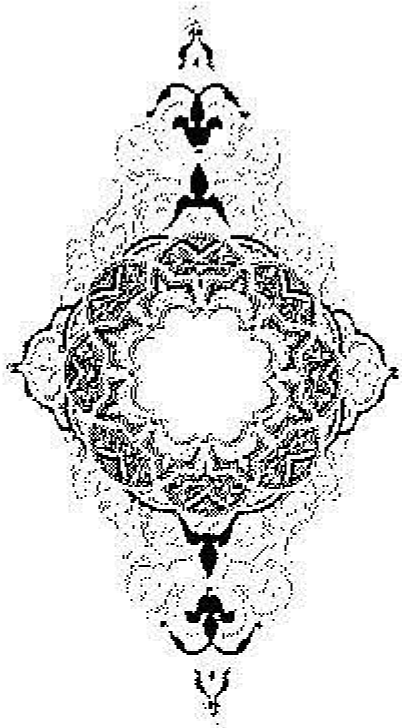
المرصدُ المأموني أو المراصد المأمونية، وإنجازاتها الرصدية الكثيرة والجيل الجديد من الرصّاد الذي أفرزته مؤسسة بيت الحكمة والجو العلمي الجديد فتحت آفاقاً رصدية لم تكن معروفة من قبل؛ فإن كان الفلك اليوناني، وهو خلاصة الفلك القديم كله، والمتمثل بأفكار هيبارخوس وبطليموس بشكل أساسي، والمتأثر بأجواء أفلاطون المثالي وأرسطو والتجريد اليوناني بعد أن كان عقلياً رياضياً لم يهتم كثيراً بالأرصاد والواقع المنظور، فتحوّل بفعل الحالة الإسلامية الجديدة إلى نوع آخر، إلى فلك علمي رصدي يخرج من قلب المرصد. قال غوستاف لوبون: «قال دلانبر في كتاب تاريخ علم الفلك: إذا استطعت أن تعدّ بين الإغريق راصدين أو ثلاثة رأيت بين العرب عدداً كبيراً من الرصاد»[٢٨].

ويعني هذا شيوع المراصد وانتشارها في أرجاء العالم الإسلامي. وقد تبع هذا الشيوع والانتشار تطوّرها وتعدد وظائفها وإنجازاتها المتنوعة. ويمكننا هنا إيراد بعض الشواهد على تطور المراصد.

- لقد اختار المأمون مرصده الآخر (غير مرصد الشماسية ببغداد) على جبل قاسيون بدمشق. وهذا الاختيار - دون شك - جاء بعد دراسة الموقع المناسب للرصد، قدمها له أهل الخبرة على الأكثر.

- ومثل ذلك، اختيار مرصد مراغه الشهير، الذي بُني على تلٍ محدد من المدينة. يذكر العالم الفلكي مؤيد الدين العرضي (- ٦٦٤ هـ) أحد علماء المرصد في كتابه «كيفية الأرصاد»: «فليذكر الآن الآلات التي عملناها بالرصد المحروس بمدينة مراغه على التل الذي بالجانب الغربي منها بالقرب من المدينة»[٢٩].

- وحين أراد المأمون البطائحي بناء مرصده



نحو سنة ٥١٦ هـ طلب ذلك على وفق مواصفات خاصة. ومن بين تلك المواصفات نقاوة الهواء وصفاؤه. فقد ورد أن اللحم عُلق بالقاهرة فتغيّر بعد يوم وليلة وعلق بقلعة الجبل فتغيّر بعد يومين، وعلق في موضع الرصد فلم يتغير ثلاثة أيام ولياليها لطيب هوائه[٣٠] وهذا شاهد على مدى دقة الطريقة الصحيحة في اختيار مكان الرصد.

– وتتحدث المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه عن مرصد سامراء فتقول: «في مرصد سامراء كانت آلة ذات شكل دائري تحمل صور النجوم ورموز الحيوانات في وسطها، تديرها قوة مائية. وكان كلما غاب نجم في السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها في الآلة. وإذا ما ظهر نجم في قبة السماء ظهرت في الخط الأفقي من الآلة[٣١].

هذه أمثلة قليلة لطبيعة المراصد في الحضارة الإسلامية وتطوّرها وتنوّعها، ويمكن ذكر المزيد منها. وهنا نذكر بعض المراصد التي سجلها تاريخنا العلمي:

١ – مرصد أبناء موسى بن شاكر القائم على قنطرة بغداد المؤدية إلى باب الطاق[٣٢].

٢ – مرصد بني الأعلم ببغداد سنة ٢٥٠ هجرية[٣٣].

٣ – المرصد الشرفي الذي أمر شرف الدولة ببنائه في دار المملكة في آخر البستان بالجانب الشرقي من مدينة بغداد في حدود سنة ٣٧٨ هجرية[٣٤].

٤ – مرصد أبي عبد الله البتاني الفلكي الشهير في الشام[٣٥].

٥ – مرصد ابن الشاطر العالم الفلكي في الشام[٣٦].

٦ – مرصد أبي حنيفة الدينوري في أصفهان[٣٧].

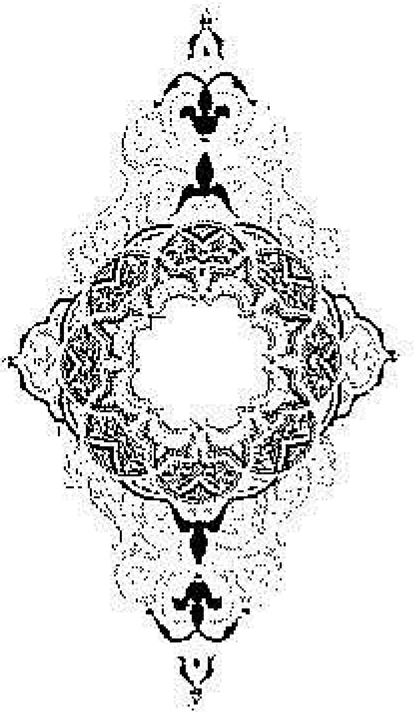
٧ – مرصد أبي الريحان البيروني[٣٨].

٨ – المرصد الحاكمي بمصر سنة ٢٥٠ هجرية[٣٩].

٩ – مرصد مراغه، بناه نصير الدين الطوسي سنة ٦٥٧ هجرية[٤٠].

١٠ – مرصد ألغ بك بسمرقند سنة ٨٢٣ هجرية[٤١].

هذه نماذجُ للمراصدِ الكثيرةِ المنتشرة في العالم الإسلامي نكتفي بذكرها. ولعلّ أشهرها وأكبرها هو مرصد مراغه في محافظة تبريز الإيرانية. وهو مرصد متطور قياساً إلى المراصد الإسلامية الأخرى. يقول من دخل المرصد «فرأيت فيه من آلات الرصد شيئاً كثيراً منها ذات الحلق، وهي خمس دوائر متخذة من نحاس، الأولى دائرة نصف النهار، وهي مركوزة على الأرض، ودائرة معدل النهار، ودائرة منطقة البروج، ودائرة العرض، ودائرة الميل. ورأيت الدائرة الشمسية يعرف بها سمت الكواكب وإسطرلاباً تكون سعة قطره ذراعاً وإسطرلابات كثيرة وكتباً



كثيرة»[٤٢]. وقد عمل في هذا المرصد عددٌ كبير من العلماء والفلكيين من مختلف أنحاء العالم[٤٣]. والجدير بالذكر أن أطلال هذا المرصد لا زالت باقية إلى الآن. فقد اكتشفت بقايا البرج المركزي منه، وفي الجنوب والجنوب الشرقي والشمال الشرقي للبرج المركزي. اكتشفت خمسة أقسام دائرية صممت لأغراض فلكية محددة. وهناك أقسامٌ مكتشفة أخرى[٤٤].

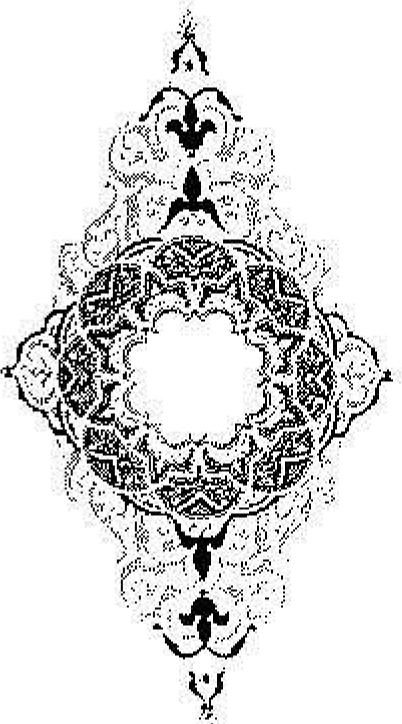
المراصد الإسلامية تفرز فلكاً علمياً

على الرغم من أن علم الفلك الإسلامي استند في بدايته ونشوئه إلى الفلك الأجنبي (وهو فلك نظري في الغالب) وخاصة الفلك اليوناني من خلال المجسطي لبطليموس، إلاّ أنه تميّز في طول تاريخه من الفلك القديم كله. وذلك بسبب النهج العلمي الجديد الذي سار فيه، وقدّم من خلاله إنجازاته. فلم يقف هذا الفلك عند حدود النظريات والأفكار المجردة التي ورثها عن اليونان، وإنما جاءت الإنجازات الفلكية هذه المرّة من خلال المراصد الفلكية الكثيرة المنتشرة في أنحاء العالم العربي والإسلامي والأدوات الفلكية المتنوعة التابعة لها، جاءت بشكل آخر يختلف عن إنجازات العالم القديم، جاءت علمية أفرزتها عيونٌ سهرت طويلاً في مراقبة السماء وأجرامها الكثيرة، لتسجّل نتائج المراقبة الطويلة على شكل جداول فلكية اسمها الأزياج، ومفردها زيج. والزيج - كما يقول الخوارزمي - «كتاب فيه يحسب سير الكواكب، ومنه يستخرج التقويم، أعني حساب الكواكب لسنة سنة»[٤٥]. وفي تاريخنا الفلكي شاعت الأزياج والأرقام الفلكية وانتشرت: فقد خلّف علماءُ الفلك زمن المأمون أزياجاً كثيرة جمعوا فيها نتائج أرصادهم، ويذكر المستشرق نالينو أنهم اشتركوا في تأليف زيج عُرف بالزيج الممتحن، وهو مبني على أرصادهم الممتحنة التي قاموا بها[٤٦].

ثم جاء فلكيون آخرون وقدّموا إنجازات أكثر تطوراً، وخلّفوا أزياجاً مهمة كثيرة، منها الزيج الصابي للبتّاني، الزيج الشامل للبوزجاني، الزيج الحاكمي لابن يونس، الزيج الإيلخاني للطوسي، زيج ابن الشاطر، زيج أُلغ بك وغيرها[٤٧]. ولا شك أن كثرة تلك الأزياج دليلٌ على سيادة الفلك العلمي والأرقام الفلكية.

وفي الوقت الذي شاعت فيه المراصد والأزياج الفلكية، شاعت تبعاً لذلك الآلات الفلكية المتنوعة. إذ تطلّب المرصدُ آلاتٍ تجعل منه وحدة عمل متكاملة. فإضافة إلى ما كان معروفاً من الآلات الفلكية القديمة كالإسطرلاب وذات الحلَق وغيرهما، طوّر الفلكيون المسلمون الآلات الفلكية القديمة، وابتكروا آلات رصدية جديدة لم تكن من قبل.

إن انتشار المراصد الفلكية بالشكل الذي ذكرنا وتطورها وكثرة الآلات الفلكية الرصدية



وتنوعها وكثرة الأزياج التي أفرزتها المراصد، وفَّر معلومات وإنجازات فلكية رائعة وجمّة. ومن تلك المعلومات والإنجازات:

– ما جاءت به أرصاد الفلكي الرياضي ثابت بن قره (– ٢٨٨ هـ). فقد قدّم هذا الفلكي «أرصاداً حساناً للشمس تولاها ببغداد، وجمعها في كتاب، بيّن فيه مذهبه في الشمس، وما أدركه بالرصد في موضع أوجها ومقدار سنيها وكمية حركاتها وصورة تعديلها»[٤٨].

– وابتدأ أبو عبد الله البتاني الفلكيّ (– ٣١٧ هـ) الرصد من سنة ٢٦٤ هـ إلى سنة ٣٠٦ هـ وأثبت الكواكب الثابتة في زيجه لسنة ٢٩٩[٤٩]. وحدد بدقة كبيرة ميل الدائرة الكسوفية وطول السنة المدارية والفصول، والمدار الحقيقي والمتوسط للشمس، وصحح جملةً من حركات القمر والكواكب السيارة، واستنبط نظريةً جديدةً تشفُّ عن كثير من الحذق وسعة الحيلة لبيان الأحوال التي يرى بها القمر عند ولادته، وضبط تقدير بطليموس لحركة المبادرة الاعتدالية. وله أرصاد جليلة اعتمد عليها دنثورن سنة ١٧٤٩ لتحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمان[٥٠].

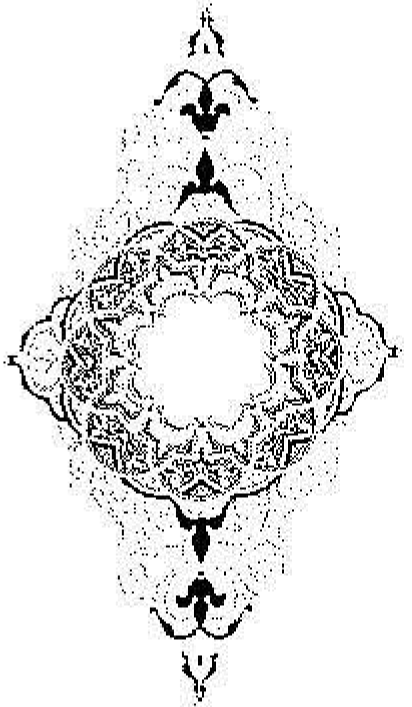
– وقد اعتمد عبد الرحمن الصوفي الفلكيّ (– ٣٧٦ هـ) على مشاهداته الشخصية في إثبات صور الكواكب مُصححاً بذلك كثيراً من مشاهدات السابقين. يقول في كتابه صور الكواكب: «أما أقدارها ومراتبها في العظم والصغر فعلى ما وجدناه بالعيان»[٥١].

هـ) – ورصد أبو سهل الكوهي الفلكيّ (– ٣٩٠ هـ)الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها في بروجها على مثل ما كان المأمون فعله في أيامه[٥٢].

– وسجل العالم الفلكي ابن يونس الصدفي المصري (– ٣٩٩ هـ) أرصاداً مهمة عن الكسوف والخسوف في زيجه الشهير. ويذكر أنه سجل كسوفاً وخسوفاً في القاهرة نحو سنة ٩٧٨ ميلادية وأثبت فيهما تزايد حركة القمر[٥٣].

وقام العالم الفلكي الأندلسي إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بالزرقالي (– ٤٩٠ هـ) برصد ٤٠٢ رصد لتعيين البعد الأبعد للشمس (الأوج). وقد أثبت أول مرة في التاريخ العلمي حركة أوج الشمس بالنسبة للنجوم[٥٤].

ورصد آخرون كثيرون، منهم البيروني، والطوسي، وابن الشاطر، وأُلغ بك وغيرهم ممن يطول ذكرهم. ومن كل ذلك قدموا أرصاداً وإنجازات فلكية كثيرة ورائعة أودعوها في الأزياج والمؤلفات الفلكية الأخرى. وكانت الحصيلة النهائية، فلكاً علمياً فاق كل الفلك القديم قبل العصر الحديث. ونستطيع أن نقول: لولا الروح العلمية التي حملها العرب والمسلمون والمراصد الكثيرة التي أسسوها وتطوير الآلات الفلكية على يد فلكيين مبدعين لبقي الفلك في سجن النظريات المجردة، ولما تطوّر وأصبح أساساً متيناً من أسس الفلك الحديث.■



الحواشي

١ - راجع في هذا الصدد مجلة افاق علمية، قبرص: ع ٢٦ ، تموز - أب ١٩٩٠، ومجلة الثقافة العالمية، الكويت: ع ٦٤، السنة ١١ مايو ١٩٩٤.

٢ - سارطون، جورج، تاريخ العلم، الترجمة العربية (القاهرة: دار المعارف) ١٧٤:١.

٣ - الزقورة : برج هرمي متعدد الطبقات، كان يعدّ في عصور بلاد ما بين النهرين القديمة بمثابة الصرح الديني النموذجي. راجع: عبودي، هنري، معجم الحضارات السامية (طرابلس: جروس برس) ص ٤٤١.

٤ - ساكز، هاري، عظمة بابل، ترجمة عامر سليمان (الموصل، ١٩٧٩) ص ٥٢٣.

٥ - عبودي، هنري، معجم الحضارات السامية، ص ١٩٢.

٦ - ديورانت، ول، قصة الحضارة (القاهرة : لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٥:٤.

٧ - هاملتون، السير جون، تاريخ العالم، الترجمة العربية (القاهرة : مكتبة النهضة المصرية) ٦٠:٤.

٨ - تاتون، رينيه، تاريخ العلوم العام، ترجمة علي مقلد (بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٨٨) ٣٠٦:١.

٩ - زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، مراجعة د. حسين مؤنس (القاهرة: دار الهلال) ٢١٢:٣.

١٠ - سورة العنكبوت: ٢٠.

١١ - سورة يونس: ١٠١.

١٢ - سورة آل عمران: ١٩٠ - ١٩١.

١٣ - سورة النحل: ٧٨.

١٤ - سورة الإسراء: ٣٦.

١٥ - سورة البقرة: ١٧٠.

١٦ - سورة الأنعام: ٥٩.

١٧ - سورة النمل: ٦٥.

١٨ - سورة يس: ٣٨، ٣٩، ٤٠.



١٩ - المؤمن، عبد الأمير، التراث الفلكي عند العرب والمسلمين وأثره في علم الفلك الحديث (حلب: معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب، ١٩٩٢) ص ١٠.

٢٠ - نالينو، كارلو، علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى (روما، ١٩١١) ص ٢٣١.

٢١ - راجع في هذا الصدد كتابنا: مكانة الفلك والتنجيم في تراثنا العلمي، الفصل الخامس (حضارتنا تؤكد الفلك وترفض التنجيم) ص ٢١٨ (المخطوطة).

٢٢ - الأندلسي، صاعد، طبقات الأمم، (القاهرة: مطبعة محمد محمد مطر) ص ٥٧.

٢٣ - القفطي، جمال الدين، أخبار الحكماء (بيروت: دار الآثار) ص ٢٣٤. وهو مختصر الزوزني المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء.

٢٤ - حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (بيروت: دار الفكر، ١٩٨٢) ٩٠٥:١.

٢٥ - أمثال بروكلمان في تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية (القاهرة: دار المعارف) ٢٠٢:١. وول ديورانت في قصة الحضارة، ١٧٧:١٣. وهناك آخرون كثيرون.

٢٦ - لم يرد ذكرٌ للمرصد الملحق ببيت الحكمة في المصادر القديمة - على ما يبدو - وقد أكدّ هذا المعنى أحمد أمين في (ضحى الإسلام) ٦٤:٢. ود. يوسف العش في كتابه دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، الطبعة العربية، ص ٧٣. وقد تتبعتُ عدداً من المصادر القديمة علّي أعثرُ على نصٍّ صريح عن وجود مرصد مُلحق ببيت الحكمة فلم أوفق. لكن نشاط علماء الفلك في هذا البيت والإنتاج الفلكي الغزير والأزياج العديدة، تساعد الباحث على إمكان وجوده.

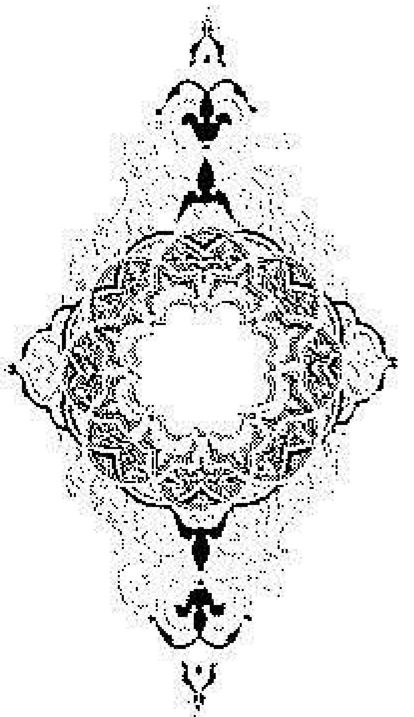
٢٧ - الأندلسي، صاعد، طبقات الأمم، ص ٥٨.

٢٨ - لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر (القاهرة : عيسى البابي الحلبي) ص ٥٢٩.

٢٩ - العرضي، مؤيد الدين، كيفية الأرصاد، ص ٣. مخطوط كتابخانة استان قدس رضوي رقم ٣٣٩ مشهد- إيران.

٣٠ - المقريزي، تقي الدين، الخطط المقريزية (بيروت : مكتبة إحياء العلوم) ٢٦٦:١.

٣١ - هونكه، زيغريد، شمس العرب تسطع على الغرب، الترجمة العربية (بيروت: دار الآفاق) ص ١٢٢.
٣٢ - سيديو، لويس، تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، ط ٢ (القاهرة، ١٩٦٩) ص ٣٢٨.
٣٣ - حاجي خليفة، كشف الظنون، ص ٩٠٧.
٣٤ - القفطي، أخبار الحكماء، ص ٣٢٠.
٣٥ - حاجي خليفة، كشف الظنون، ص ٩٠٧.
٣٦ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
٣٧ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
٣٨ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
٣٩ - المرجع ذاته، الصفحة ذاتها.
٤٠ - الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات (برلين : دار نشر فرانز شتايز، ١٩٦٢) ١:١٨٣.
٤١ -حاجي خليفة، كشف الظنون، ١:٩٠٧.
٤٢ - الصفدي، الوافي بالوفيات، ١:١٨٢.
٤٣ - المؤمن، عبد الأمير، التراث الفلكي، ص ٣٤.
٤٤ - المرجع ذاته، ص ٨٨.
٤٥ - الخوارزمي، مفاتيح العلوم (ليدن: فان فلوتن، ١٨٩٥) ص ٢١٩.
٤٦ - نالينو، علم الفلك، ص ٢٨٢.
٤٧ - حاجي خليفة، كشف الظنون، ٢: ٩٦٤ - ٩٧٢.
٤٨ - ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تـ نزار رضا (بيروت، ١٩٦٥) ص ٢٩٥.
٤٩ - ابن النديم، الفهرست (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٨) ص ٣٨٩.
٥٠ - نالينو، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية (بيروت: دار المعرفة) ٣:٣٢٨.
٥١ - الصوفي، عبد الرحمن، صور الكواكب الثمانية والأربعين، تـ لجنة إحياء التراث (بيروت: دار الآفاق الجديدة) ص ٢٥.
٥٢ - أخبار الحكماء، ص ٢٣٠.
٥٣ - طوقان، قدري، العلوم عند العرب (بيروت : دار اقرأ للنشر والتوزيع) ص ١٥٢.
٥٤ - ديورانت، ول، قصة الحضارة، ١٣:٣٠٨.



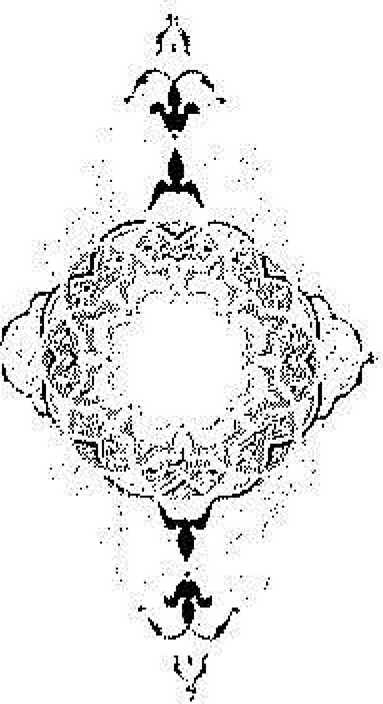
الجراحة التجميلية عند الأطباء العرب

الدكتور محمود الحاج قاسم محمد
الموصل

بقي علم الجراحة متخلفاً عن بقية فروع الطب مدة طويلة، وعلى يد الأطباء العرب والمسلمين خطا خطوات نحو التجديد والإبداع. يقال: إن أول كتاب عربي ظهر في الجراحة هو كتاب «علاج الأمراض التي تعرض للعين بالحديد» لحنين بن إسحق، إلا أن هذا لم يصلنا. وأبرز الكتب التي وصلتنا في هذا الموضوع كانت على التوالي «الحاوي في الطب» للرازي (٢٥١ هـ = ٨٦٥ م - ٣١٣ هـ = ٩٢٥ م) الذي تضمن فصولاً كثيرة ومواضيع عديدة وجديدة في مختلف فروع الجراحة. وجاء بعده قانون ابن سينا (٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م - ٤٣٨ هـ = ١٠٣٧ م) الذي ورد فيه الكثير من المسائل المتعلقة بالجراحة.

وتوالت كتابات الأطباء العرب في هذا الموضوع، إلا أن الثورة العلمية في هذا الحقل تحققت بظهور كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوي (٣٢٦ هـ = ٩٣٦ م - ٤٠٤ هـ = ١٠١٢ م) الذي يعدّ الجزء الثلاثون منه أول ما كتب بهذا الفن مقروناً بمئات الرسوم الإيضاحية للآلات والأدوات الجراحية. وأخيراً نذكر كتاب «العمدة في الجراحة» لابن القف (٦٣٢ هـ = ١٢٣٤ م - ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م) الخاص بالجراحة وكتاب «الاستقصاء» في علاج الجراحات والأورام لمحمد بن علي بن فرح القربلياني (ت ٧٦١ هـ = ١٣٣٢ م) اللذين اعتمدا في كتابيهما على كتاب التصريف للزهراوي.

إن موضوع الجراحة عند الأطباء العرب



والمسلمين بشكل عام تناولناه بالتفصيل في كتابنا «الطب عند العرب والمسلمين: تاريخ ومساهمات» وقد خصصنا موضوعنا هذا لإبراز أهم مساهمات الأطباء العرب والمسلمين في فرع من فروع الجراحة، الذي أطلق بعض المتخصصين عليه صفة الحداثة بينما الحقيقة ليست كذلك كما سنرى في هذا البحث.

ليس من المبالغة أن نقرر بأن الأطباء العرب والمسلمين كانوا رواداً في جراحة التجميل «فالآلات الجراحية العديدة التي اخترعها الزهراوي ما زلنا نستخدم معظمها حتى يومنا، وإن كان يطلق على الكثير منها أسماء جراحين أتوا من بعده بعدة قرون»[١].

والتعليم بالمداد قبل إجراء العملية الجراحية شرط جوهري عندهم لتحقيق الدقة التي تميز هذا التخصص الدقيق، وتكاد تكون هذه الخطوة إجراءاً روتينياً في العديد من جراحاتهم[٢].

وقبل البدء بالبحث لابد من الإشارة إلى أنه ليس في التراث الطبي الإسلامي والعربي ما يدعى بالجراحة التجميلية (التقويمية)، بل إن هذه العمليات تدخل ضمن مواضيع الجراحة بشكل عام، وأنها مع شيء من التطوير والإضافة أصبحت جزءاً من الممارسة اليومية لهذا التخصص.

نستعرض فيما يلي أهم العمليات التي أجراها الأطباء العرب والمسلمون في هذا الحقل.

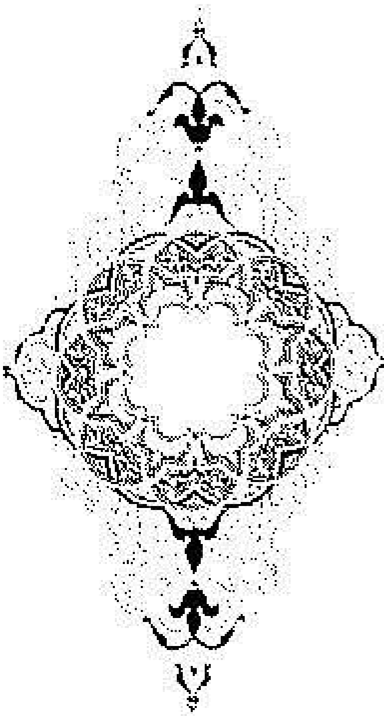
أولاً : الجراحة التجميلية (التقويمية) للفم واللسان

١ - شقاق الشفة = نقصان الشفة (فلح الشفة = Harelip)

تكلم الرازي في الحاوي عن كيفية تعديل نقص الشفة الذي يولد به الطفل أو يحدث نتيجة التئام جروح الشفة التي لا يتيسر خياطتها في ساحة المعركة. وقد نقل أولاً قول جالينوس في ذلك، ثم بيّن رأيه النابع من الملاحظة الدقيقة والخبرة والتجربة، يقول: قال: - ويقصد جالينوس - «اقشر الوسط واكشط الجلد من الجانبين واقطع اللحم الذي في الوسط الذي عنه كشطنا ما قد صلب منه، وارم به ثم خط الجلد من غير أن يكون يتقلص منه شيء ويلحمه فيكون العضو يرجع إلى طوله لذهاب ذلك المقاس من وسط الجلد.

«الساهون يقطعون هذا خلافاً وفعلهم في ذلك خطأ وذلك أنهم يقطعون قطعة من الجلد واللحم معاً ثم يجمعون طرفي الجلد ويخيطونه فتجيء الشفة أصغر مما كانت»[٣].

ويستعيض الزهراوي عن العملية الجراحية في معالجة ذلك أحياناً بالكي حيث يقول: «كثيراً ما يحدث شقاق في الشفة يسمى الشجرة ولا سيّما في شفاه الصبيان فإنه كثيراً ما يحدث، إذا عالجت هذا الشقاق بما ذكرنا بالتقسيم فلم ينجح العلاج فاحم مكواة صغيرة سكينية يكون جوفها على رقة السكين ثم تضعها حامية بالعجلة في نفس الشقاق



حتى يصل الكي إلى عمق الشقاق ثم تعالجه.. حتى يبرأ إن شاء الله»[٤].

٢ - إخراج العقد من الشفة

يولي الزهراوي في عملية إخراج العقد التي تحدث في الشفاه أهمية للناحية الجمالية حيث يوصي بقلب الشفة وإجراء الشق من الجهة الداخلية لكي لا يظهر موضع العملية من الخارج فيقول: «قد يعرض للكثير من الناس في داخل شفاههم أورام صغار صلبة يشبه بعضها حب الكرسنة وبعضها أصغر وأكبر، فينبغي أن تقلب وتشق على كل عقدة وتعلقها بالصنارة وتقطعها من كل جهة...»[٥].

٣ - الرباط تحت اللسان

وهو الرباط الذي قد يولد الطفل وهو به فيعيقه عن الكلام أو يكون نتيجة جرح اندمل ولم يعالج في حينه بشكل صحيح. عن ذلك وعن طريقة إجراء العملية يقول الزهراوي: «قد يكون هذا الرباط الذي يعرض تحت اللسان، إما طبيعياً يولد به الإنسان وإما يكون من جرح قد اندمل. والعمل فيه أن تفتح فم العليل ورأسه في حجرك وترفع لسانه ثم تقطع ذلك الرباط بالعرض حتى ينطلق من إمساكه.. واحذر أن يكون الشق في عمق اللحم فيقطع شرياناً هناك فيعرض النزف، ثم ضع تحت اللسان فتيلة من كتّان يمسكها العليل كل ليلة لئلا تلتحم ثانية، فإن حدث فضع على الكتّان زاجاً مسحوقاً، فإن غلبك الدم فاكوِ الموضع..»[٦].

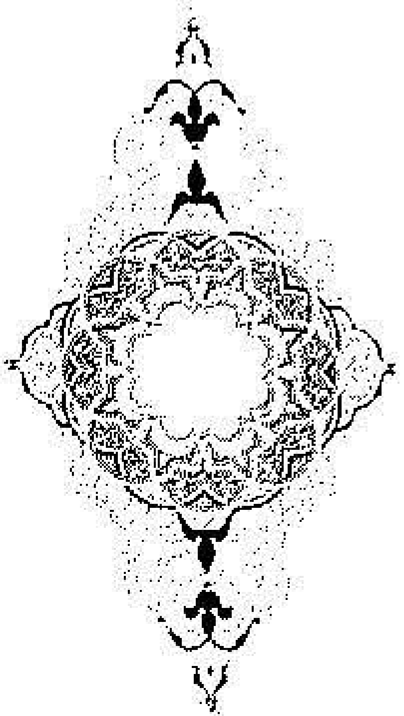
ثانياً: الجراحة التجميلية للأنف والأذن

١ - معالجة الإصابات

يتحدث الزهراوي في الفصل السادس والعشرين بشكل عام عن كيفية هذه الإصابات فيقول: «اعلم أنه متى حدث تفرق اتصال في أحد هذه الغضاريف فقلّما ينجع فيها العمل إلا في بعض الناس، فينبغي متى عرض لأحد شيء من ذلك فانظر إن كان الجرح طرياً بدمه أن تجمع شفتي الجرح بالخياطة ثم تعالجه حتى يبرأ، وإن كان تفرق الاتصال قد افترق شفتاه وصار كل شق صحيحاً فينبغي أن تسلخ كل شق بثخن جلدة الظاهر حتى يدمى ثم تجمع الشفتين بالخياطة وتشدها»[٧].

ويروي أسامة بن منقذ قصة علاج أحد المصابين بحرب الإفرنج، فيها دلالة قوية إلى إحاطة الجراحين العرب بدقائق علم الجراحة التجميلية فمن أقواله: «وإذا الوسطاني (المحارب) قد ضربه إفرنجي بسيف في وسط أنفه، فقطع وجهه إلى أذنيه، وقد استرخى نصف وجهه صار على صدره وبين النصفين من وجهه فتح قريب من شبر وهو يمشي بين الرجلين، فدخل البلد، وخاط الجرائحي وجهه، وداواه، فالتحم الجرح، وعوفي، وعاد ما كان عليه إلى أن مات على فراشه. وكان يبيع الدواب ويسمى ابن غازي المشطوب، وإنما سمي المشطوب بتلك الضربة»[٨].

وهذا يطلق عليه اليوم زرع الأعضاء الذاتي



(Autograft) الذي لا يحدث فيه رفض الأعضاء.

٢ - ثآليل الأنف

أما عن ثآليل الأنف التي تقبح منظر الأنف فيقول الزهراوي: «كثيراً ما ينبت في طرف الأنف ثؤلول فيعظم ويتزيد مع الأيام حتى يقبح منظره. ولذلك ينبغي أن تقطعه في أول ظهوره وتستأصل جميعه ثم تحمل على الموضع إما الكي وإما الدواء المحروق الذي يقوم مقام الكي»(٩).

وكان علي بن العباس أسبق من الزهراوي في ذكر علاج الثآليل بشكل عام حيث قال: «إن الثآليل والمسامير تعرض في كثير من أعضاء البدن الظاهرة.. وعلاجها القطع وذلك أنه يجب أن يشرح حول الثؤلول.. ويجذب بمنقاش جذباً جيداً ويقطع بمبضع.. وتستأصل قطعه لئلا يعود وإذا أردت أن تأمن عودته فاكوِ أصله بمكوى قد أحمي جيداً بالنار»(١٠).

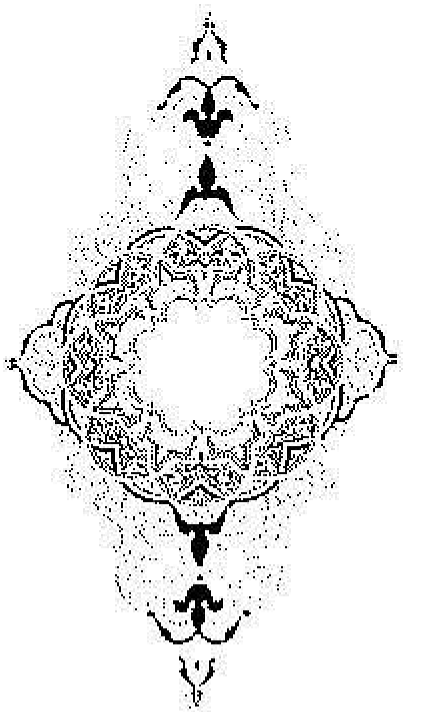
٣ - انسداد فتحة الأذن الخارجية

تكلّم عن ذلك علي بن العباس والزهراوي وابن القف وغيرهم إلا أن كلام الزهراوي جاء أكثر إيجازاً وأوضح أسلوباً ومتسماً بالدقة العلمية. يقول الزهراوي: «وقد يعرض أيضاً لبعض الناس سد في مجرى الأذن عن جرح أو لحم نابت فيها وهذا السد قد يكون في عمق ثقب الأذن لا يدركه البصر، وقد يعرض إلى خارج الثقب قليلاً ويدركه البصر، فالذي يعرض في عمق الأذن ولا يدركه البصر يكون في أكثر الأحوال عسر البرء، والذي يدركه البصر فينبغي أن تضع أذن العليل في الشمس وتنظر فيها، فإن رأيت السد ظاهراً فافتحه بمبضع لطيف..». وبعد وصف المبضع ورسم شكله يقول: «فإن كان السد في عمق الأذن فخذ ميلاً لطيفاً أملس، فدفئه في النار قليلاً، ثم دسه في مجرى الأذن، فإن أحسست بالسد مع ما يجده العليل من ثقل السمع فرم بطه برفق، وتحفظ من أن تجرح عصبة الأذن، ثم صيّر في الأذن فتيلة على قدر سعة الثقب قد لثتها في المرهم المصري، تفعل ذلك أياماً حتى تأمن من التحام الجرح»(١١).

ثالثاً : الجراحة التجميلية للعين

١ - قصر الجفن أو ما يسمى الشترة (Ectropion)

يتناول علي بن العباس ذلك في باب علاج الشترة للعين الأرنبية فيقول: «فإن كان ذلك عن أثر قرحة أو عن خياطة الجفن ورفعه بأكثر مما ينبغي فعالجه بشق الجفن في الموضع الملتحم، واتركه حتى ينسبل. ويوضع فيما بين الشق فتل فيها مرهم ينبت اللحم حتى لا تتلاقى شفتا القطع وينبت فيما بينهما. فإن عرضت الشترة بسبب انقلاب الجفن الأسفل إلى الخارج وهذا يكون أيضاً من خياطة الجفن أو كيه على غير حذق



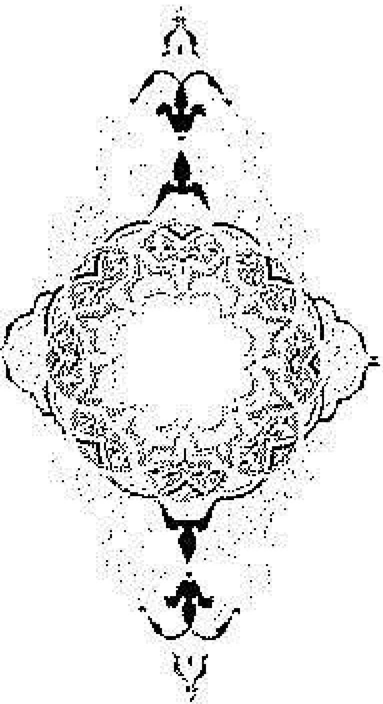
فينقلب الجفن أو عن أثر حرقة، فينبغي أن تأخذ إبرة فيها خيط مفتول تدخلها في لحم الجفن المنقلب من المآق الأصغر Inter Cantus إلى المآق الأكبر Outer Cantus إن كانت العين العليلة هي اليسرى، فإن كانت اليمنى فتدخل الإبرة في اللحم من المآق الأصغر، وتمد الإبرة حتى يصير الخيط في طرف اللحم ثم تمدّ الخيط بطرفيه إلى فوق وتقطعه بمبضع وتنزع ذلك اللحم، فإن رجع شكل الجفن إلى حاله ومال إلى داخل فقد اكتفيت بهذا العلاج، وإن انقلب أيضاً بعد انتزاعنا اللحم فينبغي أن تصير عرض المرود تحت الجفن الذي قطعت منه اللحم وتشق في الجانب الداخل من الجفن شقين، ويكون أطراف الشقين من زاويتي القطع الذي قطعنا حتى تلتقي فيكون منها زاوية حادة حتى إذا اجتمعت يصير شكلها شبيهاً بشكل اللام في كتاب اليونانيين(+)، ثم تنزع ذلك اللحم بقدر ما يكون الجانب الحاد أسفل مما يلي العين ويكون الجانب العريض مما يلي الجفن، ثم تجمع الأجزاء المتفرقة بخياطتين تخيطهما بخيوط صوف، ويلتقي بذلك، فإن كانت الشترة عرضت من خياطة أو من كي فينبغي أن تشق شقاً بسيطاً تحت شق الأجفان على غير ما يتبع الاندمال الأول بعينه ثم تفرق بين الشقين بفتل»[١٢].

ويتناول الزهراوي في الفصل الرابع عشر من التصريف الموضوع نفسه وأقواله جاءت مطابقة لما ذكر على بن العباس إلى أنه ينهي كلامه في التأكيد على عدم تقيد الطبيب بما ذكره السابقون بل أن يحاول دائماً تطوير الآلات التي يحتاجها في إجراء العمليات وابتكارها فيقول: «وجملة القول في علاج الشترة إذا كانت من فوق أو من أسفل أن يجري فيها العمل على حسب ما يتهيأ لك من هيئة الشترة فإنها قد تكون كثيرة الاختلاف في الصورة. والصانع الدَّرِب يدبر الحيلة بأي وجه أمكنه حتى يرد الشكل على هيئته الطبيعية أو يقاربها، والمريض نفسه يدلك على ما يصلح له من العمل والآلة في أكثر الأحوال»[١٣].

٢ - إصابات العين :

لقد بلغ الأطباء العرب والمسلمون إبان الحروب الصليبية درجة متقدمة ودقيقة في الجراحة التجميلية لإصابات العين، على سبيل المثال يروي أسامة بن منقذ (المولود في سنة ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م) مايلي: «وجرح عمي عز الدولة رحمه الله في ذلك اليوم عدة جراح منها طعنة طعنها في جفن عينه السفلاني من ناحية المآق ونشب الرمح في المآق عند مؤخرة العين فسقطت العين وسقط الجفن جميعه وبقي معلقاً بجلده من مؤخرة العين، والعين تلعب لا تستقر، وإنما الجفون التي تمسك العين. فخاطها الجرائحي وداواها فعادت كحالها الأولى لا تعرف العين المطعونة من الأخرى»[١٤].

٣ - الثآليل العارضة في الجفن (Warts



(in the Lids

يقول عنها علي بن عيسى الكحال (- ٤٠٠ هـ = ١٠١٠ م): «أما الثآليل العارضة في الجفن فنوع واحد وهي معروفة، لأنه لا فرق بينها وبين ما يعرض للجسم منها..» وعن العلاج الجراحي يقول: «فمدها بالمنقاش واقطعها بالمقراض. فإن انبعث عنها دم كثير فاكبسها بقليل زاج فإنه ينقطع»[١٥].

رابعاً : الجراحة التجميلية للجهاز البولي والتناسلي

١ - الختان (Circumcision)

ذكر الزهراوي الطرق المعروفة والمستعملة في عملية إجراء الختان وابتدع طريقة خاصة له سماها (التطهير بالمقص والرباط بالخيط) يقول: «ثم توقفه بين يديك منتصب القامة ولا يكون جالساً، وأخبأ المقص في كمك أو تحت قدمك حتى لا تقع عين الصبي عليها البتة ولا على شيء من الآلات، ثم تدخل يدك في أحليله، وتنفخ في الجلدة وتشيلها إلى فوق حتى يخرج رأس الأحليل، ثم تنقيه مما يجتمع فيه من الوسخ، ثم اربط الموضع المعلم بخيط مثنى، ثم اربط أسفل منه قليلاً رباطاً ثانياً، ثم تمسك بإبهامك والسبابة موضع الربط الأسفل إمساكاً جيداً، وتقطع بين الرباطين، ثم ارفع الجلدة إلى فوق بسرعة، وأخرج رأس الأحليل.. ثم تنشفه بخرقة رطبة، ثم ذر من رماد القرع اليابس المحرق»[١٦].

٢ - القلفة الناقصة

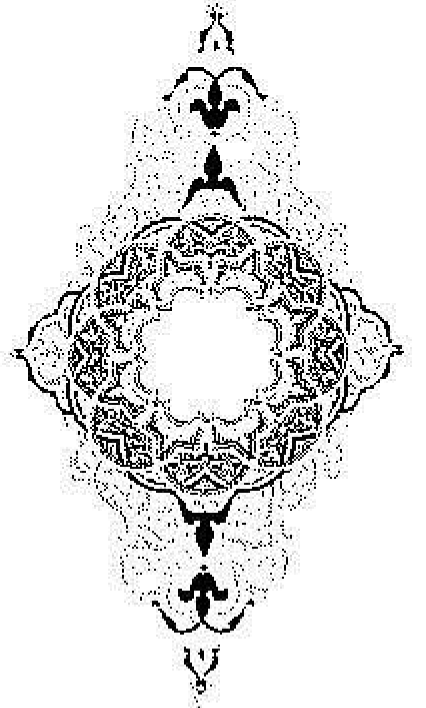
ينقل الرازي قول جالينوس في ذلك فيقول: «قال: اتخذ قالباً» من رصاص القمة الكمرة ومد القلفة عليه وشد عليه بسير لين حتى يطول ويثبت، وإن كان متصلاً سلخ أولاً ثم أدخل في القالب»[١٧].

٣ - تشوهات فتحة البول في الأطفال الذكور

يتكلم الزهراوي عن مختلف أنواع تشوهات فتحة البول الولادية بشكل شامل مبيناً العلاج الجراحي لكل نوع فيقول: «قد يخرج بعض الصبيان من بطن أمه وكمرته غير مثقوبة، فينبغي أن يتبادر بثقبه من ساعة يولد بمبضع رقيق جداً على هذه الصورة، ثم تضع في الثقب مسماراً رقيقاً من رصاص وتربطه وتمسكه ثلاثة أيام أو أربعة فمتى أراد البول نحي عنه وبال، ثم رده..

«وأما الذي يكون ثقبه ضيقاً فيعالج بالرصاص كما قلنا أياماً كثيرة حتى يتسع.

«والذين يكون منهم الثقب في غير موضعه وذلك أن منهم من يولد والثقب عند نهاية الكمرة، فلا يقدر أن يبول إلى قدام حتى يرفع الإحليل بيده إلى فوق، ولا يولد له من قبل أن المني لا يقدر الوصول إلى الرحم على استقامة وهي علّة قبيحة جداً، ووجه العمل في ذلك أن يستلقي العليل على ظهره، ثم تمد كمرته بيدك اليسرى مداً شديداً، وتبري رأس



الإحليل بشفرة أو مبضع حاد كبرية القلم أو كأنك تنحت شيئاً ليكون وسطه ناتياً شبيهاً بكمرة، وليقع الثقب في الوسط على ما ينبغي، وتحفظ عند عملك من نزف الدم فكثيراً ما يعرض ذلك فقابله بما يقطع الدم وعالج الجرح حتى يبرأ»[18].

إن ملاحظاته هنا جاءت وكأنها من نتاج عالم معاصر في الطب. ففي حالة الثقب في العجان لا يمكن أن يصل المني ونتيجة لذلك لا يحدث الإنجاب.

٤ - الخنثى (Hemophroditisim)

يصف علي بن العباس الحالات المختلفة التي يمكن أن يولد بها الطفل خنثى فيقول: «إن الخنثى علته طبيعية وهي علة قبيحة في الرجال والنساء ويتولد معه أنواع ثلاثة في الرجال وواحدة في النساء. فالنوع الأول الذي في الرجال ربما يظهر مما يلي العانة أو وسط جلدة الخصي جسم بين الأنثيين، شكله رحم المرأة، فيه شعر. والنوع الثاني أن يكون على مثال هذا الشكل في بعضهم، ويسيل منه البول. أما في النساء فإنه يكون فوق حر المرأة كبيراً على العانة كمذاكير الرجل، ويكون فيه ثلاثة أجسام ناتئة إلى خارج أحدها شبيه بالقضيب والجسمان الباقيان الأنثيان.

«وأما النوع الذي يكون في الرجال ويخرج منه البول فلا علاج له ولا برء. وأما الأنواع الباقية فإنها تعالج بالقطع والإندار ثم يعالج الجراحات حتى تبرأ»[19].

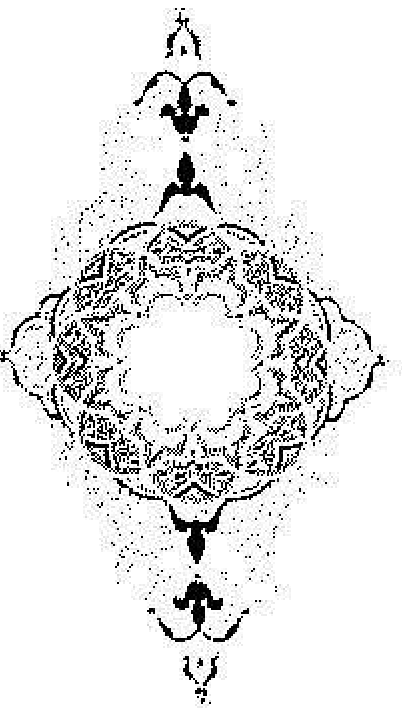
ويتكلم ابن سينا عن ذلك بإيجاز علمي قائلاً: «ممن هو خنثى من لا عضو الرجال له، ولا عضو النساء، ومنهم من له كلاهما، لكن أحدهما خفي وأضعف والآخر بالخلاف، ويبول من أحدهما دون الآخر، ومنهم من كلاهما فيه سواء.. وكثيراً ما يعالجون بقطع العضو الخفي وتدبير جراحته»[20].

٥ - الرتقة (Atrasia).

يبدع الرازي الكلام عن الرتقة وعلاجها، فيقول فيها: «إما أن تكون في الخلقة أو من علاج قرحة. فافتح قبل المرأة فإنك تجد فم القبل قد غطاه شيء شبيه بالعضلة، هذا إذا كان اللحم في القبل، أما إذا كان في فم الرحم فإنه لا يخاف عليه حتى تبلغ الجارية الحيض، فإنه يحتبس فلا ينزل..» ثم يقول: «وهذا اللحم إما أن ينبت في فم القبل.. وربما كان هذا اللحم ساداً للموضع كله. وقد يكون فيه ثقب صغير يخرج منه الطمث».

وعن علاج الرتقة يقول: «إذا كان هذا اللحم نابتاً في فم القبل فضع رفادتين على الشفرتين، ثم مد الرفادة حتى تنتو لك العضلة وتخرج، فاقطعها، ثم اغمس صوفة في زيت وشراب وضعه عليه»[21].

ولا أعرف نصاً في التراثيات أو الكتب العصرية أفضل من ذلك[22].



خامساً : جراحات تجميلية أخرى

١ - تشوهات الأصابع

من ذلك الإصبع الزائد الذي يتكلم علي بن العبّاس عن أنواعه وكيفية علاجه بإيجاز علمي دقيق فيقول: «الأصابع الزائدة منها ما يكون في جانب الخنصر، ومنها ما يكون إلى جانب الإبهام، وقد يكون بعضها من لحم مفرد وبعضها بعظام وربما كانت فيها أظافير، والتي يكون فيها عظام يكون نبات بعضها من مفصل الأصابع المجاورة لها، ونبات بعضها من سلامياتها. وما كان منها لحمياً فقطعها أسهل، وذلك أن تقطعها من أصلها بالموسى دفعة، وأما التي نباتها من مفصل الأصابع فعلاجها أعسر. والتي تنبت من السلاميات ينبغي أن يقطع أولاً لحمها قطعاً مستديراً إلى العظم ثم تقطع بها العظام أعني بمنشار، ثم تحك العظم وتعالج ذلك بالأشياء التي تعالج بها القروح»[٢٣].

أما عن الالتحام الذي يولد بعض الأطفال وهم مصابون به أو يحدث نتيجة اندمال الجروح فيقول الزهراوي عنه: «وأما الالتحام الذي يعرض للأصابع بعضها ببعض فكثيراً ما يعرض ذلك، ويكون ذلك مما يولد به الإنسان، ويكون عند اندمال جرح أو حرق نار ونحو ذلك، فينبغي أن تشق الالتحام حتى ترجع الأصابع على هيئتها الطبيعية، ثم تضع بينهما فتلاً أو خرقاً مشربة في دهن الورد لئلا يلتحم سريعاً، وتفرق بينهما أو تجعل بينهما صفيحة رصاص رقيقة حتى يندمل الموضع على ما ينبغي، وكذلك إن عرض الالتحام لبعض الأصابع بالكف فشق ذلك الالتحام على حسب ما تهيأ ويصلح به شكل العضو»[٢٤].

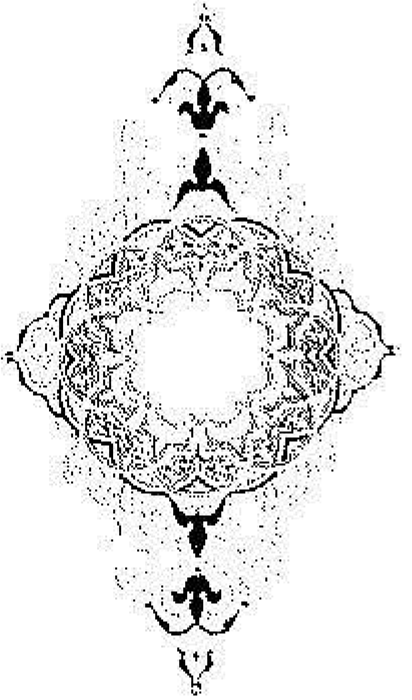
وهنا أيضاً نجد إشارة لاهتمام الزهراوي بالجراحة التجميلية.

٢ - المقعدة غير المثقوبة (Imporforate Anus)

يتكلم علي بن العباس عن ذلك في الباب الثالث والستين من الجزء الثاني من كامل الصناعة الطبية كلاماً علمياً صحيحاً فيقول: «إنه ربما يولد المولود ومقعدته غير مثقوبة، وربما حدث ذلك في الصبيان وغيرهم من الرجال والنساء من أثر قرحة لم تعالج على ما ينبغي فتلتحم المقعدة. فما كان حدوثه طبيعياً فينبغي للقابلة في وقت الولادة أن توسعه بإصبعها أو بمبضع، ثم تعالج بالشراب بعد أن توضع في المقعدة فتيلة أو أنبوبة من رصاص أياماً، فإذا ما كان من ذلك عن أثر قرحة فينبغي أن يشق الالتحام ويوضع على الموضع إسفنج أو صوف مبلول بشراب، ثم ترفد برفادة وتشد اللجام، وإذا كان الغد فيحل، وتعالجهم بالمراهم بعد أن يوضع في الدبر أنبوب رصاص والله أعلم»[٢٥].

٣ - الأورام التي تعرض في جلدة الرأس

يقول الزهراوي: «تعرض في جلدة الرأس



أورام صغار، وهي من أنواع السلع تحويها صفاقات، لها ظروف كأنها حوصلة الدجاجة، وأنواعها كثيرة، فمنها شحمية، ومنها ما تحوي رطوبة تشبه الحمأة ومنها ما تحوي رطوبة تشبه الماء ونحو ذلك، ومنها ما هي متحجرة صلبة..»، «والعمل في شقها أن تسبرها أولاً بالآلة.. التي تسمى المدس، حتى تعلم ما تحتوي، فإن كان الذي تحوي رطوبة فشقها شقاً على الطول.. فإذا تفرغت الرطوبة فاسلخ الكيس الذي كان يحوي تلك الرطوبة واقطعه جميعه..»، «وإذا كان الورم يحوي سلعاً شحمية فشقها.. شقاً مصلباً وألق الصنانير في شفتي الجرح واسلخه من كل جهة، ورم جهدك في إخراج الصفاق الذي يحويها، والشق على الورم المتحجر أسهل لأنه قليل الدم»[٢٦].

وأما ابن سينا فإنه يقول عن ذلك: «إذا كان في رؤوسهم ماء وأكثر ما يكون هذا في الصبيان فيجب أن يتعرف هل هو كبير وهل هو مندفع من خارج إلى داخل إذا قهر، فإن كان كذلك فلا يعالج، وإن كان قليلاً ومستمسكاً بين الجلد والقحف فاستعمل إما شقاً واحداً في العرض وإما شقين متقاطعين أو ثلاثة شقوق متقاطعة إن كان أكثر، وتفرغ ما فيه، ثم تشد وتربط»[٢٧].

٤ – ثدي الرجال الذي يشبه ثدي النساء

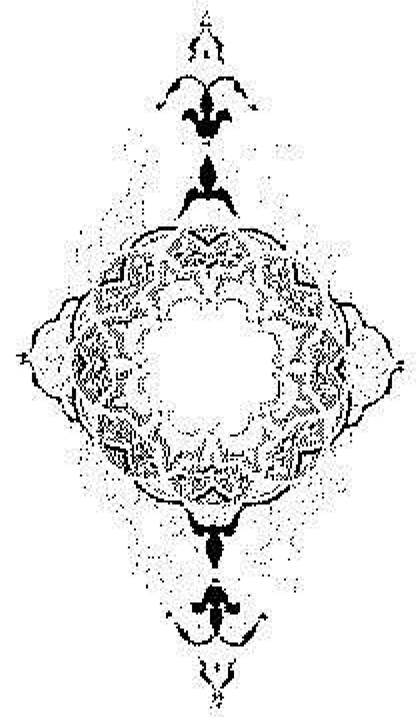
في معالجة ذلك تبدو لنا عظمة علي بن العباس والزهراوي رائدين لجراحة التجميل حيث وصفا الشق الهلالي، والشق الهلالي المزدوج، يتصل كل واحد منهما بالآخر عند نهايتهما حتى يكون الخط الأكبر محيطاً بالخط الأصغر.

نذكر هنا قول علي بن العباس لكونه أسبق من الزهراوي، يقول: «من الرجال من يعظم ثدياه حتى يصيرا قريبين من أثداء النساء فيستقبح ذلك منهم، وذلك يكون لشحم يتولد فيهما، فينبغي إن أردت علاج ذلك أن تشق ذلك الثدي شقاً على مثال شكل الهلال، ثم تسلخ الجلد وتنزع الشحم، ثم تخيطه وتضع عليه أدوية. فإن خفت أن يميل الثدي إلى أسفل لعظمه كما يكون للنساء فينبغي أن تشق جوانبه الفوقانية شقين شبيهين بشكل الهلال متصلاً كل منهما بالآخر عند نهايته على هذا المثال.. ثم تسلخ الجلد فيما بين الشقين، وتنزع الشحم، وتستعمل من بعد ذلك الخياطة، وتلقي عليه دواء..»[٢٨] وجاء في التصريف للزهراوي ما يشبه هذا القول.

إن ما يجري اليوم من أنواع الجراحة التجميلية لأثداء الرجال لا يختلف كثيراً عما قاله الأطباء العرب والمسلمون، وهذا بالطبع يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا رواداً في جراحة التجميل.

٥ – استئصال الثاليل التي تعرض في البطن.

يقول عن ذلك الزهراوي في التصريف: «قد تعرض كثيراً لبعض الناس في بطونهم وفي



سائر أبدانهم ثآليل تسمى الفطرية لشبهها بالفطر، أصلها رقيق ورأسها غليظ قد تحولت شفتاه، ويكون منها صغار ويكون منها ما يعظم جداً»، «وللعمل في قطعها أن تنظر فإن كان لون الثؤلول أبيض رطباً رقيق الأصل فاقطعه بمبضع عريض ولتكن بحضرتك المكاوي في النار فكثيراً ما يندفع عند قطعها دم كثير فتبادر إن غلبك الدم فتكويها»، «واحذر أن تعرض لقطع ثؤلول يكون كمد اللون قليل الحمى سمج المنظر فإنه ورم سرطاني»[٢٩].

سادساً : صناعة أعضاء الإنسان:

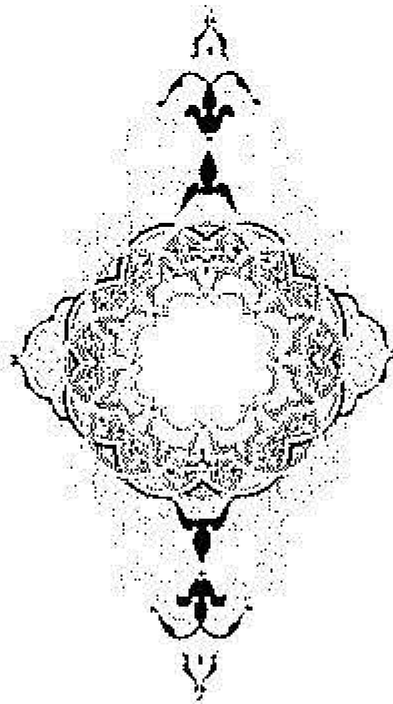
إن تركيب الأعضاء المصنعة للإنسان حينما يفقد الفرد عضواً من أعضائه، كالرجل والأصابع والأنف والأسنان والشعر واللحية ليس جديداً، وإنما نجد له إشارات في كتب التراث العربي. فقد ذكر الزمخشري الفقيه اللغوي الشهير (- ٥٣٨هـ = ١١٤٤م) على سبيل المثال أنه أصيب في رجله فقطعت واتخذ رجلاً من خشب.

وعن اليد والأصابع المصنعة ذكر ابن قتيبة الدينوري (-٢٧٢هـ = ٨٨٩م) في ترجمة خلف بن خليفة، أنه كان «أقطع اليد، وله أصابع من جلود وكان شاعراً ظريفا»[٣٠].

وكان تعويض الأنف إذا انقطعت في الحرب بأنف من فضة أو ذهب أمراً معروفاً وقديماً. ويقال إن أول من صنع لنفسه أنفاً من معدن هو عرفجة بن سعد، فقد أصيب أنفه في وقعة يوم كلاب، فصنع له أنف من ورِق (أي من فضة) فصدئ وتعفن أنفه، فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتخذ أنفاً من ذهب لأن الذهب لا يصدأ»[٣١].

وعن تعويض الأسنان المفقودة في حالة سقوطها ينصح الزهراوي بإعادة تثبيتها وتشبيكها بأسلاك الذهب أو تعويضها بأسنان مصنعة من عظام البقر. يقول: «وقد يبرد الضرس الواحد أو الاثنان بعد سقوطهما في موضعهما وتشبك كما وصفنا وتبقى، وإنما يفعل ذلك صانع درب دقيق، وقد ينحت من عظام البقر فيصنع منه كهيئة الضرس، ويجعل في الموضع الذي ذهب منه الضرس وشد كما قلنا، فيبقى، ويستمتع بذلك»[٣٢].

إن ما جاء في هذا القول يعدّ أول وصف في التاريخ لمحاولة نقل الأعضاء وتصنيع الأسنان. وفي محاولة نقل الأعضاء تبع أمبروز باري أثر الزهراوي، ومن بعدهما جاء هنتر في القرن الثامن عشر، ليقوم بالمحاولة نفسها[٣٣].



الحواشي

١ - للمزيد من المعلومات حول مساهمات الأطباء العرب والمسلمين في علم الجراحة يراجع كتاب الطب عند العرب والمسلمين ... تاريخ ومساهمات/ محمود الحاج قاسم محمد (الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م) ص ١٠٥.

٢ - منصور، أحمد مختار . دراسة وتعليق على كتاب التصريف - الجزء الثلاثون - للزهراوي مجلة معهد المخطوطات العربية، الكويت، م ٢٦، ج٢، ص٥٠٦.

٣ - الرازي، أبو بكر محمد بن زكريا، الحاوي في الطب، ط٢ (حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٧٩) ٦:٢١٨.

٤ - الزهراوي، أبو القاسم خلف بن العباس، التصريف لمن عجز عن التأليف مع الترجمة الإنكليزية ص٦١،

M. S. Spink and G.L.Lewis, London: The Welcome institute of the history of medicine, 1973.

٥ - الزهراوي، التصريف، مصدر سابق، ص٢٧١.

٦ - الزهراوي، المصدر ذاته، ص٢٩٩.

٧ - الزهراوي، المصدر ذاته، ص٢٦٩.

٨ - ابن منقذ، أسامة، كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتي (برنستون: جامعة برنستون، ١٩٣٠) ص١٦٣.

٩ - الزهراوي، التصريف، مصدر سابق، ص٢٦٧.

١٠ - المجوسي، علي بن العباس، كامل الصناعة الطبية (القاهرة: المطبعة الكبرى، ١٢٩٤هـ) ٢:٤٦٨.

١١ - الزهراوي، مصدر سابق، ص٢٠٣-٢٠٥.

١٢ - المجوسي، علي بن العباس، كامل الصناعة، مصدر سابق، ٢:٤٧٣.

١٣ - الزهراوي، التصريف، مصدر سابق، ص٢٢٧، ٢٢٩.

١٤ - ابن منقذ، مصدر سابق، ص٥٥.

١٥ - الكحال، علي بن عيسى، تذكرة الكحالين - الطبعة الأولى (حيدر آباد الدكن: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م) ص١٣٩.

١٦ - الزهراوي، التصريف، مصدر سابق، ص٣٩٩.

١٧ - الرازي، الحاوي، مصدر سابق، ٦:٢١٨.

١٨ - الزهراوي، التصريف، مصدر سابق، ص٢٩١، ٢٩٣.

١٩ - المجوسي، علي بن العباس، كامل الصناعة، مصدر سابق، ٢:٤٨٨.

٢٠ - ابن سينا، أبو علي الحسين، القانون في الطب، طبعة بالاوفسيت (بغداد: مكتبة المثنى د.ت) ٢:٥٤٩.

٢١ - الرازي، الحاوي، مصدر سابق، ٩:٢١-٢٢.

٢٢ - السامرائي، كمال، بحث قدم للمؤتمر العالمي الثاني عن الطب الإسلامي - بعنوان «الجراحة النسوية في العصور الإسلامية» - الكويت - ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.

٢٣ - المجوسي، علي بن العباس، كامل الصناعة، مصدر سابق، ٢:٤٨٠.

٢٤ - الزهراوي، التصريف، مصدر سابق، ص٥٩٥.

٢٥ - المجوسي، علي بن العباس، كامل الصناعة، مصدر سابق، ٢:٤٩١.

٢٦ - الزهراوي - التصريف ص٣٣١ - ٣٣٣.

٢٧ - ابن سينا، القانون، مصدر سابق، ٢:٥٢.

٢٨ - المجوسي، علي بن العباس، كامل الصناعة، مصدر سابق، ٢:٤٨٠.

٢٩ - الزهراوي، التصريف، مصدر سابق، ص٣٧٧.

٣٠ - الدينوري، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق مصطفى السقا، ص٢٧٣.

٣١ - مسند ابن حنبل، سنن الترمذي.

٣٢ - الزهرواي، التصريف، مصدر سابق، ص٢٩٧.

٣٣ - منصور، أحمد مختار، المقال السابق، ص٥٢٢ نقلاً عن :

Peer, L.a., Transplantation Of Tissues, Williams And Wilkins Co Baltimore, 1955.



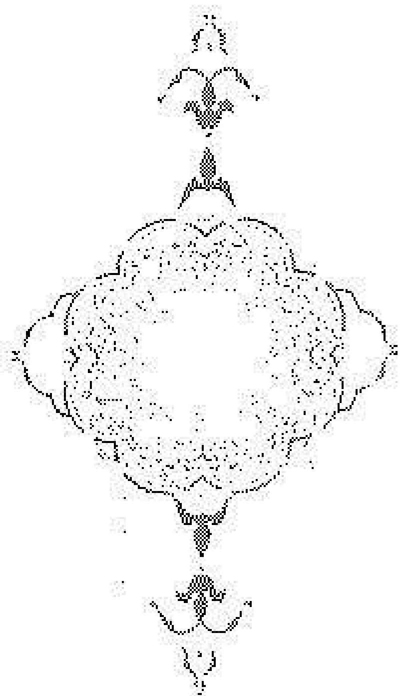
الشاعر عبد العزيز سعود البابطين

رئيس مجلس أمناء مؤسسة جائزة البابطين للإبداع الشعري

في حديث للمجلة

تتفاوت مواقف الكتّاب والأدباء بين ما يبدعونه، وبين ما ينهجون به في حياتهم، وقليل هم الكتّاب والأدباء الذين وحّدوا بين إبداعهم وحياتهم، بل مضوا إلى تأطير الإبداع الشعري العربي وتأصيله عبر مؤسسة نذرت نفسها لهذه الغاية.

وعبد العزيز البابطين، الشاعر الكويتي، واحد من هذه القلة الذين عملوا بدأب وتفان لتكريم الشعر وأصحابه في أكثر من ميدان. غير أنه في معجم البابطين للإبداع الشعري يحقق الأمل الذي راوده سنين طوالاً. وليس سهلاً ذاك العمل الذي تصدى لرصد الشعر والشعراء في فترة مهمة من تاريخنا العربي عاشت أدق مراحل وجودها السياسي وأخطره، وحفلت بالتقلبات الاقتصادية والتطورات الاجتماعية، والذي قال «إن الشعر ديوان العرب» كان يدرك تماماً أهمية الشعر في حياة العرب وأهميته في رصد وتسجيل الحياة بكل ما تذخر به من مشاعر وتجارب وأحداث. ولكن عبد العزيز البابطين المتألق دوماً بعينيه الصقريتين اللتين تفيضان بالحب والشعر تصدى لهذا العمل على ما فيه من



«لقد أحببت الشعر منذ طفولتي، وكنت أوفر من مصروفي اليومي وأنا لا زلت صغيراً لأشتري كتاباً أو ديوان شعر. وكم منيت نفسي وأنا أقرأ للزيات والعقاد والرصافي والمازني وفهد العسكر والبارودي والمنفلوطي والأخطل الصغير والشابي وغيرهم من شعراء العروبة وأدبائها أن أقف بينهم أو بين من يرثونهم لأسهم بوضع لبنة على مرأى منهم ليعلو صرح الأدب عالياً في وقت انحسر فيه المدّ الأدبي إلى أدنى مستوياته».

«عبد العزيز البابطين»

جهد وصبر ومسؤولية. وكان معجم البابطين للإبداع الشعري.

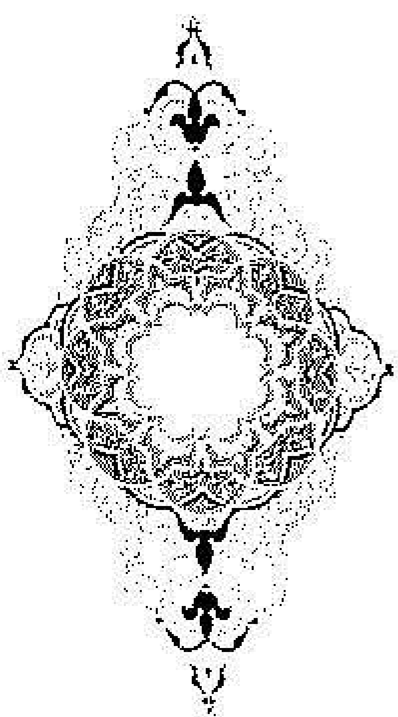
هذا العمل الطيب هو كسب للثقافة العربية وللعلم والمتعلمين، وهو تكريم للشعر والشعراء. وبه يضيف البابطين إلى تاريخنا الأدبي الحافل تاريخاً جديداً لا يكتفي بقراءة ما هو مكتوب فقط، بل يترك للأجيال أن تقرأ ما نكتبه شعراً وأدباً وفناً وعلماً.

عبد العزيز البابطين أشهد أنك قد أرضيت الله والتاريخ وكالسلف الصالح كنت الخلف الصالح، وكالسلف الباني كنت الخلف الباني..

ويوم حضوره حفل افتتاح معرض المخطوطات العلمية الذي أقامه مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي في الفترة من ١٢ إلى ٢٠ مارس ١٩٩٥ كان لنا معه هذا الحديث:

■ **إن جهود المؤسسة وعملها من أجل النهوض بالحركة الثقافية العربية وتحقيق التواصل بين الشعراء العرب، جديرة بكل تقدير. هل لكم أن تعطونا فكرة عن هذه المؤسسة وعن جهودها؟**

□ لقد استطعنا - بفضل الله وتوفيقه - السير بهذه المؤسسة بخطوات جادة وهامة وملموسة على الصعيد الثقافي العربي، وحققنا - بعون الله - خلال السنوات الست من عمر المؤسسة (١٩٨٩ - ١٩٩٥) العديد من الإنجازات الثقافية الهامة، من إقامة مسابقات للشعر والنقد إلى ندوات أدبية تحفل بالعديد من البحوث والدراسات لكبار الشعراء الذين تطلق أسماؤهم على الدورات المتعاقبة للجائزة مثل: دورة «محمود سامي البارودي» في القاهرة ١٩٩٢ ودورة أبو القاسم الشابي في المملكة المغربية ١٩٩٤ ودورة «أحمد مشاري العدواني» التي ستقام في الإمارات العربية المتحدة ١٩٩٦ إضافة إلى طباعة دواوين أولئك الشعراء العظام وآثارهم وسير حياتهم، وكانت ذروة تلك الإنجازات التي قامت بها المؤسسة صدور «معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين» الذي احتفلت المؤسسة بصدوره في الكويت تحت رعاية صاحب السمو الشيخ



جابر الأحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت حفظه الله وبحضور ما يزيد عن المائتين وخمسين شاعراً وأديباً من كافة أرجاء الوطن العربي وبلاد المهجر وذلك خلال الفترة من ٦ - ٨ نوفمبر ١٩٩٥ والذي كان لصدوره صدى كبير لدى كافة الناطقين بالعربية.

■ **ماذا عن دورة الشاعر المرحوم «أحمد مشاري العدواني» التي ستقام في أكتوبر في دولة الإمارات العربية المتحدة..؟**

□ الشاعر المرحوم «أحمد مشاري العدواني» شاعر كويتي، بصماته واضحة على مسيرة الثقافة ليس في الخليج العربي، ولا في الجزيرة العربية أيضاً، بل على مستوى الوطن العربي، وقد أقر مجلس الأمناء طباعة خمسة كتب جديدة تتناول جوانب الشاعر العدواني كلها، وقد سبق أن تمّ إصدار سبعة كتب في دورة الشابي، وتسعة كتب لدورة البارودي، وهذه الكتب التي سنصدرها في دورة العدواني - تتناول أحمد مشاري العدواني في أدبه، شعره، قصصه ورواياته، ودوره في مسيرة الثقافة العربية وكتاب في النقد يتناول ما كتب عن الشاعر العدواني.

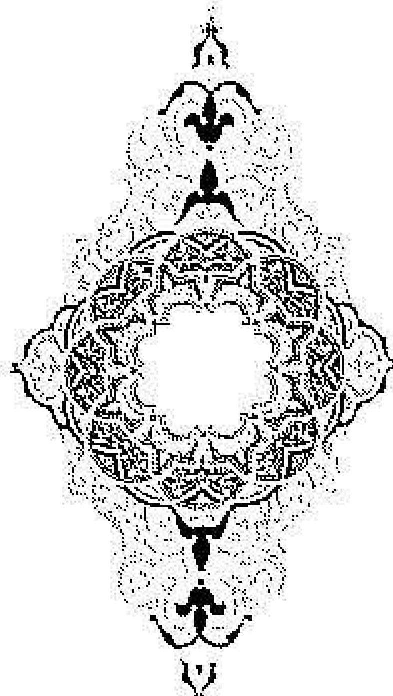
وكتاب سيكون عن مختارات من الشعر العربي في الجزيرة العربية والخليج العربي بما فيها اليمن تضم أجود ما قاله الشعراء خلال المائة سنة الماضية مع كتابة نبذ عن حياة كل شاعر، وكتاب عن الشعر العربي في الجزيرة العربية والخليج العربي كتراث.

■ **إن صدور معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين عن المؤسسة يعدّ عملاً جليلاً سيسجله للأستاذ عبد العزيز سعود البابطين تاريخ الحركة الأدبية، لما فيه من جهد وعلم وتأصيل سيعود على المثقفين والباحثين وعلى الجامعات والمعاهد العليا بفوائد جمة. هلا تحدثتم لنا عن هذا الإصدار الضخم؟**

□ هذا المعجم الذي بدأ خاطرة تختلج في صدري وهاجساً يجيش به فؤادي أفضي به مرة إلى الأصدقاء، وأخرى إلى مجلس الأمناء، فلا يخلو الإعجاب بفكرته من الإشفاق على من يتصدى له لما يقتضيه من جهد، وما يحتاجه من مثابرة وما يتكلفه من أعباء.

هذا المعجم الذي كان حلماً فخاطراً فاحتمالاً، أصبح الآن حقيقة تتجسد عبر ستة مجلدات كوامل تناهز خمسة آلاف من الصفحات وتؤرخ لألف وستمائة وخمسة وأربعين شاعراً، وتطرح نماذج من فيض قرائحهم. وتضيف إلى هذا وذاك مجموعة من أدق الفهارس المصممة وفق أحدث المناهج العلمية، بما يمكن للباحثين والدارسين والنقاد من التعرف على الشعراء وبيئاتهم وإبداعاتهم الشعرية، وبما ييسر لهم ذخيرة من المادة الشعرية جديرة بأن تحدث طفرة في الدراسات الأكاديمية حول الشعر ونقده.

إن الجهد الذي بذل في إعداد هذا المعجم الفريد يتحدث عن نفسه بدءاً من تصميم نحو أربعة آلاف استمارة لتسجيل سير الشعراء وتدوين إنتاجهم، ومروراً لتوزيع هذه الاستمارات وجمعها على أيدي فرق متخصصة، ووفود عديدة كانت تقوم باللقاء



المباشر مع الشعراء في كل الأقطار العربية عبر كل مدينة وقرية وبادية، ناهيك عن الاتصال بالطيور المهاجرة من المبدعين العرب في أمريكا وأوروبا وانتهاء بفحص وتصنيف كل هذا الإنتاج الضخم من خلال مستويات عديدة من اللجان الفنية، حتى جاء المعجم على نحو ما جاء به من صور صادقة لخريطة الشعر العربي المعاصر، بكل تخومها وتضاريسها وألوانها الفنية.

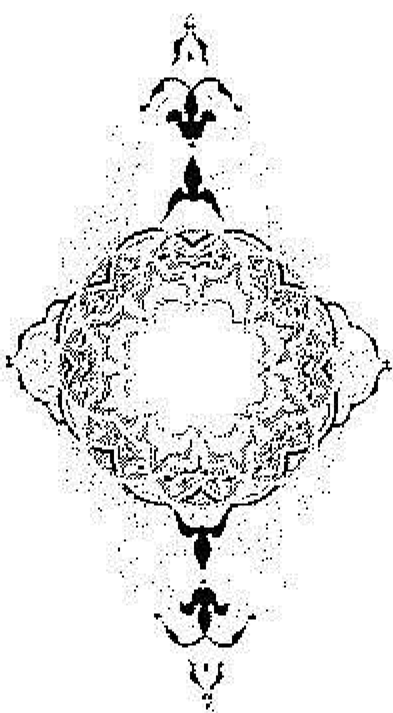
إن هذا المعجم هو التجلي الحيّ للوشيجة العربية حين تعز الوشائج وهو الآصرة القومية بين الأقطار العربية في حقبة تهرأت فيها الأواصر. فهو يجمع ولا يفرق، يوحد ولا يبدد، وهو يضم كل المبدعين الناطقين بالعربية، مهما تناءت بهم الديار، ومهما اختلفت بهم المذاهب والمناهج والتيارات، لا تضيف لهم من خلاله إلا ما تقتضيه حروف الهجاء من تصنيف، ولا تمييز بينهم إلا ما عسى أن يلمسه القارىء بنفسه حين يطالع السجل الضخم لإبداعهم، وهو من قبل ومن بعد درة في عقد بدأ بالضبّي في «المفضليات»، والأصمعي في «الأصمعيات»، وأبي تمام والبحتري والبارودي وغيرهم ممن أرسوا لجمع الشعر العربي قواعد الفضل التي أعاننا الله سبحانه وتعالى على إتمامها.

■ زرتم مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي واطلعتم على أقسامه ومحتوياته. هل هل يمكن أن نستفيد من ملاحظاتكم وآرائكم حوله؟

□ سمعت الكثير عن هذا المركز وخاصة من أخي عبد الكريم لزيارته للمركز قبلي وهو خير ناقل، ولم أكن أتوقع وأتصور ما رأيته في الحقيقة ولا أخفي لأني عبرت عنه بكل حرية فقلت لمؤسسه السيد جمعة الماجد.. أنت رجل كبير والرجال الكبار هم الذين يعملون الأشياء الكبيرة.

إن فضل السيد جمعة الماجد ليس علينا نحن أو على الأجيال القادمة فحسب وإنما الفضل أيضاً على الأوائل الذين ألفوا هذه المخطوطات وهو باهتمامه اليوم بها وبجمعها وترميمها والحفاظ عليها وإيصالها للمتلقي هذا الشيء نكبره إكباراً كبيراً، ويسرني أن أتوجه إليكم وإلى مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ومؤسسه الأخ الكريم والصديق الحميم الأستاذ الفاضل جمعة الماجد وإلى كافة الأخوة العاملين فيه بأسمى آيات الشكر والتقدير لما تقومون به من إنجازات كبيرة وجليلة لخدمة الثقافة العربية، ولمشاعركم الصادقة تجاه مؤسستنا التي لا نبتغي من وراء إنشائها ودعمها والسعي المتواصل لتطويرها سوى رضا الله العلي القدير وخدمة الثقافة العربية عامة والشعر العربي خاصة.

وإنني لأحمد الله سبحانه وتعالى أن هدانا إلى طريق الخير والرشاد، ويسر لنا سبل خدمة لغة القرآن الكريم والحفاظ على الشعر العربي الذي هو ديوان العرب ورمزاً من رموز إبداعاتهم الثقافية والأدبية، والعمل على إعلاء صرحه والارتقاء به إلى المستوى الذي يتمناه كل غيور على تراثنا العريق وإعادته إلى مكانته الرفيعة التي كان يتحملها في الوطن العربي.

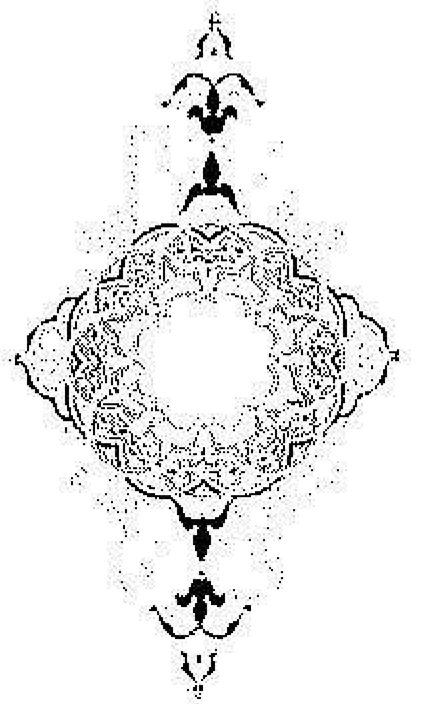


معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين في سطور

- معجم فريد في نوعه، يضم تراجم ذاتية، ونماذج شعرية لما يزيد على (١٧٠٠) شاعر من المعاصرين الأحياء، موزعين على ثمانية وعشرين بلداً عربياً، وأجنبياً، تمّ استخلاصهم من أكثر من (٣٠٠٠) استمارة.
- نتاج عمل متواصل وجهد دؤوب لمدة تزيد على ثلاث سنوات منذ إقرار مجلس أمناء المؤسسة لخطة العمل في عام ١٩٩١.
- جمعت مادة المعجم بطريقة ميدانية بواسطة المندوبين والمراسلين ومن خلال الزيارات واللقاءات المباشرة، وتغطية الندوات والمهرجانات الشعرية العربية، وعن طريق الإعلانات الصحفية، والحملات الإعلامية، والمكاتبات الرسمية والشخصية.
- تولى شعراء المعجم بأنفسهم كتابة المادة التي شكلت سيرهم الذاتية، كما قاموا بإرسال أشعارهم التي تمّ اختيار نماذجهم الشعرية منها.
- اختير لكل شاعر نماذج من شعره تمثل إبداعه في تطوره وتنوعه قدر الإمكان.
- قام بقراءة المادة الشعرية واختيار النماذج لجنة فنية من النقاد والشعراء.
- تضمنت السيرة الذاتية للشاعر تعريفاً به شمل تاريخ ميلاده، ومكانه، وحياته العلمية، ونشاطه العملي، وأعماله الشعرية، ومؤلفاته، والجوائز وشهادات التقدير التي حصل عليها وما كتب عنه من دراسات أو تعليقات، وعنوان مراسلته.
- خصص لكل شاعر صفحتان متقابلتان من القطع الكبير، قُسِّمت الصفحة الأولى منهما إلى عمودين، شغلت السيرة الذاتية العمود الأول وترك باقي الحيِّز للنماذج الشعرية.
- يفرد المعجم حيزاً للشعراء العرب الذين يقيمون في الدولة الأوروبية والمهاجر، وللشعراء غير العرب الذين يكتبون شعرهم باللغة العربية، وقد شمل ذلك شعراء من الأرجنتين، وإسبانيا، والدانمرك، وأمريكا، وتركيا، وإيران، والصين، وغيرها.
- يفسح المعجم مكاناً للشباب الشعراء من ذوي المستوى الجيد، كما يجذب إلى دائرة الضوء شعراء لم يحظوا بعد بما يستحقونه من عناية الساحة الأدبية.
- تتصدر المعجم دراسة مركزة تتناول اتجاهات الشعر العربي الحديث، وأشهر أعلامه، وتتابع الحركة الشعرية المعاصرة على الساحة الأدبية وترصد التيارات البارزة في الإنتاج الشعري الحديث، بما يسمح بتغطية الفترة الزمنية التي تبدأ من منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن.

مؤسسة البابطين : الفكرة - الأهداف - الإنجازات

- بدأت فكرة إنشاء هذه المؤسسة بداية بسيطة، نابعة من شاعر أحب الشعر والشعراء، بل اعتبر الشعر بداية الإبداع ونهايته، وخاصة من خواص الأمة العربية التي عرفت بالشعر منذ القدم، لقد كان



يتمنى خدمة الحركة الشعرية العربية منذ وقت مبكر، ولكن ضيق اليد لم يمكنه من تحقيق حلمه في ذلك الوقت، وبقيت الفكرة تراوده وتلحّ عليه، وحينما رزقه الله وصار بإمكانه تحقيق ما تمناه انتقلت الفكرة من الذهن إلى اللسان فعرفت بين الأصدقاء، فخطت خطوة إلى الأمام، وبدأ بعدها يستمع لعدد من المقترحات المفيدة، حتى توصل إلى إعلانها وبحثها مع عدد من المختصين في الكويت ثم القاهرة. وهكذا تحولت هذه الفكرة إلى حقيقة واقعة، وولدت مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، وعرفت بأنها مؤسسة ثقافية محضة، ليس لها أي أهداف سياسية أو تجارية، ومقرها الرئيسي في جمهورية مصر العربية بالقاهرة، حيث تعقد اجتماعات مجلس الأمناء، وهيئة المعجم ولجان التحكيم.

- تهدف المؤسسة بصورة أساسية إلى إثراء حركة الشعر العربي ونقده، وتشجيع التواصل بين الشعراء والمهتمين بالشعر العربي وتوثيق الروابط بينهم، من خلال:
- إقامة مسابقات في الشعر العربي وفي نقد الشعر.
- طبع الأعمال الفائزة بالمسابقات والندوات وبعض الكتب الأخرى المتصلة بالشعر والشعراء.
- تكريم المبدعين العرب في مجال الشعر ونقده، والدراسات والأبحاث الحديثة حوله.
- إصدار معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، أينما وجدوا، والتعريف بإنتاجهم.
- إنشاء مكتبة مركزية للشعر العربي والدراسات الأدبية والنقدية والتاريخية المتصلة بالشعر والشعراء.

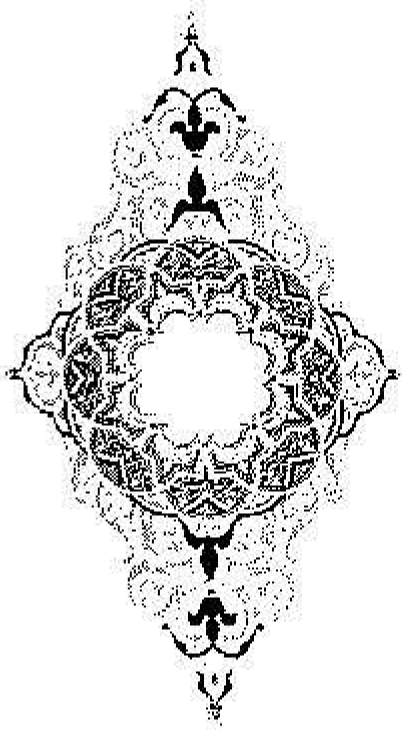
ويتولى إدارة شؤون الجائزة والتخطيط لها مجلس أمناء مكوّن من نخبة من رجال الأدب والفكر في الوطن العربي، ويقوم هذا المجلس بعمله وفقاً للائحة الخاصة التي وضعها لنفسه، كما يشكل لجان التحكيم التي تحدد لائحة التحكيم قواعد عملها لكل دورة، كما أنه المسؤول عن الإشراف على أي مشروع ثقافي تقوم به المؤسسة.

طموحات المستقبل

من يعرف الأستاذ عبد العزيز سعود البابطين راعي هذه المؤسسة لابد له أن يدرك أن المؤسسة لن تقف عند تقديم الجائزة وعقد الندوات وإصدار المعجم، بل إن طموحات الرجل في النهوض بالحركة الأدبية والارتقاء بالشعر إلى المستوى اللائق وتكريم الشعراء لا حدود له، وقد عبّر عن ذلك بقوله:

لو قيل لي تملك الدنيا بأجمعها
ولا تكون أديباً يحسن الأدبا
لقلت لا أبتغي هذا بذاك ولا
أرى لنفسي فيما دونه أربا
لجلسة مع أديب في مذاكرة
أنفي بها الهم أو أستجلب الطربا
أبهى إليّ من الدنيا وزخرفها
وملئها فضة أو ملئها ذهبا

فالمشروعات التي تقوم بدراستها المؤسسة



الآن كثيرة ولعلّ منها:

■ المطبوعات الفصلية التي ستهتم أيضاً بالشعر والشعراء العرب.

■ طبع الأعمال الفائزة بدورات المؤسسة المختلفة.

■ تحقيق التراث في مجالات الشعر ونقده.

■ تنفيذ بعض الأنشطة الأدبية في العديد من الدول العربية.

■ إقامة ندوات شعرية يقدم بها الشعراء نماذج من أشعارهم يعقبها حوار نقدي.

■ توثيق الصلة بشعراء الأرض المحتلة، ورفع الحصار الثقافي عنهم عن طريق دعوتهم إلى أنشطة المؤسسة.

■ تقديم برامج تلفزيونية وإذاعية للتعريف بأنشطة المؤسسة وإصداراتها الأدبية.

الشاعر عبد العزيز سعود البابطين في سطور

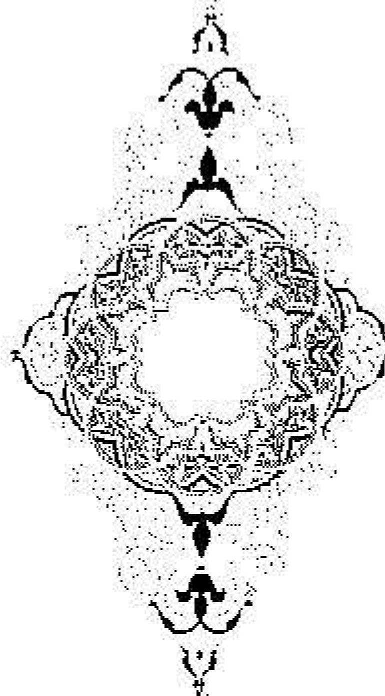
■ ولد في الكويت عام ١٩٣٦، وتربى في ظل أسرة شاعرة، فقد كان والده شاعراً (نبطياً)، وعمه الشيخ عبد المحسن إبراهيم البابطين الذي كان قاضياً في الثلاثينيات شاعر كذلك، وجده لأمه شاعر، بل كان أمير شعراء النبط في الجزيرة والخليج (وهو الشاعر محمد بن لعبون).

■ أحب الشعر منذ طفولته، وتابع الشعراء، وقرأ لهم الكثير من إبداعهم وسيرهم، فتأثر بذلك كثيراً، وكتب أول قصيدة - وكانت من الشعر النبطي - وعمره إحدى عشرة سنة، أما أول قصيدة بالفصحى فكانت بعد ذلك بقليل عام ١٩٥١، وكانت سنة خمس عشرة سنة.

■ من رجال الأعمال المعروفين في الكويت وله نشاط تجاري وصناعي بارز في مجالات البتروكيماويات، والصناعات الغذائية، في أوروبا وأمريكا والصين والشرق الأوسط وله استثمارات عقارية في الكويت والمملكة العربية السعودية وجمهورية مصر العربية.

■ له إسهامات عديدة في أعمال الخير والبر والإحسان لنفع المسلمين، وطلبة العلم وخدمة اللغة العربية الخالدة، لغة القرآن الكريم، ومن أعماله الإنسانية تكفله بتمويل نفقات الدراسات العليا لمئة طالب كل سنة من الدول الإسلامية التي انسلخت عن الاتحاد السوفييتي مؤخراً، يستقدمهم للدراسة بجامعة الأزهر.

■ قام بإنشاء هذه المؤسسة والإنفاق عليها من خالص ماله، إيماناً منه بأهمية الشعر، ومكانة الشعراء، وربطاً لشباب هذا الجيل والأجيال القادمة بماضيهم وتذكرة لهم بأن الشعر كان - وما يزال وسيظل - ديوان العرب يسجل مفاخرهم، ومآثرهم، وأخبارهم، وأيامهم، والأهم من كل هذا يعبر عن أحاسيسهم، وآرائهم في الحياة والناس.



الدولة العثمانية

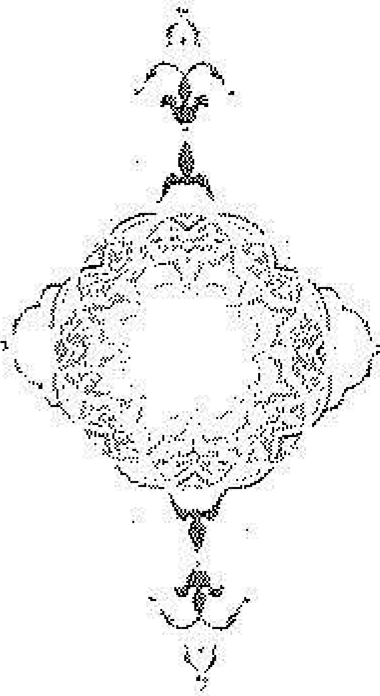
في الكتب والرسائل الجامعية

الأستاذ عبد الرحمن احمد عبدالهادي فراج
جامعة القاهرة - كلية الآداب

تهدف هذه الوراقية (الببليوغرافية) إلى إعلام الباحثين في تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها بما صدر في هذا المجال من كتب ورسائل جامعية باللغة العربية. وتنقسم إلى أربعة موضوعات رئيسية هي: التاريخ العام للدولة العثمانية، وتراجم السلاطين والمؤرخين، والعلاقات الدولية، وتاريخ العثمانيين في الوطن العربي ودوله المختلفة. وتدور الموضوعات الدقيقة داخل هذه القطاعات الرئيسية حول الفتوح العثمانية والتاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي والإدارة والقضاء والتجارة الخارجية والتصوف والآثار وأهل الذمة ووثائق الوقف والتكايا والإيجار والاستبدال، إلى غير ذلك من مظاهر الحضارة في الإمبراطورية العثمانية.

رصدت الوراقية ٦٧ كتاباً و٤١ رسالة جامعية في هذا المجال الحيوي الذي ينصب على تاريخ آخر معاقل الخلافة الإسلامية. وقد رتبت هذه المواد جميعها في ترتيب ألفبائي واحد، وفقاً لأسماء المؤلفين والباحثين ومن في حكمهم، وذلك تحت رؤوس الموضوعات الرئيسية سالفة الذكر، فيما ذيلت الوراقية بكشاف للمؤلفين.

أما البيانات التي أعطيت عن كل مادة فهي اسم الباحث، عنوان العمل، اسم المترجم أو المحقق أو المشرف إذا كان العمل مترجماً أو محققاً أو كان أطروحة جامعية، بيان الطبعة، مكان النشر والناشر وتاريخ النشر، عدد الصفحات أو المجلدات، السلسلة في حالة



وجودها. ويسبق هذه البيانات رقم المادة داخل الوراقية بين قوسين وهو الرقم الذي يحيل القارىء من الكشاف إلى الجسم الرئيسي للوراقية. كما يسبق هذا الرقم علامة نجمة (*) إذا كان العمل الفكري رسالة جامعية.

وبعد، فإننا نرجو أن يكون في هذا العمل نفع للباحثين والمؤرخين. ويحدونا الأمل إلى إكمال هذه الوراقية في عمل كبير آخر، يتم فيه استكمال فوات هذا الحصر، ويُضاف إليه ما نُشر في تاريخ العثمانيين وحضارتهم من مقالات الدوريات وبحوث المؤتمرات.

التاريخ العام

(١) إبراهيم الأسود، الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية، بعبدا، لبنان، ١٨٩٨.

(٢) إبراهيم بك حليم، التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، ط١، القاهرة: مطبعة ديوان عموم الأوقاف، ١٩٠٥.

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ط٢، القاهرة، بيروت: دار الشروق، ١٩٩٣، ٣٢٦ ص.

(٤) جمال عبد الهادي محمد مسعود ووفاء محمد رفعت جمعة وعلي أحمد لبن، أخطاء ينبغي أن تصحح في التاريخ: الدولة العثمانية، ٦٩٩ - ١٣٤٣ هـ، ١٢٩٩ - ١٩٢٤ م، ط١، المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤، ١٢٣ ص. (نحو تأصيل إسلامي للتاريخ).

* (٥) حلمي أحمد عبد الفتاح شلبي، انتهاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٧٨. رسالة ماجستير.

(٦) زياد أبو غنيمة، جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، ط١، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٩٨٣، ٢٩٤ ص. (دراسات إسلامية هادفة، ٧).

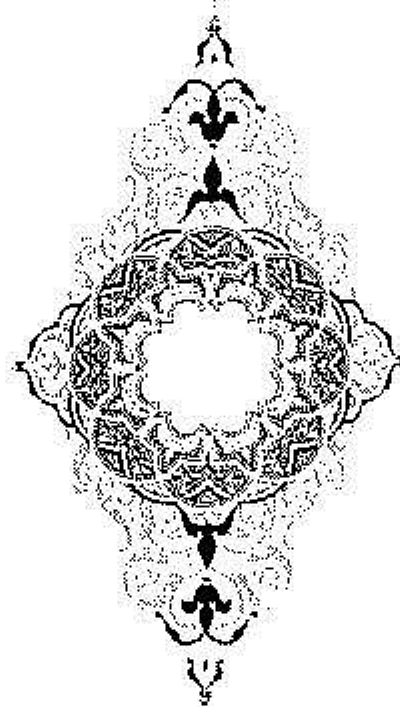
(٧) سليمان البستاني، عبرة وذكرى، أو، الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٨، ٢٥٤ ص.

* (٨) سون جو يونج، الخلافة الإسلامية، من ١٢٩٣ إلى ١٣٤٣ هـ = ١٨٧٦ - ١٩٢٤ م. إشراف بدوي عبد اللطيف، القاهرة: جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ١٩٨٤. رسالة دكتوراه.

(٩) عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠ - ١٩٨٦، ٤ مج.

* (١٠) علي علي أفندي، تاريخ الأتراك العثمانيين في فجر حياتهم، القاهرة: جامعة الأزهر، كلية أصول الدين، ١٩٣٣. رسالة ماجستير.

(١١) مانتران، روبير (مشرف)، تاريخ الدولة



العثمانية، ترجمة بشير السباعي، ط١، القاهرة: دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣، ٢ مج.

(١٢) مجدي عبد المجيد الصافوري، سقوط الدولة العثمانية وأثره على الدعوة الإسلامية، ط١، القاهرة: دار الصحوة، ١٩٩٠، ٣٥٨ ص.

(١٣) محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، بيروت: ١٩٢٥. (ج٢: ١٩٥٢).

(١٤) محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، القاهرة: المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، ١٩٩٤، ٣٢٨ ص. (سلسلة دراسات عثمانية).

(١٥) محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط٢، بيروت: دار النفائس، ١٩٨٣، ٨٣٠ ص.

(١٦) محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، ط٢، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ١٧٩ ص. (ألف الكتاب الثاني؛ ١١٩).

(١٧) محمود ثابت الشاذلي، المسألة الشرقية: دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، ١٢٩٩ - ١٩٢٣ م. ط١، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٩، ٢٩١ ص.

(١٨) مصطفى حلمي (تقديم ودراسة)، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية، ط١، الإسكندرية: دار الدعوة للطبع والنشر، ١٩٨٥، ٢٧٧ ص.

(١٩) وجيه كوثراني، الفقيه والسلطان: دراسة في تجربتين تاريخيتين: العثمانية والصوفية والصفوية القاجارية، القاهرة: المركز العربي الدولي، ١٩٩٠، ٢١٢ ص.

(٢٠) يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، تـ هيام عبد الوهاب الجابي، دمشق: دار البصائر، ١٩٨٥.

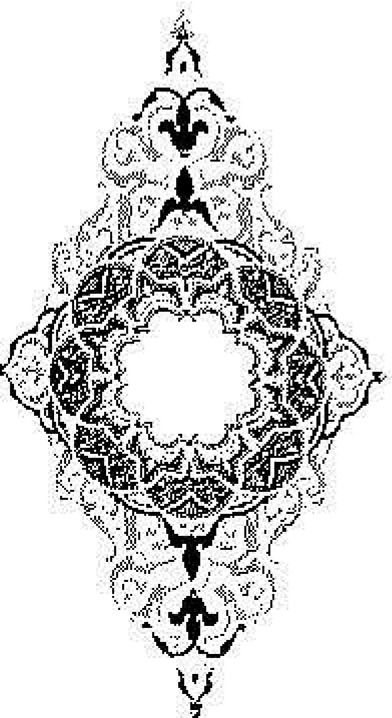
التراجم

(٢١) إبراهيم المويلحي. ما هنالك من أسرار بلاط السلطان عبد الحميد، دراسة تاريخية أحمد حسين الطحاوي؛ تقديم علي شلش، القاهرة: المركز العربي للإعلام والنشر، ١٩٨٦، ٣٤٩ ص. (كتاب المركز العربي؛ ١).

* (٢٢) أحمد محمد أحمد، الإصلاحات العثمانية ابتداء من عهد السلطان سليم الثالث حتى عهد السلطان عبد العزيز في ضوء المصادر التركية، إشراف فايزة فؤاد الشافعي، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٨١. رسالة ماجستير.

(٢٣) أنور الجندي، السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية: تصحيح أكبر خطأ في تاريخ الإسلام الحديث، ط١، القاهرة: مكتبة السنة؛ بيروت: دار ابن زيدون، ١٩٨٧، ٢٢٨ ص.

(٢٤) رفيق شاكر الفنشه، السلطان عبد



الحميد الثاني وفلسطين: السلطان الذي خسر عرشه من أجل فلسطين، ط٣، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩١، ١٩٧ ص.

* (٢٥) سالم أحمد الرشيدي، السلطان الفاتح: سياسته - حروبه - فتوحاته، القاهرة: جامعة الأزهر، كلية أصول الدين، ١٩٤٩. رسالة دكتوراه.

(٢٦) ليلى الصباغ، من أعلام الفكر العربي في العصر العثماني الأول: محمد الأمين المحبي المؤرخ وكتابه خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، ١٠٦١ - ١١١١ هـ = ١٦٥١ - ١٦٩٩ م، ط١، دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، ١٩٨٦، ٧١٠ ص.

(٢٧) محمد حرب، مذكرات السلطان عبد الحميد/ ترجمها عن النص الأصلي وكتب مقدمتها وحواشيها وقابلها بمذكرات للمعاصرين محمد حرب، ط٣، مزيدة ومنقحة، دمشق: دار القلم، ١٩٩١، ٣١٨ ص.

* (٢٨) محمد حمد عبد اللطيف الجعفري، سياسة السلطان عبد الحميد الثاني الإسلامية، إشراف عبد العزيز الشناوي، القاهرة: جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ١٩٧٨. رسالة ماجستير.

(٢٩) محمد عبد اللطيف البحراوي، حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني، ١٨٠٨ - ١٨٣٩، ط١، القاهرة: توزيع دار التراث، ١٩٧٨، ٣١٠ ص.

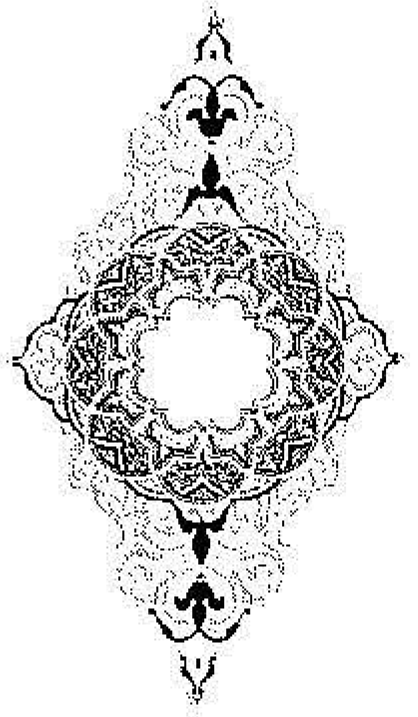
* (٣٠) محمد عبد اللطيف البحراوي، حركة الإصلاح العثماني في عهد السلطان محمود الثاني، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٦٨. رسالة دكتوراه.

* (٣١) ناهد إبراهيم دسوقي، محاولات الإصلاح في عهد السلطان سليم الثالث وأثر الغرب فيها، ١٧٨٩ - ١٨٠٧، إشراف عمر عبد العزيز عمر، الإسكندرية: جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، ١٩٨١. رسالة دكتوراه.

العلاقات الدولية

* (٣٢) أحمد محمد عبيد بطي سمبيج، الصراع البرتغالي العثماني في شرق أفريقيا في القرن السادس عشر الميلادي، إشراف شوقي عطا الله الجمل، القاهرة: جامعة القاهرة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، ١٩٨٩. رسالة ماجستير.

* (٣٣) توفيق حسن فوزي، رؤية الوثائق والمصادر التركية للصراع العثماني الصفوي ومقدماته في عهد بايزيد الثاني وسليم الأول، إشراف أحمد فؤاد متولي، وجمال زكريا قاسم، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٨٧. رسالة ماجستير.



(٣٤) حقي العظم، تاريخ حروب الدولة العثمانية مع اليونان، ط١، القاهرة: مطبعة الترقي، ١٩٠٢.
(٣٥) زكريا سليمان بيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين: التحالف الصليبي الماسوني الاستعماري وضرب الاتجاه الإسلامي، ط١، عمان: دار الإبداع للنشر والتوزيع، ١٩٩١، ٩٩ ص.
(٣٦) عبد الله سراج عمر منسي، المواجهة العثمانية البريطانية في الخليج العربي، ١٨٦٩ - ١٩١٤ م. [د.م:د.ن]، ١٩٩٤، ٣١٦ ص. (دراسات في تاريخ الخليج العربي؛١).
* (٣٧) علاء موسى كاظم، الصراع العثماني الفارسي وأثره على العراق في القرن الثامن عشر، إشراف السيد رجب حراز، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٧٨. رسالة دكتوراه.
(٣٨) علي حسون، تاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٠.
(٣٩) علي حسون، العثمانيون والروس، بيروت: المكتب الإسلامي، ١٩٨٢.
(٤٠) كولتر، بول، العثمانيون في أوربا، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ٢٢٣ ص. (ألف الكتاب الثاني؛ ١٢٦).
(٤١) محمد بن محمود الحلبي الملقب بابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، مع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، صنعة محمد أحمد دهمان، ط١، دمشق: دار الفكر، ١٩٨٦، ٤٤٣ ص.
(٤٢) محمد عبد اللطيف هريدي، الحروب العثمانية الفارسية وأثرها على انحسار المد العثماني في أوربا، ط١، القاهرة: دار الصحوة للنشر والتوزيع، ١٩٨٧، ٩٣ ص.
(٤٣) محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة: دار الثقافة، ١٩٧٦، ٤٩٤ ص.
(٤٤) محمود حسن عبد العزيز الصراف، معركة جالداران، ٩٢٠ هـ = ١٥١٤ م: أولى صفحات الصراع العثماني الفارسي: الأسباب والنتائج، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩١، ١٥١ ص.

العثمانيون في العالم العربي

عام

(٤٥) أحمد عبد الرحيم مصطفى وآخرون، تاريخ العرب الحديث منذ الغزو العثماني حتى الوقت الحاضر، ط٢، القاهرة: مؤسسة المطبوعات الحديثة، ١٩٦١، ٢٠٧ ص.
(٤٦) توبي، جاك، الامبريالية الفرنسية والولايات العربية في السلطنة العثمانية، ١٨٤٠ - ١٩١٤، نقله إلى العربية فارس

غصوب؛ راجعه مسعود ضاهر، ط١، بيروت: دار الفارابي، ١٩٩٠، ١٥٩ ص. (سلسلة تاريخ المشرق العربي الحديث).

(٤٧) توفيق برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني، ١٩٠٨ - ١٩١٤، ط١، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ١٩٩١، ٥٢٣ ص.

(٤٨) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ط٣، القاهرة: معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٦٥، ٢٨٧ ص.

(٤٩) سيار الجميل، العثمانيون وتكوين العرب الحديث والمعاصر: من أجل بحث رؤيوي معاصر، ط١، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٩، ٥٢٥ ص.

(٥٠) عبد الجليل التميمي (جمع وتقديم)، الحياة الاقتصادية للولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني، زغوان، تونس: مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، ١٩٨٦، ٣ مج في ٢.

(٥١) عبد العليم علي أبو هيكل، المشرق العربي من السيادة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى، القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٨٧، ٢٩٦ ص.

(٥٢) محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية: دراسة للقضية العربية في خمسين عاماً، ١٨٧٥ - ١٩٢٥، ط١، القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٨٥، ٢٥٩ ص.

(٥٣) محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي، ١٥١٤ - ١٩١٤، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٥، ٣٠١ ص.

(٥٤) منير إسماعيل (جامع)، الصراع الدولي حول المشرق العربي: الوثائق الدبلوماسية، القسم الأول: عهد الولاة في الدولة العثمانية، ١٧٧١ - ١٨٧٦، جمع منير إسماعيل، عادل إسماعيل، تقديم ادغار بيزاني، سليم الحص، بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ، ١٩٩٠، مج١.

في الشام والأردن ولبنان

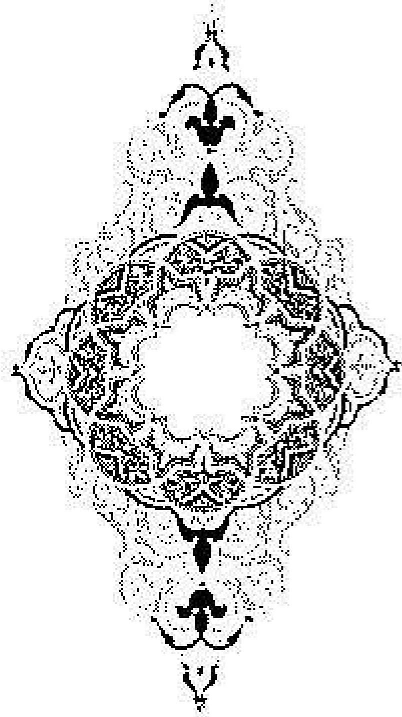
(٥٥) عليان الجالودي ومحمد عدنان بخيت، قضاء عجلون في عصر التنظيمات العثمانية، عمان: لجنة تاريخ الأردن، ١٩٩٢، ١٠٣ ص. (سلسلة الكتاب الأم في تاريخ الأردن؛ رقم ٤١١).

* (٥٦) ليلى عبد اللطيف الصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني منذ الفتح حتى أواخر القرن السابع عشر، إشراف محمد أنيس، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٦٦. رسالة دكتوراه.

(٥٧) يوسف الحكيم، بيروت ولبنان في عهد آل عثمان: ذكريات، ط٢، بيروت، ١٩٨٠.

في سوريا

* (٥٨) عبد العزيز محمد عوض، الإدارة



العثمانية في ولاية سورية، ١٨٦٤ - ١٩١٤، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٦٧. رسالة ماجستير.

* (٥٩) ليلى عبد اللطيف الصباغ، الفتح العثماني لسوريا ومطلع العهد العثماني بها، إشراف محمد أنيس، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٦٠. رسالة ماجستير.

في شبه الجزيرة العربية

* (٦٠) فائق بكر الصواف، العلاقات بين الدولة العثمانية وإقليم الحجاز في الفترة ما بين ١٢٩٣ - ١٣٣٤ م = ١٨٧٦ - ١٩١٦ م، إشراف عبد العزيز الشناوي، القاهرة: جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ١٩٧٥. رسالة دكتوراه.

(٦١) محمد رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه الجزيرة العربية، ١٨٤٠ - ١٩٠٩، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠، ٢١١ ص.

(٦٢) محمد عبد اللطيف هريدي، تاريخ شبه الجزيرة العربية في المصادر التركية العثمانية، القاهرة: دار الزهراء للنشر، ١٩٩٠، ٥٦ ص.

(٦٣) محمد عبد اللطيف هريدي، شؤون الحرمين الشريفين في العهد العثماني، في ضوء الوثائق التركية العثمانية، ط١، القاهرة: دار الزهراء للنشر، ١٩٨٩، ١٦٣ ص.

في العراق

* (٦٤) جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد منذ عهد الوالي مدحت، إشراف إبراهيم العدولي، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، ١٩٨٨. رسالة دكتوراه.

(٦٥) جميل موسى النجار، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد من عهد الوالي مدحت باشا إلى نهاية الحكم العثماني، ١٨٦٩ - ١٩١٧، ط١، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١، ٥٣١ ص.

(٦٦) سعد أبو دية، في العلاقات العربية العثمانية: ثورة الكرك عام ١٩١٠، عمان: مؤسسة رم للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٢، ٨٣ ص.

* (٦٧) عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، ١٨٣٠ - ١٨٧٢، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٦٤. رسالة دكتوراه.

في القدس

* (٦٨) بهجت حسين عبد الله، لواء القدس تحت الحكم العثماني، ١٨٤٠ - ١٨٧٣،

إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٧٣. رسالة ماجستير.

* (٦٩) عبد العزيز محمد عوض، متصرفية القدس في العهد العثماني، ١٨٧٤ – ١٩١٤، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٧٠. رسالة دكتوراه.

في مصر

* (٧٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى، الخديوي إسماعيل وعلاقته بالباب العالي، إشراف محمد شفيق غربال، وأحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٥١، ١٧٩. رسالة ماجستير.

(٧١) أحمد عبد الرحيم مصطفى، علاقات مصر بتركيا في عهد الخديوي إسماعيل، ١٨٦٣ – ١٨٧٩، الإسكندرية: دار المعارف، ١٩٦٧، ٢٧٣ ص. (المكتبة التاريخية).

(٧٢) أحمد الدمرداش كتخدا عزبان، مخطوطة الدرة المصانة في أخبار الكنانة: صفحات من تاريخ مصر العثمانية في القرن الثامن عشر، تـ دانيال كريسينيوس، عبد الوهاب بكر، القاهرة: دار الزهراء للنشر، ١٩٩٢، ٣٨٩ ص.

(٧٣) أحمد فؤاد متولي (تحقيق ومراجعة)، الخطة العسكرية التي وضعتها الدولة العثمانية لاسترداد مصر من قبضة محمد علي: تقرير مخطوط بالتركية، القاهرة: دار الزهراء للنشر، ١٩٩١، ٣٢ ص.

* (٧٤) السعيد رزق حجاج، العلاقات المصرية العثمانية، ١٨٤٨ – ١٨٥٤: عصر عباس الأول، إشراف عبد العزيز الشناوي، القاهرة: طبعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ١٩٨٠. رسالة دكتوراه.

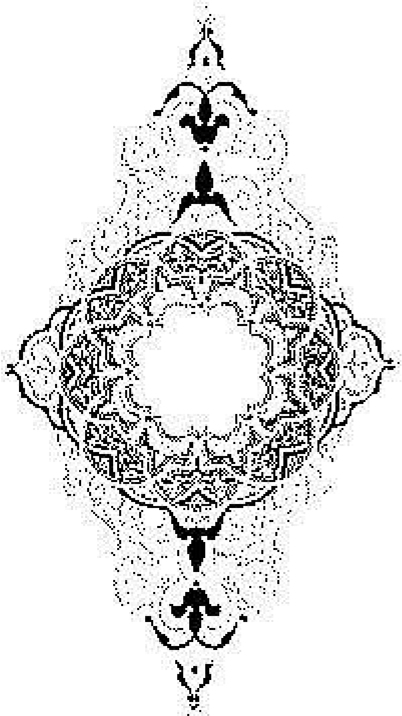
* (٧٥) توفيق الطويل، التصوف في إبان العصر العثماني، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٣٨. رسالة ماجستير.

(٧٦) جرجي زيدان، مصر العثمانية، تـ محمد حرب، القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٤، ٢١٦ ص. (كتاب الهلال).

(٧٧) جمال إبراهيم الخولي، دراسة مقارنة لوثائق الاستبدال في مصر في العصرين المملوكي والعثماني في القرن العاشر الهجري، إشراف عبد اللطيف إبراهيم، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٧٤، ١٦٣ ص. رسالة ماجستير.

(٧٨) ريمون، أندريه، فصول من التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب، القاهرة: مؤسسة روز اليوسف، ١٩٧٤، ٣٠٤ ص. (كتاب روز اليوسف؛ العدد ١٧).

* (٧٩) زينب طلعت أحمد، دراسة ونشر لبعض وثائق الوقف العثمانية في مصر في القرن الحادي عشر الهجري، إشراف عبد اللطيف إبراهيم، القاهرة: جامعة القاهرة،



كليـة الآداب، ١٩٧٥، ٢١٤ ص. رسـالة ماجستير.

* (٨٠) سوزان محمد فتحي، وثائق وقف السلطان سليم الثاني وباشوات مصر في عهده (٩٧٤ - ٩٨١ هـ)، إشراف عبد اللطيف إبراهيم، القاهرة: جامعة القاهرة، كليـة الآداب، ١٩٧٨، ٢ مج. رسـالة ماجستير.

(٨١) صلاح أحمد هريدي علي، الجاليات الأوربيـة في الإسكندرية في العصر العثماني: دراسة وثائقية من سجلات المحكمة الشرعية (٩٢٣ - ١٢١٣ هـ = ١٥١٧ - ١٧٩٨ م)، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨، ١٠٣ ص.

(٨٢) عبد الجواد صابر إسماعيل، مصر تحت الحكم العثماني، ط١، القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية، ١٩٨٩، ١٦٣ ص.

(٨٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠، ٣٨٦ ص. (تاريخ المصريين؛ ٣٨).

(٨٤) عبد العزيز محمد الشناوي، دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر إبان الحكم العثماني، القاهرة: مطبعة دار الكتب، ١٩٧٢، ٥٩ ص.

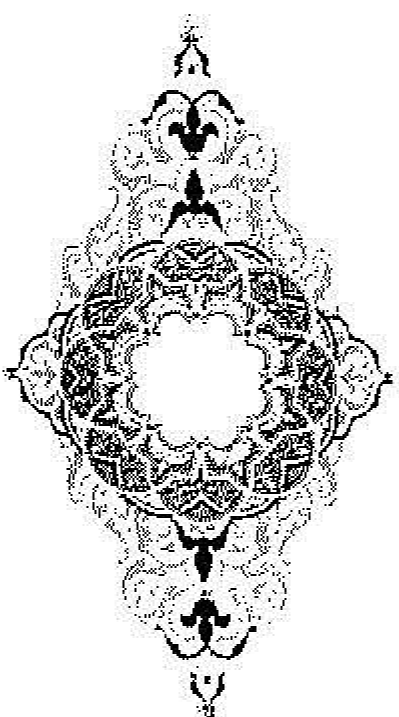
* (٨٥) عـراقي يوسف محمد يوسف، الأوجاقات العثمانية في مصر القرنين السادس عشر والسابع عشر، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٧٨. رسالة ماجستير.

* (٨٦) عـراقي يوسف محمد يوسف، الأوجاقات العثمانية في مصر من القرن الثامن عشر حتى أوائل القرن التاسع عشر، إشراف عبد العزيز نوار، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٨٤. رسالة دكتوراه.

* (٨٧) عصمت محمد حسن، تراجم الصواعق في واقعة الصناجق، تأليف إبراهيم بن أبي بكر الصالحي العوفي، تـ ودراسة لتاريخ مصر العثمانية من سنة ١٠٦٩ - ١٠٧١ هـ، إشراف عمر عبد العزيز عمر، الإسكندرية: جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، ١٩٨٨. رسالة دكتوراه.

(٨٨) عمر الإسكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، مع نبذة في أخبار بعض الأمم التي ارتبطت بمصر في ذلك العهد، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٠، ٣٠٤ ص. (صفحات من تاريخ مصر، ٦).

* (٨٩) ليلى عبد اللطيف أحمد، الإدارة في مصر في العصر العثماني، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: جامعة عين شمس، كليـة الآداب، ١٩٧٥. رسـالة



دكتوراه.

(٩٠) محمد أنيس، مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٢، ٥٨ ص.

* (٩١) محمد رفعت رمضان، ثورة على بك الكبير، ١٧٦٨ - ١٧٧٢، إشراف محمد شفيق غربال، القاهرة: جامعة القاهرة: كلية الآداب، ١٩٤٥. رسالة ماجستير.

* (٩٢) محمد رفعت رمضان، مصر والدولة العثمانية: دراسة تاريخية للعلاقات السياسية بين الطرفين من ١٨٤٠ إلى ١٨٦٣، إشراف محمد شفيق غربال، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٥٥. رسالة دكتوراه.

* (٩٣) محمد عبد الغني بدر، رسالة في النظام القضائي في مصر من الفتح العثماني إلى اليوم، القاهرة: جامعة الأزهر، كلية الشريعة الإسلامية، ١٩٣٧. رسالة ماجستير.

(٩٤) محمد عفيفي، الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١ - ٢٧٨ ص.

* (٩٥) محمد علي محمد، العلاقات المصرية العثمانية في عهد الوالي محمد سعيد، ١٨٥٤ - ١٨٦٣، إشراف محمود صالح منسي، القاهرة: جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، ١٩٧٨. رسالة ماجستير.

* (٩٦) محمد محمد توفيق، مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر، إشراف محمد شفيق غربال، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٤٣. رسالة ماجستير.

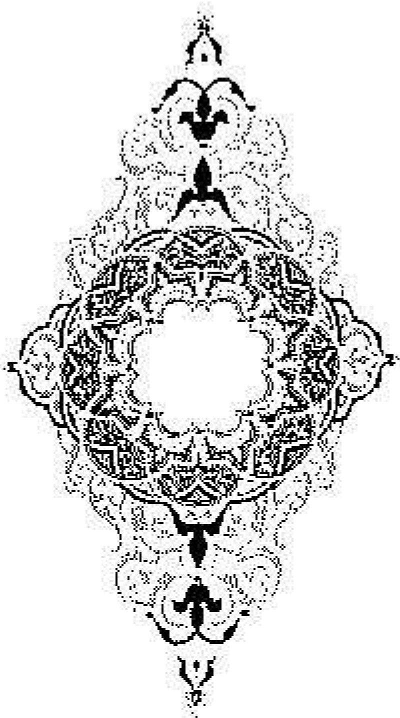
(٩٧) محمود حامد الحسين، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة، ١٥١٧ - ١٧٩٨ م، القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٨ - ٥٧٥ ص.

* (٩٨) مصطفى علي أحمد السيوفي، تاريخ التجارة الخارجية في مصر إبان الحكم العثماني، إشراف محمد أنيس، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٧٢. رسالة ماجستير.

* (٩٩) موسى موسى نصر، دور أهل الذمة في المجتمع المصري في العصر العثماني، ١٥١٧ - ١٧٩٨، إشراف عمر عبد العزيز عمر، وفاروق عثمان أباظة، الإسكندرية: كلية الآداب، ١٩٨٤. رسالة دكتوراه.

(١٠٠) موسى موسى نصر، صفحات مطوية من تاريخ مصر العثمانية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠، ١١٥ ص. (المكتبة الثقافية؛ ٤٥٦).

* (١٠١) ناهد حمدي أحمد متولي، دراسة ونشر لمجموعة من وثائق الإيجار في العصر العثماني في القرن الثاني عشر الهجري، إشراف عبد اللطيف إبراهيم، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب،



١٩٧٥، ٢ مج. رسالة ماجستير.

* (١٠٢) ناهد حمدي أحمد متولي، وثائق التكايا في مصر في العصر العثماني: دراسة وتحقيق ونشر، إشراف محمود عباس حمودة، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٨٤، ٣٥٤ ص. رسالة دكتوراه.

في المغرب العربي

(١٠٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، وثائق المحاكم الشرعية المصرية عن الجالية المغربية إبان العصر العثماني، مراجعة وتقديم عبد الجليل التميمي، زغوان، تونس: مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسيكية والتوثيق والمعلومات، ١٩٩٢، مج١.

(١٠٤) محمد شاكر مشعل، الشمال الإفريقي والعثمانيون: القرمانليون وشخصية ليبيا الدولية، ١٧١١ - ١٨٣٥، القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٦، ١٧٣ ص.

في اليمن

* (١٠٥) السيد جمال مصطفى، الفتح العثماني الأول لليمن، إشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة: جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٦٨. رسالة دكتوراه.

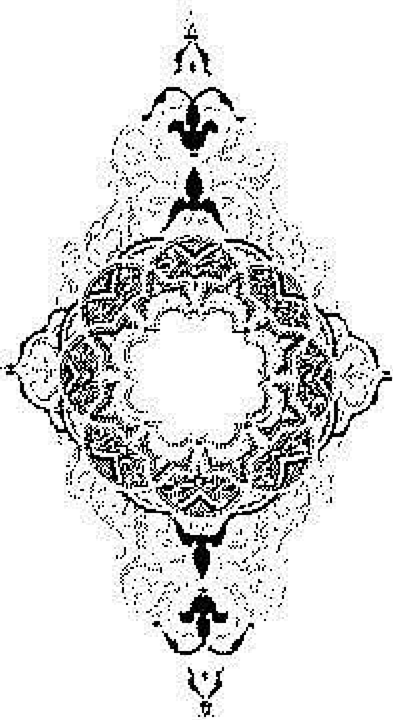
* (١٠٦) فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن، من ١٨٧٢ - ١٩١٨، إشراف محمد محمود السروجي، الإسكندرية: جامعة الإسكندرية، كلية الآداب، ١٩٦٦. رسالة ماجستير.

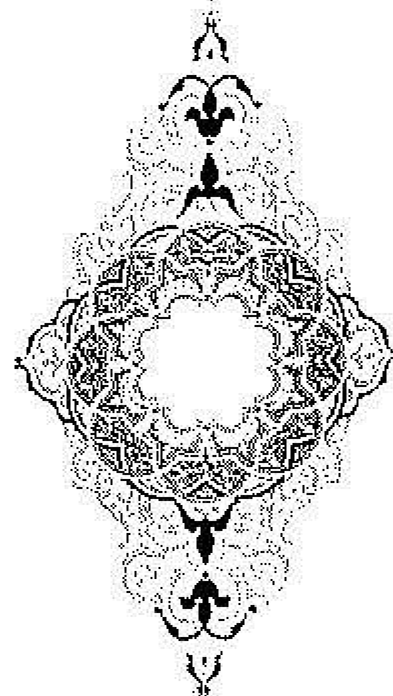
(١٠٧) عبد الله بن محسن الغرب، تاريخ اليمن الحديث: فترة خروج العثمانيين الأخير، تـ عبد الله محمد الحبشي، ط١، بيروت: دار التنوير، ١٩٨٦، ١٠٦ ص.

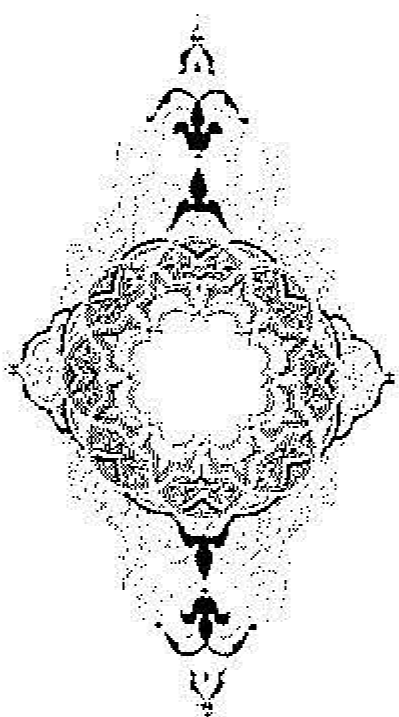
* (١٠٨) محمد عبد اللطيف الدسوقي، الشرق الأدنى تحت حكم العثمانيين: فتح العثمانيين عدن، إشراف محمد شفيق غربال، القاهرة: جامعة القاهرة، كلية الآداب، ١٩٥٤. رسالة ماجستير.

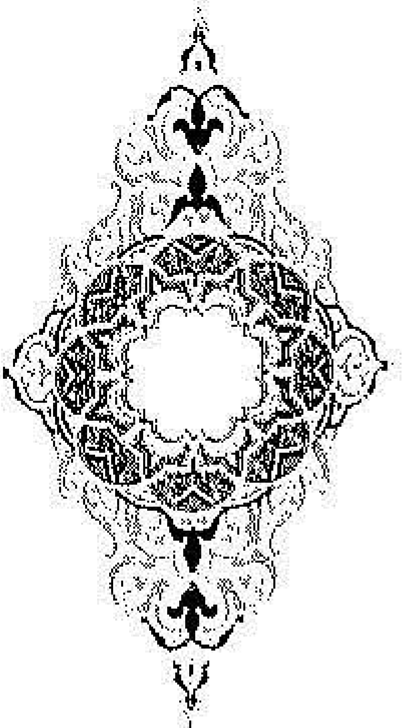
كشاف المؤلفين

(أ)









بيليوغرافيا

مخطوطات الكحل العربية في مكتبات العالم

الدكتور مسلم الزيبق
رئيس قسم التراث العلمي في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

أطلق العرب المسلمون اصطلاح (الكحالة) على طب العيون المتخصص. و(الكحل) في اللغة هو ما يوضع في العين للزينة والمداواة. وقد استخدموه مجازاً للدلالة على العمل الذي يقصد به مداواة العين، أي على ممارسة (صنعة) مداواة العين. ومن هنا جاء تعبير (الكحّال) ليدلّ على طبيب العيون العربي المتخصص.

شهد استخدام هذا المصطلح تطوراً ملحوظاً خلال عصر ازدهار العلوم العربية الإسلامية، فتوسعت دلالته لتشمل العلوم المتعلقة بوصف ووظيفة وتدبير وجراحة وأدوية ووقاية العين.

ويمكن تصنيف المؤلفات التي اهتمت بالكحالة في التراث العلمي العربي وفق عدة مستويات :

١ - المؤلفات الطبية العامة : وهي المؤلفات التي تتناول تشخيص وعلاج أمراض العين إلى جانب الفصول التي تهتم بتشخيص وعلاج أمراض الأعضاء الأخرى.

٢ - مؤلفات الأدوية : وهي المؤلفات التي تتضمن فصولاً خاصة بأدوية العين بما فيها

الأدوية المفردة والمركبة والأشكال الصيدلانية والأبدال.

٣ - مؤلفات الكحل : وهي المؤلفات التي اختصت بالبحث في (طب العيون).

وفيما يلي عرض لمخطوطات الكحل العربية في مكتبات العالم، وذلك من خلال ما توفر لدينا من مراجع :

□ **أدوية العين**

مجهول

(المتحف العراقي ٢/٢٢٤٣٧)

□ **أرجوزة في أمراض جفن العين**

مجهول

(الظاهرية ٥٠٦٤)

□ **أرجوزة في الكحل**

مجهول

(الجامعة الامريكية-بيروت ٦١٠/١١٣)

□ **الاستبصار في علاج أمراض الأبصار**

ابن سينا : الحسين عبد الله -٤٢٨هـ

(الظاهرية ٩٧١٠، الظاهرية ٨٩٢٦)

□ **أقر باذين من كتاب النهاية في علم العين**

مجهول

(تشستربيتي ٣٤٢٥)

□ **الأكحال والشيافات**

مجهول

(المكتبة الوطنية/ باريس ٣٠٤٢)

□ **البصر والبصيرة**

ثابت بن قرة -٢٨٨هـ

(دار الكتب المصرية/ طب تيمور ١٠٠، - المكتبة البريطانية/OR١١٧٧٢)

□ **تجريد كشف الرين**

ابن الأكفاني:محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري-٧٤٩هـ

(نور عثمانية ١/٣٥٧٦)

□ **تدقيق النظر في علل حاسة البصر**

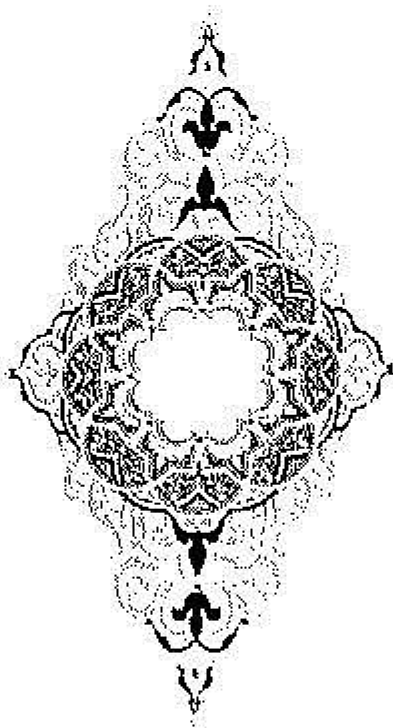
ابن وافد اللخمي : عبد الرحمن بن محمد -٤٦٧هـ

(سباط ٢٨٢٦)

□ **تذكرة الكحالين**

علي بن عيسى -٤٣٠هـ

(تشستربيتي ٤٠٠٢، تشستربيتي ٥٤١٦، الفاتيكان ٣١٣، المكتبة الوطنية/ باريس ٢٨٦٩، المكتبة الوطنية/ باريس ٢٩١٨، الأزهرية [٣٥] ٤٥١٧، الخديوية ٤٢٩٢، دار الكتب المصرية/ ٤٢ طب، المكتبة الرضوية/ مشهد ٥٠٦٤، دار الكتب المصرية/ ١٠٠ طب تيمور، مكتبة عبد الكريم حديد/ الموصل٢،



مجلس شواري ملي/ ١٥٦٩، امبروزيانا/ ٤٨، جامعة استانبول ٦١٧٦، جامعة الرياض/ ٦٥ طب، أياصوفيا ٣٥٨٥، أياصوفيا ٣٥٨٤، فاتح ١٤/٣٥٢٨، شهيد علي ٢٠١١، أحمد الثالث ١٩٥٥، أحمد الالث ١٩٦٤، نور عثمانية ٣٤٨٠، ولي الدين أفندي ٢٤٨١، علي أميري ٢٩٠٠، الظاهرية ٨٨٤٩، الظاهرية ٤٥٣٢، سامي حداد / بيروت ٢٠، غوتا ١٩٩٢، طوب قبوسراي ٧٢٢٣، طوب قبوسراي ٧٢٢٢، حسن حسني عبد الوهاب/ تونس ١٨٤٦٦، تشستربيتي ٤٥٣٤، المكرية البريطانية ٥٨٥٦)

□ تشريح العين

النجيب السمرقندي : محمد بن أشرف - بعد ٦٩٠هـ

(المتحف العراقي ٥/٣٧٧٠، نور عثمانية ٢/٣٦٠٩، مدرسة يحيى باشا الجليلي/ الموصل ٨)

□ تشريح العين واشكال ومداواة أعلالها

الكفرطابي : علي بن إبراهيم بن بختيشوع - ٤٦٠هـ

(دار الكتب المصرية/١٠٠ طب تيمور)

□ تعليقات على مسائل وأجوبتها من تذكرة الكحالين

دانيال بن شعيا - ق ٤هـ

(نور عثمانية ٢/٣٥٧٦)

□ جوامع جالينوس في الأمراض الحادثة في العين

مجهول

(تشستربيتي ٣٤٢٥، دار الكتب المصرية/١٠٠ طب تيمور)

□ الدرر في تنوير البصر

مجهول

(المتحف العراقي ٢/٢٤٣٠)

□ دغل العين

يوحنا بن ماسويه - ٢٤٣هـ

(دار الكتب المصرية/ ١٠٠ طب تيمور، سباط ٩٧)

□ رسالة في إصلاح العين

مجهول

(سوهاج ٥/٤١)

□ رسالة في أمراض العين

مجهول

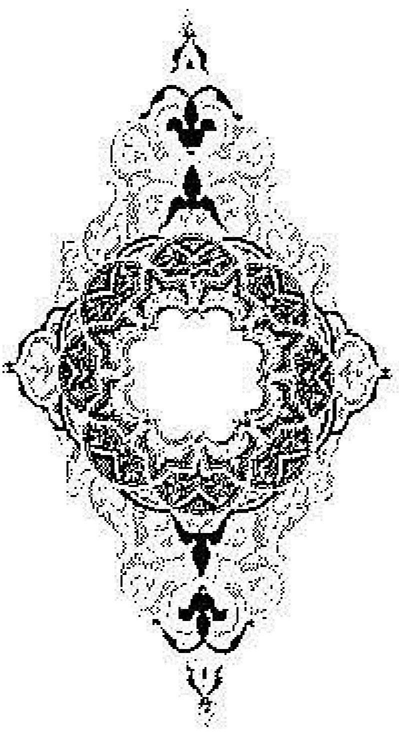
(تشستربيتي ٥٢٧١)

□ رسالة في أمراض العين

مجهول

(الظاهرية ٦٣٥٣)

□ رسالة في أمراض العين وأدويتها



مجهول
(دار الكتب المصرية/ ٣٣٩٨ ل)

□ **رسالة في تحديد أمراض العين**
مجهول
(مجلس شوراي ملي ١٥٣٨، مجلس شوراي ملي ١٥٦٨)

□ **رسالة في تركيب طبقات العين**
ابن مندويه : أحمد بن عبد الرحمن الاصفهاني - ٤١٠هـ
(سباط ٢٨٢٠)

□ **رسالة في تشريح العين**
ابن هبة الله : أحمد بن عثمان القيسي - ٦٥٧هـ
(نور عثمانية ٣٦٩٠/٢)

□ **رسالة في حفظ العين وتداويها**
العباس بن الفضل
(نور عثمانية ٣٤٩٠/٢)

□ **رسالة في صناعة الكحل وتشريح العين**
ابن الأكفاني : محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري-٧٤٩هـ
(راغب باشا ١٤٦٠/٢)

□ **رسالة في علاج ضعف البصر**
ابن مندويه : أحمد بن عبد الرحمن الاصفهاني - ٤١٠هـ
(سباط ٢٨٢١)

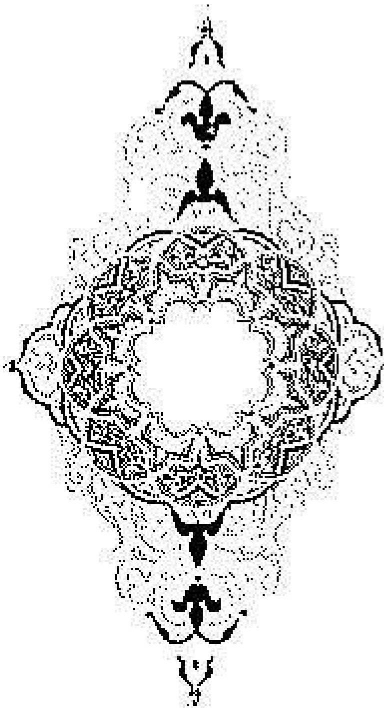
□ **رسالة في الكحل**
الشريف الكحال : سليمان بن موسى (برهان الدين) - ٥٩٠هـ
(سباط ٢٩٤٦)

□ **شرح تذكرة الكحالين**
مجهول
(دار الكتب المصرية/ ٣٦٦٨ ل، دار الكتب المصرية/ ٣٦٦٩ ل)

□ **طب العين**
مجهول
(غوتا ٢٠٣٤/٤)

□ **العشر مقالات في العين**
حنين بن اسحاق - ٢٦٠هـ
(دار الكتب المصرية/ ١٠٠ طب تيمور، غريفورويس/ لنينغراد)

□ **العمدة الكحلية في الأمراض البصرية**
مجهول
(تشستربيتي ٣٩٩٠)



□ **القول في تقاسيم علل العين واشكالها**

مجهول

(نور عثمانية ٣٥٧٦)

□ **الكافي في طب العين**

رشيد الدين الصوري - ٦٣٩هـ

(الظاهرية ٣١٤٣ ج)

□ **الكافي في الكحل**

خليف بن أبي المحاسن الحلبي - بعد ٦٧٤هـ

(المكتبة الوطنية/ باريس ٣٠٤٢، يكي جامع ٩٢٤)

□ **كتاب في أمراض العين**

ابن جماعة

(تشستربيتي ٤٠٠٥)

□ **كتاب في أمراض العين وعلاجها**

ابن وصيف الصابئ - ق ٤ هـ

(سباط ٢٨٢٨)

□ **كتاب في أمراض العين ومداواتها**

أعين بن أعين - ٣٨٥هـ

(سباط ٢٨٩٥)

□ **كتاب في علم العين وتركيبها ومنفعتها وعللها ومداواتها على**

طريق المسألة والجواب

موسى بن هارون بن سعدان

(نور عثمانية ٣٥٧٨)

□ **كتاب في العين**

ماسرجوية - ق ٣ هـ

(سباط ٢٩٧٥)

□ **كتاب في العين**

مجهول

(سباط ٢٤٢٣)

□ **كتاب في الكحل**

محمد بن أبي حليقة (مهذب الدين) - ٦٧٩هـ

(سباط ٢٠٠٧)

□ **كتاب في الكحل**

ابن الناقد (أبو الفضائل) - ٥٨٤هـ

(سباط ٢٨٢٢)

□ **كشف الرين في أحوال العين**

أبي الأكفاني : محمد بن إبراهيم ساعد الأنصاري - ٧٤٩هـ

(سباط ٢٨٢٢، سباط ١٣، أحمد الثالث ١٩٦٨، المالي ٦/٢٩٠٠، طوب قبوسراي ٧٢٨٥، الخديوية ٤٣٥٥، دار الكتب المصرية ٨٧ طب، الأزهرية [٨٤] ٧٦٧٠)

☐ **الكفاية في أمراض العين**

مجهول

(تشستربيتي ٤٩٩٩)

☐ **المختار في علاج الأبصار**

مجهول

(معهد التراث العلمي العربي انطاكي ١٢)

☐ **المرشد في طب العين**

الغافقي : محمد بن قسوم بن أسلم – ٥٦٠هـ

(اسكوريال ٨٣٥، دار الكتب المصرية ٣٣١٩ ل)

☐ **المسائل في العين**

حنين بن اسحاق – ٢٦٠هـ

(لايدن ٣/٦٧١، دار الكتب المصرية ٤٧٧ طب، سباط ٣٠٥، المكتبة البريطانية ٦٨٨٨، اسماعيل صاحب/ انقرة ١٨٤٨، لنينغراد/ غريغوريوس(886H) (IV,42)

☐ **معرفة محنة الكحالين**

يوحنا بن ماسويه – ٢٣٣هـ

(دار الكتب المصرية/ ١٠٠ طب تيمور، نور عثمانية ٤/٣٥٧٦، Leningrad VII bibl)

☐ **مقالة في علاج انتشار العين**

مجهول

(سباط ٢٤٢٥)

☐ **المنتخب في مداواة العين وعلاجها**

عمار بن علي الموصلي – قبل ٤١١هـ

(تشستربيتي ٥٤١٦، دار الكتب المصرية/ ١٠٠ طب تيمور، أحمد الثالث ١٢/٢٠٨٠، الخزانة العامة/ الرباط ٧٨٢ د، المكتبة البريطانية ١١٧٧٣)

☐ **منظومة في الكحل**

ابن الصنيعة : مفضل بن هبة الله الاسنائي – ٦٧٠هـ

(نور عثمانية ٥/٣٥٧٦)

☐ **المهذب في الكحل المجرب**

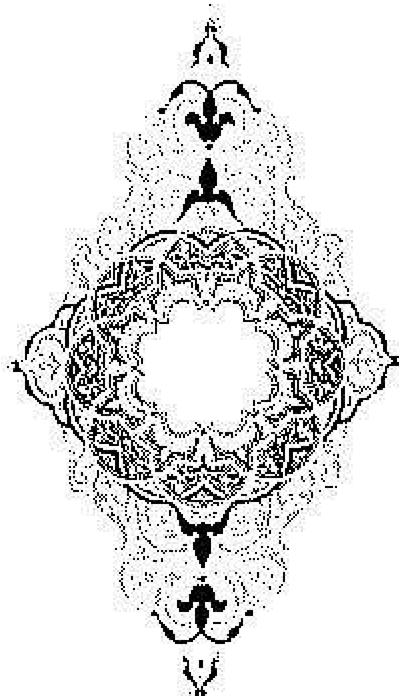
ابن النفيس : علي بن أبي الحزم القرشي – ٦٨٧هـ

(سباط ١/١٧، الظاهرية ٨٤٣٥، الفاتنكان ٣٠٧، برلين ٢٣٦٥، حاجي محمود/ استانبول ٥٥١٥)

☐ **نتيجة الفكر في علاج أمراض البصر**

ابن هبة الله : أحمد بن عثمان القيسي – ٦٥٧هـ

(المكتبة الوطنية/ باريس ٣٠٠٧، تشستربيتي ٣٤٢٥، المتحف العراقي ٢٦٢٥٤، نور عثمانية ١/٣٦٠٩، يكيلر ١٠٩٧، الظاهرية ٥٨٢٨، سامي حداد/ بيروت ٥٦، غوتا



١٩٩٣)

□ **نهاية الأفكار ونزهة الأبصار**

عبد الله بن قاسم الحريري الاشبيلي - بعد ٦٢٤هـ

(مكتبة المجمع العلمي العراقي - بدون رقم)

□ **النهاية في علم العين**

مجهول

(تشستربيتي ٣٤٢٥)

□ **نور العيون وجامع الفنون**

صلاح الدين بن يوسف الحموي - حوالي ٦٩٦هـ

(المكتبة الوطنية/ باريس ٣٠٠٨، تشستربيتي ٣٤٢١، البلدية/ الإسكندرية ١٢٣٧ طب، حميدية ١٠٣٨، غوتا ١٩٩٤، البلدية/ الإسكندرية (ن ١٢٣٧ - ب)، المكتبة الوطنية/ باريس ١٠٤٢، البلدية/ الإسكندرية ١٠٩٩)

□ **وقاية العين بشرح تجريد كشف الرين**

المناوي : محمد عبد الرؤوف - ١٠٣١هـ

(سباط ١٦، المتحف العراقي ١١٠١٤، الظاهرية ٩٩٣٠)

كتاب «التشبيهات» من عيون الأدب العربي التي رصدت مادة فنية جادت بها قرائح الشعراء منذ العصر الجاهلي إلى أوائل القرن الرابع الهجري رصداً يكاد يكون فريداً.

كتاب التشبيهات لابن أبي عون

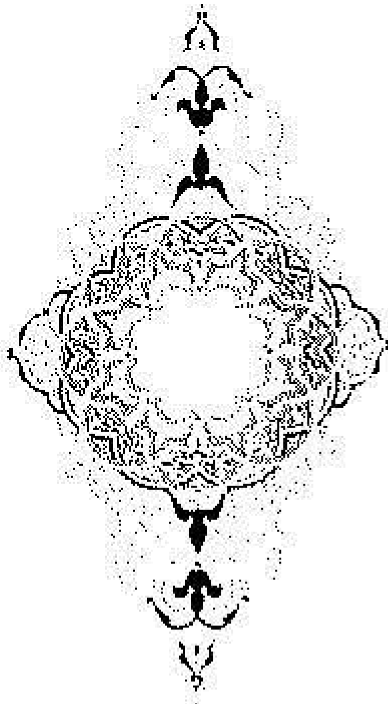
الأستاذ عبدالقادر زمامة
كلية الآداب - جامعة سيدي محمد بن عبدالله - فاس

مؤلف هذا الكتاب هو إبراهيم بن محمد بن أبي عون أحمد بن المنجم الذي لا نعرف من ترجمته إلا النزر اليسير، وقتل ببغداد سنة ٣٢٢هـ = ٩٣٤م.

ظل الكتاب مخطوطاً إلى أن طبع بمطبعة جامعة كمبردج سنة ١٣٦٩هـ = ١٩٥٠م في ٤٨٥ صفحة. وقد عني بتصحيحه محمد عبدالمعيد خان.

لم تسعدني الأقدار وأنا أتابع دراساتي للأدب العربي في عصوره وموضوعاته وشكلياته ومضامينه ومختلف كتب تراثه أن أطلع على كتاب «التشبيهات» لابن أبي عون. وكان في مقدمة الموانع والعوائق أن نسخه الخطية كانت قليلة، وأنه طبع ونشر في دائرة ضيقة، وأن تداوله لم يتعد نطاق الباحثين الدارسين المهتمين بتحقيق كتب التراث الأدبي في اللغة العربية. وكنت أغبطهم حينما أشاهد في قائمة مصادرهم ومراجعهم كتاب «التشبيهات» لابن أبي عون.

وكنت - والكتاب بعيد عني وعنوانه قريب مني - أتخيل كل شيء يخطر على الذاكرة فيما يرجع لباب التشبيه ومقاصد الشعراء التي قصدوها منذ أن اتخذوه من الأدوات التي يمتطونها لتحديد المعاني أو تقريبها أو تجميلها أو تشويهها لا بالنسبة للمشبه ولا بالنسبة للمشبه به ولا بالنسبة للمخاطبين ولا



بالنسبة لأدوات التشبيه. فالمعروف المدروس هو أن الشعراء العرب منذ فجر الأدب العربي تفننوا في التشبيهات وأدواتها لأغراض يصعب علينا حصرها في نطاق ضيق يستوعبها كلها في عصور الأدب العربي. وحينما تقعدت القواعد، و تحددت المقاصد عند علماء البيان، ظلت التشبيهات في الأدب العربي – شعره ونثره – متسعة الآفاق عند الشعراء والكتاب. نظرًا لأن لها ميزة شعورية ذوقية زائدة على الأداة اللفظية، تجعل المخاطب والقارئ كليهما يبحثان ذوقيًا عن الملتقى الذي قصد أساسًا لجمع المشبه والمشبه به في معنى حقيقي أو صورة خيالية بسيطة أو مركبة، وهذا هو عنصر الطرافة.

فإذا أضيف إلى هذا عامل التحضر والتمدن وما يبعثه ذلك من تطور الصور والمفاهيم والمقاصد والوقائع والظروف والبيئات فان آفاق التشبيهات تتسع اتساعًا، ترافقه معطيات واقعية وأخرى وجدانية وثالثة حضارية وثقافية.

وقد جدت ظروف تحققت فيها الرغبة وحصلت على صورة لكتاب «التشبيهات» وإذ ذاك رافقت ابن أبي عون مرافقة، جعلتني ألحظ عنده ما كنت أتصوره، وما كنت لا أتصوره من أنواع التشبيهات التي قدمها فحول الشعراء شاهد إثبات على نبوغهم وعمق نظرتهم إلى الجديات والهزليات، ولا سيما أنّ ابن أبي عون الكاتب الأديب الناقد قدم جلها تقديم مؤلف يملك غزارة المادة، كما يملك حسن التناول.

وكان لزامًا عليَّ أن أكتب هذا المقال واقفًا مع كتاب «التشبيهات» وقفة موضوعية قصيرة جامعًا بين التصور الذي كان عندي والواقع الذي لمسته فيه منذ أن عشت مع هذه التشبيهات وأصحابها.

وفي ظني أن مؤلف «التشبيهات» من بعض الوجوه يشيد بمؤلف كتاب «الأغاني»؛ فهما معًا من رجال القرن الرابع الهجري، قرن نضج الحضارة واتساع آفاق الثقافة، وكلاهما عاش أمام حضارة العصر وثقافته في عالم خاص به، كونه لنفسه، ومنه ينطلق للكتابة والتأليف.

إلا أن أبا الفرج الأصبهاني كان أطول نفسًا وأوسع ثقافة وأغزر مادة، وابن أبي عون كان محدود الثقافة، إلا أنه كان يرصد الإبداع والمبدعين في موضوع معين، وهو التشبيهات عند الشعراء الذين حلقوا حينما قدموا روائع الصور والتشبيهات، وأسفُّوا حينما نزلوا إلى حضيض العبث والمجونيات والصور المكشوفة.

ويظهر أن ابن أبي عون – الذي عاش أواخر القرن الثالث الهجري وأوائل القرن الرابع – كان يدرك معطيات عصره ومعطيات أعلام الشعر والتأليف وأعلام الروايات والأمالي وما أكثرهم، كما يظهر أنه كان من أسرة لها ثقافة وجاه ومناصب كتابية في

بغداد.

أما شخصيته وما تقدمه عناصر ترجمته الباقية في كتب التاريخ والطبقات عنها فان الأمر لا يعدو إشارات، تقف طويلاً عند قضيته الشهيرة مع متبوعه ابن الشلمغاني المعروف بابن أبي العزاقر، الذي قتل وصلب سنة ٣٢٢هـ = ٩٣٤م ثم ألحق به صاحبه ابن أبي عون هذا، ثم انطلقت الأقلام والألسنة تصفه بما تصف به زنادقة العصر. ولعل ذلك كان من أسباب إهماله وإهمال كتابه.

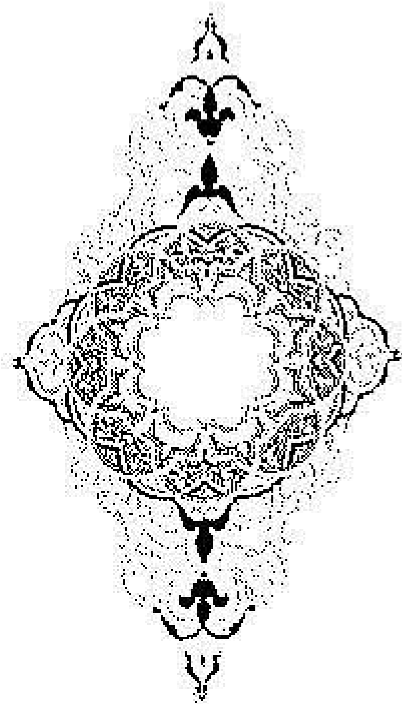
أما ما يتعلق بمولده ومراحل تكوينه الثقافي والفكري وأساتذته وتلامذته وما شغله من مناصب وما قام به من أعمال أخرى غير متابعة ابن الشلمغاني فإننا - حسب ما نعرفه من مصادر ومراجع تتعلق به - الآن لا نستطيع أن نجد ما يشفي الغليل، ليبقى أمامنا هذا النزر القليل من الإشارات التي أودعها كتاب «التشبيهات»، نستمد منها بعض صلاته ببعض أعلام عصره، أخذ عنهم أو حدثوه ببعض المقطعات أو الأبيات الشعرية مما يتعلق بموضوع التشبيهات.

وهكذا نجد أنفسنا أمام شخصية ضاعت ترجمتها ونسيت أخبارها. ولم يبق أمامنا إلا ما نستفيده من بعض آثارها ولا سيما كتاب «التشبيهات».

ويظهر أن الكتاب كان في أصله مهدى إلى شخصية مرموقة في عصرها، لها رغبة في الأدب والاطلاع على ما خلده الشعراء في الجاهلية والإسلام من روائع التشبيهات التي تشمل الماديات والمعنويات من النجوم والكواكب ومظاهر الطبيعة في النبات والمخلوقات الحيوانية، وما يتعلق بالإنسان في خَلقه وخُلقه ومحاسنه ومبانله، وما تبرزه الحضارة من ملذات وأدوات؛ ولذلك نجده يقول مفتتحًا كتابه بقوله: «زادك الله في الأدب رغبة، وللعلوم محبة، ووفقك للحجة ودلك على المحجة، وأعانك على طلبك بالرشد، وأظفرك بالغرض عند الفحص، سألتني أعزك الله أن أثبت لك أبياتًا من تشبيهات الشعراء الواقعة وبدائعهم فيها الظريفة، وقد تقدم الناس أعزك الله في اختيار الشعر وتمييزه، غير أنهم لم يصنفوه أبوابًا».

وبعد أن يقسم أنحاء الشعر يقول: «ورأيت أجل هذه الأنحاء وأصعبها على صانعها التشبيه، وذلك أنه لا يقع إلا لمن طال تأمله ولطف حسه وميز بين الأشياء بلطيف فكره، وأنا أثبت لك في هذا الكتاب أبياتًا من التشبيه مختارة، وأتخلل المعاني المختلفة والتشبيهات المتداولة إلى الأبيات الطريفة النادرة، وأقتصر على جملة يكون لك فيها حظ ومتعة وتأدب ورياضة، وأتجنب الإطالة التي يتلقاها الملالة، وأتبع ذلك بكتاب فيه الأمثال وكتاب فيه الاستعارة. وبالله الحول والقوة».

من هذه المقدمة ندرك أن الكتاب كان مهدى إلى شخصية لا نعلم عنها الآن شيئًا. وقد أتبعها ابن أبي عون بما يسميه الأبواب التي



بلغت ٩١ بابًا، يسمي كل باب باسم خاص حسب ما يظهر له، فتارة يطول وتارة يقصر حسب المادة التي يملكها من الأبيات والمقطعات مبتدئًا بعالم النجوم والكواكب والشمس والقمر وتكيفات الأفق عند الشروق والغروب وما إلى ذلك، متتبعًا ما يزخر به المحيط الحضاري من عادات وتفاعلات، تحرك الألسنة والأقلام جدًا وهزلاً، ترفعها رافعة وتخفضها خافضة.

ويلفت نظرنا قوله في الباب الثالث: «ومن التشبيهات الأندلسية قول أبي يوسف الرقادي

وليلة أنس قد أنرنا ظلامها

بأنجم راح تستنير فترشفإلى أن

بدا ضوء الصباح كأنما

تحمّل لقمان وأقبل يوسف

فالمعروف عندنا من شعراء الأندلس هو يوسف بن هارون الكندي الرمادي معاصر أبي الطيب المتنبي ومادح الحاجب المنصور بن أبي عامر. وهو يوسف لا أبو يوسف، وكانت وفاته سنة ٤٠٣هـ = ١٠١٢م ومن المستبعد أن ينقل ابن أبي عون المتوفى سنة ٣٢٢هـ شعر شاعر أندلسي توفى سنة ٤٠٣هـ.

وقد أشار مصحح الكتاب في تعليقه على البيتين إلى أنهما موجودان على حاشية مخطوطة (أ) وغير موجودين في مخطوطة (ب)، ولعل ذلك فيه ما يقوي استبعادنا أن ينقل ابن أبي عون البغدادي المتوفى سنة ٣٢٢هـ شعر الرمادي الأندلسي المتوفى سنة ٤٠٣هـ، فلعل أحد القراء أضاف هذين البيتين وهما للشاعر الرمادي الأندلسي وليسا من أصل الكتاب.

ولا يخفى ما في البيتين من إبداع إذ إن الرمادي عبر عن ذهاب ظلام الليل بقوله: تحمّل لقمان ، وعبر عن إقبال ضوء الصباح بقوله: أقبل يوسف.

وسواد وجه الحكيم لقمان شهير،

كما أن جمال وجه يوسف مما تضرب به الأمثال.

وينتقل المؤلف في الباب الرابع إلى الحرباء - الحيوان المضروب بتلونه المثل قديمًا وحديثًا - ويعجبك في التشبيهات التي جاء بها ابن أبي عون لعدد من الشعراء قول ذي الرمة في الموضوع :

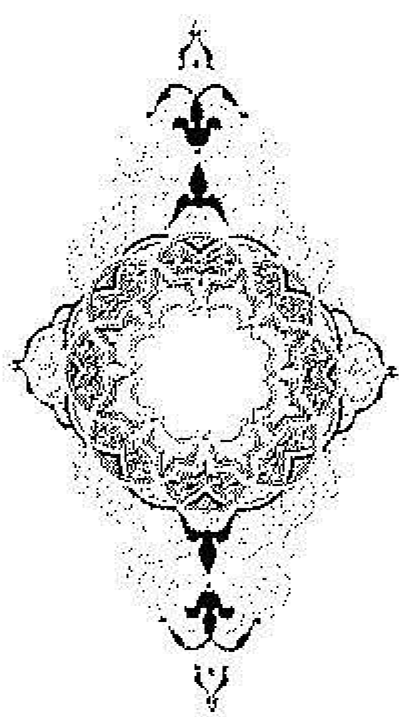
يصلِّي به الحرباء للشمس ماثلاً

على الجذع إلا أنه لا يكبِّر

إذا حول الظلُّ العشيُّ رأيته

حنيفًا وفي قرن الضحى يتنصَّر

ومن الحرباء إلى التشبيهات المتعلقة بأولئك الأشقياء المصلوبين والهيئات التي بدوا بها أمام الناس، وقد تفنن الشعراء في تشخيص تلك الهيئات بأساليب من التشبيه فيها المضحك وفيها المبكي وفيها ما بدا للناس حقيقة، كما أن فيها ما نسجه الخيال تشفِّيًا وسخرية وتشويهًا واستغرابًا. ولم يكن ابن أبي عون يظن أن مصيره سيكون شبيهًا بمصير هؤلاء الأشقياء.



ولعل كتاب التشبيهات أقدم كتاب - فيما نعلم - أشار إلى القصيدة المشهورة باسم القصيدة اليتيمة أو القصيدة الدعدية التي مطلعها - ولم يعرج على صاحبها -

هل بالطول لسائل رد

أم هل لها بتكلم عهد

وعندما يدخل المؤلف مع الشعراء عالم صفات المرأة تجد الأشياء الغريبة من التشبيهات التي في كثير منها مجونيات عرفت بها تلك العصور، كما أن في بعضها ما يعكس عيوبًا اجتماعية، لسنا بصدد تحليل أسبابها الآن.

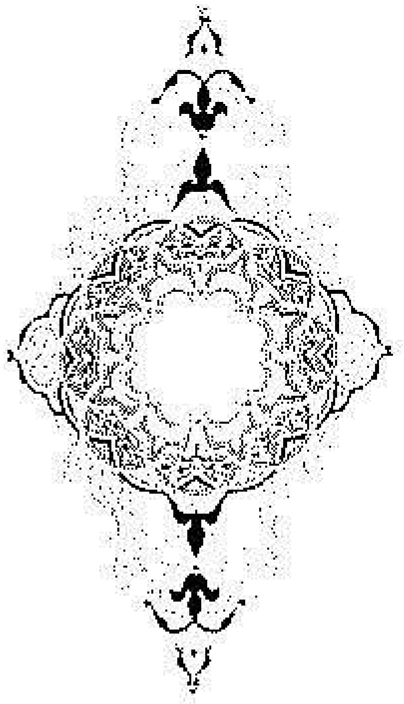
وعندما يدخل معهم عالم الطرب والغناء وما كان هناك من المغنيات والراقصات وما يستعملن من أدوات وما كان العصر يوحي به من مجالس ومنتديات نجد المؤلف يتتبع تشبيهات الشعراء، ويعلق على بعضها، سواء كان المقام مقام وصف وإعجاب أم مقام هجو واستنكار. ومن المشاهد أنه لا يذكر المصادر المتعددة التي جمع منها هذه المادة من التشبيهات، وقد كانت متوافرة في عصره بكثرة.

ويختم المؤلف الباب الحادي عشر المتعلق بالشراب بفقرات يقول فيها: «وقد تكررت في كتابنا تشبيهات للمحدثين مثل أبي نواس وبشار ومسلم والطائي والبحتري وابن الرومي وابن المعتز وأضرابهم، لأنَّا اعتمدنا على إثبات عيون التشبيهات المختارة والمعاني الغريبة البعيدة دون المتداولة المخلقة. والمتقدمون، وإن كانوا افتتحوا القول وفتحوا للمحدثين الباب، ونهجوا لهم الطريق، فكان لهم فضل السبق واستئناف المعاني وصعوبة الابتداء - فإن هؤلاء قد أحسنوا التأمل وأصابوا التشبيه، وولدوا المعاني، وزادوا على ما نقلوا وأغربوا فيما أبدعوا».

فهذه نظرة لها وزنها في النقد واعتبارها في الدراسة، إذ إن المؤلف بدا وكأنه يساير الموضوعية في اختياراته وأحكامه، مبتعدًا عن السير في ركاب المقلدين المتعلقين بكل ما كان أقرب إلى الماضي.

وقارئ كتاب «التشبيهات» يألف هذه الآراء التي يرددها المؤلف في كل المناسبات حيث يكرر أنه ملتزم بتقديم الإبداعات الطريفة، وتخطي ما كان من المبتذلات المكررة، من أي عصر جاءت، وعلى أي لسان وردت. ولا أثر في الكتاب لزندقة ولا إلحاد، نعم هناك مجونيات معروفة عنده وعند غيره من بعض مؤلفي تلك العصور كما هو معروف مدروس عند خبراء كتب التراث.

ويبدو أن ابن أبي عون وكأنه أحاط بدواوين الشعراء الوصافين، وفي مقدمتهم ابن الرومي والبحتري وابن المعتز وأبو تمام والعباس بن الأحنف وابن أبي ربيعة وذو الرمة وغيرهم كثير، كما يبدو وكأنه أحاط بالحياة الاجتماعية بما فيها من بساطة وتعقيد وجد وهزل وما عكسته هذه الحياة على فن الشعراء



وتشبيهاتهم ومجونياتهم.

وقبل أن يصل المؤلف إلى الباب الحادي والتسعين الذي ختم به كتابه، نجده في الباب التسعين يقف طويلاً بفقرات نثرية، بدأها بقوله: «قال صاحب كليلة». واستمر ينقل عن ابن المقفع أقواله التي استعمل فيها تشبيهات متعددة تصور تجاربه في الحياة، كما نقل عن آخرين غير ابن المقفع. والهدف من هذه النقول هو أن يعطي القارئ صورًا نثرية بها تشبيهات دقيقة عميقة المغزى أو هكذا يخيل إلينا.

أما الباب الحادي والتسعون وهو أطول أبواب الكتاب وأغزرها مادة وأجمعها لأسماء الشعراء - وقد شغل من الكتاب ما يقرب من مائة صفحة - فقد جعله المؤلف للتشبيهات المختلطة والأبيات المنفردة، ولم يتقيد بموضوع خاص، وكأنه بعمله هذا يلقي آخر السهام التي كان قد جمعها في كنانته.

هذه هي الوقفة الموضوعية القصيرة التي وقفتها مع كتاب التشبيهات ومؤلفه ابن أبي عون محترمًا آراء الآخرين.

ولا نودع الحديث عن متن الكتاب ومضمونه دون أن نشير إلى أننا قصدنا في هذه النظرة الموجزة عن الكتاب ألا ندخل فيما أثاره ابن خلكان في «وفيات الأعيان»، ولا فيما أثاره ياقوت الحموي في «معجم الأدباء»، ولا فيما أثار قبلهما مؤلف كتاب «الفهرست» من زندقة ابن أبي عون لأنه كان من أتباع الشلمغاني. لأننا تحدثنا أو آثرنا أن نتحدث عن هذا الكتاب وموضوعه الأدبي لا عن المؤلف ما رمي به وما حكم به عليه.

كما أننا نشير إلى أن كتاب التشبيهات كان محل إشارة مفيدة في:

- كتاب تاريخ النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام ج ١ ص ٢٧٨.
- كتاب تاريخ النقد الأدبي عند العرب للدكتور إحسان عباس ص ١٣٠.
- كتاب تاريخ الأدب العربي للدكتور شوقي ضيف ج ٥ ص ٢٩٩.

هذا وعمل المصحح في كتاب التشبيهات عمل واضح الإفادة في ضبط الأبيات وذكر بحورها ومراجعة مصادرها في الدواوين والمجاميع وتقديم الفهارس المتنوعة المفيدة للقارئ والباحث.■

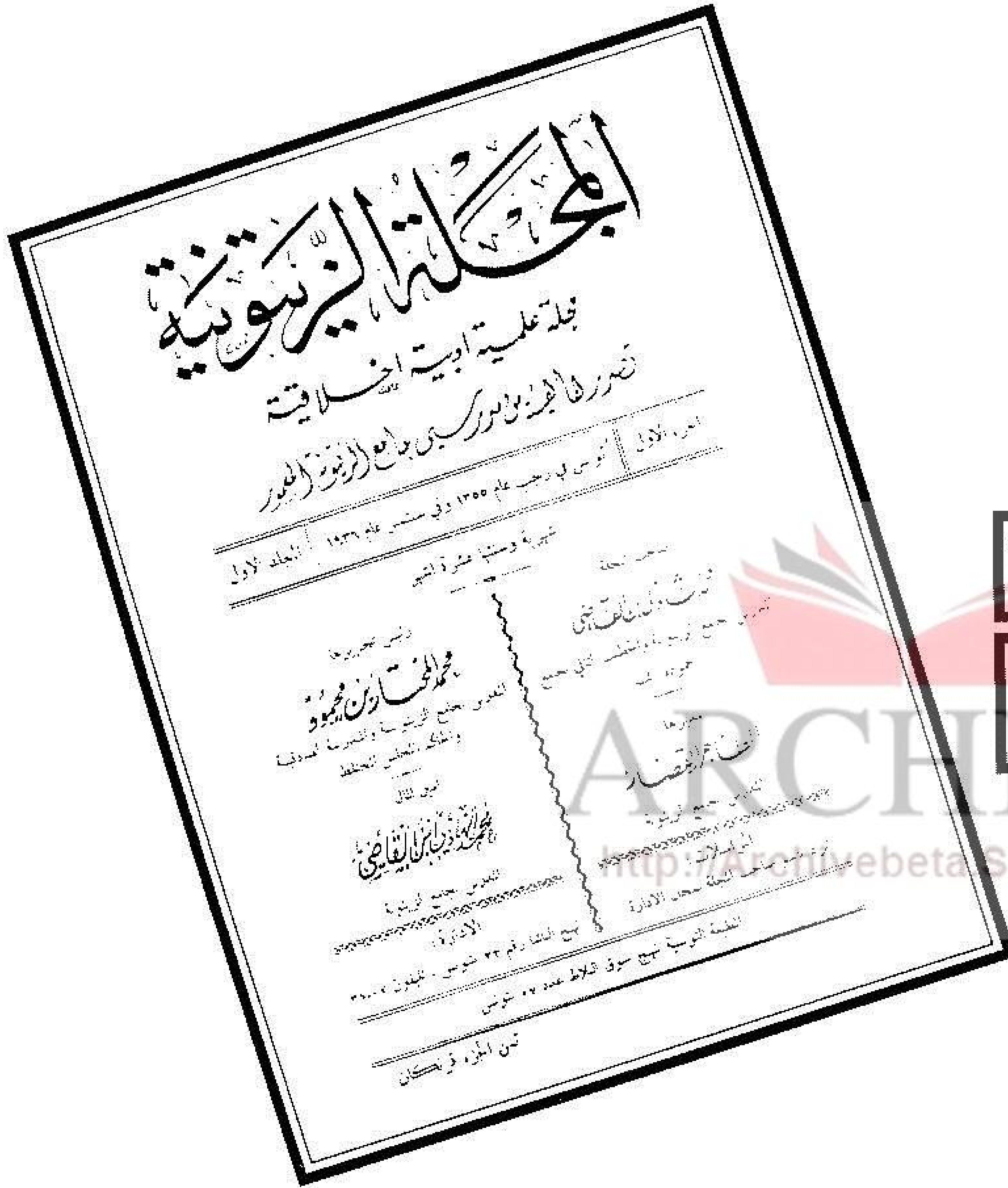
الحواشي

١ - ابن الأثير. الكامل في التاريخ. حوادث سنة ٣٢٢ هـ.
٢ - ابن خلكان. وفيات الأعيان. تـ محيي الدين، ١: ٤١٩.
٣ - ابن النديم. الفهرست. ص ٢١١.
٤ - بروكلمان، كارل. تاريخ الأدب العربي. ١: ٢٣٥.
٥ - البغدادي. الفرق بين الفرق. ص ٢٤٩.
٦ - مطلوب، أحمد. معجم المصطلحات البلاغية وتطورها (بغداد، ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م).
٧ - ياقوت الحموي. معجم الأدباء (دار المأمون) ١: ٢٣٤.

المجلة الزيتونية

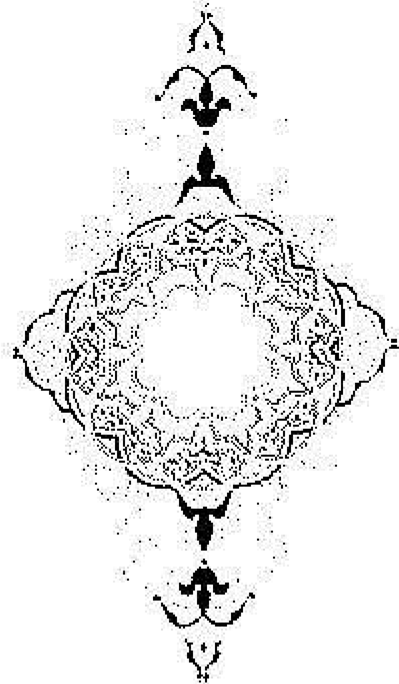
تعريف الدكتور نزار أباظة

رئيس قسم الدراسات والنشر في مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث



إن اسم المجلة الزيتـونة يوحي أول الأمر بجامع إفريقية الشهير الذي كان يمثل أحد مراكز الحضارة العربية الإسلامية في المغرب العربي، والذي بقي نور العلم يشع منه على مدى قرون متراخية منذ إنشائه في تونس أيام الأمويين[١].

وقد يظنّ الظانّ أن هذه المجلة النادرة اليوم مجلة رسمية تصدر عن الجامع المذكور لاتصال اسمها به، ولكنّ الذي أنشأها في الحقيقة هيئة من العلماء ينتمون إلى «جمعية علماء الزيتونة» خولهم قانونها حق إصدار مجلة ونشريات. ولذا فقد طلبوا الإذن من السلطات الرسمية عام ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٢ م لإصدار المجلة التي نحن بصدد الحديث عنها، فجاء الردّ بالرفض، ثم عاودوا الطلب بعد ذلك، فحصلوا على الترخيص بها في ربيع الثاني من عام ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م بعد سعاية وجهد[٢].



وهكذا صدر العدد الأول في رجب من عام ١٣٥٥ هـ الموافق سبتمبر (أيلول) ١٩٣٦ وجعلت مجلة شهرية سنتها عشرة أعداد وصفت نفسها بأنها «مجلة علمية أدبية أخلاقية».

وإنّ المجلة وإن لم تكن رسمية فإنني أعدها شبه رسمية، لأنّ القائمين عليها هم مدرسو الجامع الذين زاروا شيخه الأكبر الشيخ صالح المالقي. وعرضوا عليه مشروعهم، فأيدهم وشجعهم، وقدّم لهم جملة من النصائح، وطلب منهم أن تتطرق موضوعاتها لأهداف جامع الزيتونة الأساسية، وهي المحافظة على سمعته واتساع نطاق التعليم به لتكوين طبقات علمية عالية المستوى والمحافظة على العلوم الدينية الأساسية وربط الفروع بالأصول والمحافظة على اللغة العربية وآدابها من وهدة الجهل[٣]؛ فهي إذن تعبّر عن الجامع وترتبط به ارتباطاً معنوياً بإدارة مستقلة.

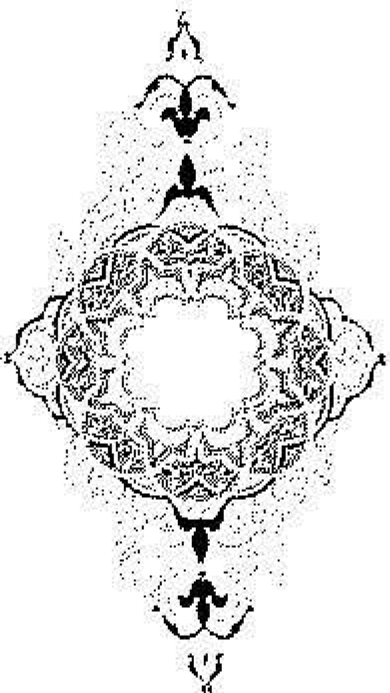
ولعل أهمية هذه المجلة المتميزة على محدودية صفحاتها التي لا تتجاوز الخمسين في كل عدد (٢٨ × ١٩ سم) تتركز في أنها تمثل الحقبة الأخيرة من حياة جامع الزيتونة قبل أن يتغير أسلوبه في التعليم؛ إذ إنه بعد توقف المجلة بمدة غير طويلة تحول عن النهج الذي كان عليه والطريقة التي عرف بها في نشر العلم.

وهناك نقطة أخرى لا تقل عن تلك أهمية، وهي أنّ المجلة تعطي فكرة عن جانب من الحركة الثقافية التونسية قبيل عهد الاستقلال عام ١٩٥٦، هو جانب الثقافة العربية الإسلامية في تونس والقضايا التي تهمّ المحافظين ومن لفّ لفهم آنذاك وكأنها مقارعة غير مباشرة للاستعمار الفرنسي الذي يبتغي مسح الهوية العربية الإسلامية في شمال إفريقية.

أسس المجلة الزيتونية صاحبها - كما جاء على صفحة العنوان - محمد الشاذلي بن القاضي، وعهد برئاسة تحريرها إلى محمد المختار بن محمود، وبإدارتها إلى الطاهر القصار. أما بقية الهيئة المؤسسة فهم محمد الهادي بن القاضي والحطاب بوشناق ومحمود بن الطاهر[٤].

وقد أبانت المجلة عن توجهها وخطتها منذ العدد الأول، فقد جاء في مقدمته: «سيكون شعار المجلة في جميع أعمالها وفي مختلف أطوارها الإصلاح الديني، ومقاومة كل حركة ترمي إلى الإلحاد أو إلى التعصب الديني أو المذهبي، ومقاومة البدع بجميع أنواعها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، وبث العلوم والمعارف بين الناس بأقرب الوسائل وأسهل الطرق. وتدخل في المناقشات العلمية مع الالتزام بالآداب في المناقشة والأخذ بالرفق»[٥].

فهي إذن مجلة معتدلة لا تتطرف ذات اليمين ولا تنحرف ذات الشمال. تبتغي الحق والوصول إلى المعرفة، وتعرف أهدافها منذ



البداية، وتسير مسترشدة بهذه الأهداف.

واعتمدت أبواباً ثابتة هي باب القرآن الكريم، ويشتمل على مباحث علومه، ونشرت فيه تباعاً دروس في التفسير ألقاها بجامع الزيتونة العلامة محمد الطاهر بن عاشور شيخ الإسلام المالكي في تونس، وباب علوم الحديث الشريف، وباب التشريع الإسلامي ومقاصده، وباب الفتاوى والأحكام، وباب تاريخ تونس ويضم رجالاتها، وباب الأدب، نشرت فيه مختارات من الشعر التونسي القديم والحديث. هذا إلى جانب باب الأخلاق والوعظ والإرشاد[٦].

وقد أفسحت المجلة زاوية فيها سمتها «صفحة للشباب» من أجل حثهم على الكتابة وتشجيعاً لهم[٧].

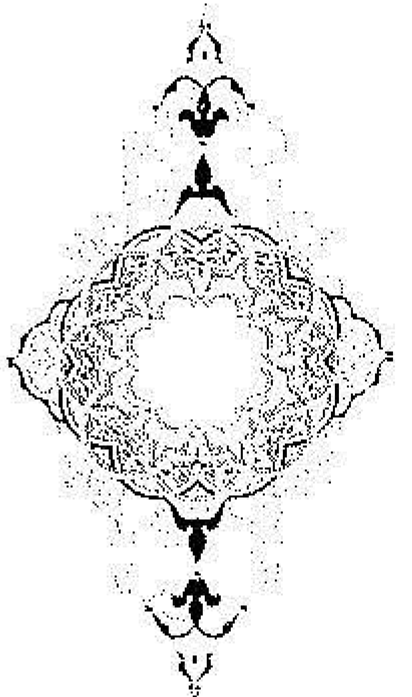
هذه هي الأبواب الثابتة التي ترسم الخطوط العريضة لهوية المجلة ويضاف إليها صفحات غير ثابتة كالحديث عن الجرائد والمجلات وعن الحركة العلمية والأدبية في تونس والشرق العربي والإشارة إلى المخترعات الحديثة والكلام أحياناً عن الأمور الصحية، وفيها مقالات عن مشكلات معاصرة تهم العرب والمسلمين. ودأبت المجلة على نشر قصائد الشعراء التونسيين بين الفينة والأخرى، ومنذ العدد الأول نشر الطاهر القصار قصيدة بعنوان «اليراعة»، تحدث فيها عن فضل القلم والكتابة، ونوّه بأهمية المجلة الزيتونية. وكان مما قال فيها[٨]:

زُفَّت عروساً للنهى عربية
بإبائها تركية بجمالها
وسطت على هم الصعاب بمالها
في الله من ثقة لدى أُمّالها
قد شرفت نسباً بمنتسب الهدى
ركن المعارف بيتها ومنالها
المسجد السامي الذرى حيث الهدا
ية يبهر الألباب خفق جلالها
موصولة الحلقات موثقة العرى
بالمهتدين شبابها ورجالها
القائمين بأمرها والشائديـ
ن بذكرها والتابعين لآلها
هذي المجلة سوف يكمل حظها
ما دام سعي الشعب نحو كمالها

ومن العناوين المهمة التي تدل عليها أكثر

نجد في موضوعات التاريخ ما يلي:

- كيف نشأت خزائن الكتب لدراسة العلوم بجامع الزيتونة[٩].
- الصُرَّة كيف كانت نشأتها[١٠].
- دار الباي بتونس[١١].
- حالة العرب الدينية قبل البعثة[١٢].
- تاريخ سراية المملكة التونسية[١٣].
- التاريخ بالهجرة الشريفة[١٤].
- الملاجىء الخيرية في الإسلام[١٥].
- أبواب مدينة تونس[١٦].
- الرياضة البدنية في القديم[١٧].
- الشمال الإفريقي ماضيه وحاضره[١٨].
- الجامعة الزيتونية ماضيها وحاضرها[١٩].



ومن موضوعات الأدب والنقد:

- البكاء في الشعر العربي[٢٠].
- التجديد في الأدب[٢١].
- العاطفة في الأدب العربي[٢٢].
- الخيال في الأدب العربي[٢٣].
- تأثير الأدب في رقي الأمم[٢٤].
- العنصر العقلي في الأدب[٢٥].
- أدب الأمير شكيب أرسلان[٢٦].

وفي الموضوعات المعاصرة أدرجت المقالات الآتية:

- مظاهر العيد عندنا[٢٧].
- مشكلة المرأة التونسية من حيث التربية والتعليم[٢٨].
- المسلمون في رومانيا وبلغاريا[٢٩].
- ما هي طرق الوصول إلى إصلاحنا[٣٠].
- ما هنالك من دستور الجامعة العربية[٣١].
- صدى المؤامرة بتونس[٣٢].
- دعوة المغرب الإسلامي لتوحيد العمل[٣٣].

وهناك مسائل كثيرة من الفتاوى التي كانت المجلة تجيب عنها سواء من القضايا القديمة أو المستجدة ومنها:

- حكم لبس البرنيطة[٣٤].
- حكم الله في التجنيس[٣٥].
- حكم السيكورتاه (التأمين)[٣٦].
- حكم الدخان[٣٧].
- آداب الزوجية وحكمها[٣٨].
- حكم تزوج الأخ بزوجة أخيه بعد الفراق[٣٩].
- حكم الشك من وصول اللبن[٤٠].

ولقد شارك في الكتابة بهذه الموضوعات عدد من كبار الشخصيات اللامعة المعروفة من تونس غالباً وخارجها أحياناً: فمن الأسماء التي تردد ذكرها على صفحات المجلة محمد بن الخوجة ومحمد عبد الحي الكتاني ومحمد الطاهر بن عاشور وعبد العزيز الثعالبي ومحمد العزيز جعيط، ومحمد الحجوي ومحمد الخضر حسين والأمير شكيب أرسلان ومحمد الفاضل بن عاشور وحسن حسني عبد الوهاب والعربي الكبادي ومحمد صالح المزالي وأحمد المختار الوزير وعدد من علماء آل النيفر، منهم محمد الشاذلي وإبراهيم وعلي البشير وغيرهم.

وقد أصدرت المجلة الزيتونية أعداداً خاصة وممتازة في سنواتها الأولى والثالثة والخامسة والسادسة والتاسعة زادت عن سبعة أعداد، منها ما هو خاص بالمولد الشريف أو بذكرى الهجرة ومنها ما كان لتكريم شيوخ الجامع وأمثال ذلك.

وبعد ما صدر العدد الممتاز وهو العدد الثامن من السنة التاسعة الذي خصص بالمؤتمر القومي الزيتوني الثالث المنعقد بتونس في ربيع الأول ١٣٧٥ هـ الموافق لشهر نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٥٥ توقفت المجلة عن الصدور دون الإشارة إلى أن هذا العدد

سيكون الأخير، كما هي عادة بعض المجلات.. مما دلّ على أن توقفها غالباً كان بقرار مفاجىء من خارج إدارة المجلة، وجهته إليها السلطات.

وعني مؤخراً الأستاذ الحبيب اللمسي التونسي صاحب دار الغرب الإسلامي في لبنان بإعادة طبع المجلة تصويراً، وذلك سنة ١٩٩٣ فأصدر منها عدداً محدوداً من النسخ على ورق جميل وتجليد أنيق، وأخرجها في سبعة مجلدات مذيّلة بفهرس شامل للعناوين وأسماء الكُتّاب والموضوعات.

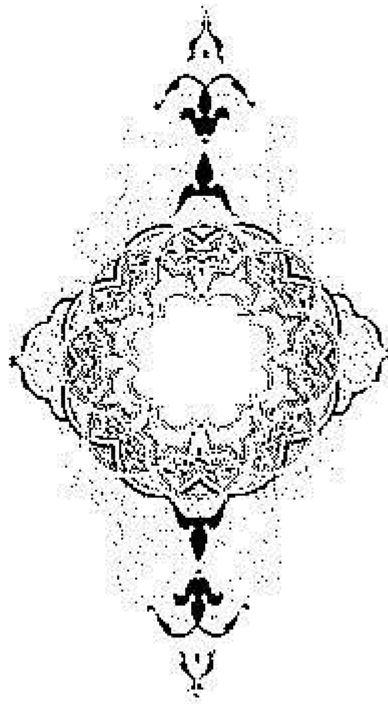
والملاحظ عند تقليب أوراق المجلة أنها رقّمت صفحات كل سنة بالتسلسل من أولها إلى آخرها، ولم يرقّم كل عدد على حدة. وأنها من جهة أخرى استخدمت الأرقام العربية الشرقية في حين استخدم الناشر في الفهارس العامة الأرقام الأوروبية التي يستعملها المغاربة.

وإنني إذ أسجّل هذه الملاحظة أدع الحديث عما حولها من الخلاف الواقع اليوم بين الباحثين الذين يزعم بعضهم أنّ أوربا تستعمل الأرقام العربية وأننا نستعمل الأرقام الهندية فإنّ في المسألة نظراً وهي تحتاج إلى وقفة حيادية[٤١].

لقد كانت المجلة الزيتونية منارة علم وهدى وثقافة عبّرت خلال سنواتها التسع عن أفكار طبقة من العلماء في تونس الخضراء كانت ملء عيونها وأسماعها وقلوبها.

رحم الله من سطر صفحاتها وشارك في تحريرها ودعا بهديها. وألهم ذريتهم السير بسيرهم ومتابعة خطواتهم.■

الحواشي



(١) وقد اختلف فيمن أسسه فقالوا حسان بن النعمان (- بعد ٨٦ هـ) عامل إفريقية زمن معاوية رضي الله عنه وقالوا: عبيد الله الحبحاب (- بعد ١٢٣ هـ) الذي أرسله هشام بن عبد الملك إلى إفريقية لضبط أمورها.

ومن المؤرخين من يجمع بين القولين فيرى أن الذي بناه هو حسان، وأن عبيد الله زاد فيه. ثم وسعه زيادة الله بن الأغلب حاكم تونس (- ٢٢٣ هـ). وكمل اتساعه أيام بني حفص.

انظر الاستقصا ١: ٤٢، ٤٨، البيان المغرب ١: ٣٤، ٥١، فتح العرب للمغرب، ص ٢٣٥، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص ١٣، المجلة الزيتونية مج٢، ع٢، ص ٥٠ - ٥١).

(٢) انظر بعض التفصيلات في المجلة الزيتونية مج١، ع١، ص ١١.

(٣) المصدر السابق. مج١، ع١، ص ٧ - ١٠.
(٤) المصدر السابق، مج٣، ع١، ص٣.
(٥) المصدر السابق، مج١، ع١، ص ١١ - ١٢.
(٦) المصدر السابق، مج١، ع١، ص ٣ - ٦.
(٧) المصدر السابق.
(٨) المصدر السابق، مج١، ع١، ص ٣٢.
(٩) مج١، ع٢ ص ٧١، ع٣، ص ٢٣٦.
(١٠) مج١، ع٥، ص ٢٤٦.
(١١) مج١، ع٨، ص ٣٩٠.
(١٢) مج١، ع٩، ص ٤٣٢.
(١٣) مج١، ع ١٠، ص ٥٢٩.
(١٤) مج٣، ص ١٢٣.
(١٥) مج٣، ص ٢٣٦، ٢٧٦.
(١٦) مج٤، ع٨، ص ٢٤٣ - ٢٤٩.
(١٧) مج٥، ع١٠، ص ٢٤٨.
(١٨) مج٦، ع٩، ص ٥٥١.
(١٩) مج٩، ع٧، ص ٣٥٣ - ٣٥٧.
(٢٠) مج١، ع٢، ص ٨١، ع٣، ص ١٤٢، ع٥، ص ٢٥٦.
(٢١) مج١، ع١٠، ص ٥٣٤.
(٢٢) مج٢، ع ١١٥/٤، ع ١٨٢/٥، ع ٢٣٣/٦، ع ٢٨١/٧.
(٢٣) مج٣، ص ٧٦، ١٨٩، ٢٩٥، ٢٤٦، ٤٣٣.
(٢٤) مج٣، ٣٤٠.



(٢٥) مج٥، ع٦، ص ٣٥٧.
(٢٦) مج٨، ع٢، ص ٨٦ - ٨٩.
(٢٧) مج١، ع٤، ص ٢٠١.
(٢٨) مج١، ع٤، ص ٢١١.
(٢٩) مج٢، ع١، ص ٣٧.
(٣٠) مج٦، ع٤، ص ٤٩٢.
(٣١) مج٦، ع٩، ص ٥٨٠.
(٣٢) مج٩، ع٨، ص ٤٤٧.
(٣٣) مج٩، ع ١٤٥/٣، ع ١٤٩/٤، ع ٢٦٤/٥، ع ١٨٧/٧.
(٣٤) مج١، ع١، ص ٣٤.
(٣٥) مج١، ع١، ص ٤٨٨.
(٣٦) مج١، ع١٠، ص ٥١٠.
(٣٧) مج١، ع ١٠، ص ٥٠٨.
(٣٨) مج١، ع٨، ص ٣٨٦.
(٣٩) مج٤، ع٧، ص ٢٠٧.
(٤٠) مج٥، ع ١٠، ص ٢٥٥
(٤١) للتوسع في مسألة الأرقام انظر بحث الدكتور قاسم السامرائي «تاريخ الخط العربي وأرقامه مقدمة موجزة» مجلة عالم الكتب، ص٥٢٣، مج ١٦، ع٣، الجماديان ١٤١٦ هـ، نوفمبر ديسمبر ١٩٩٥.

